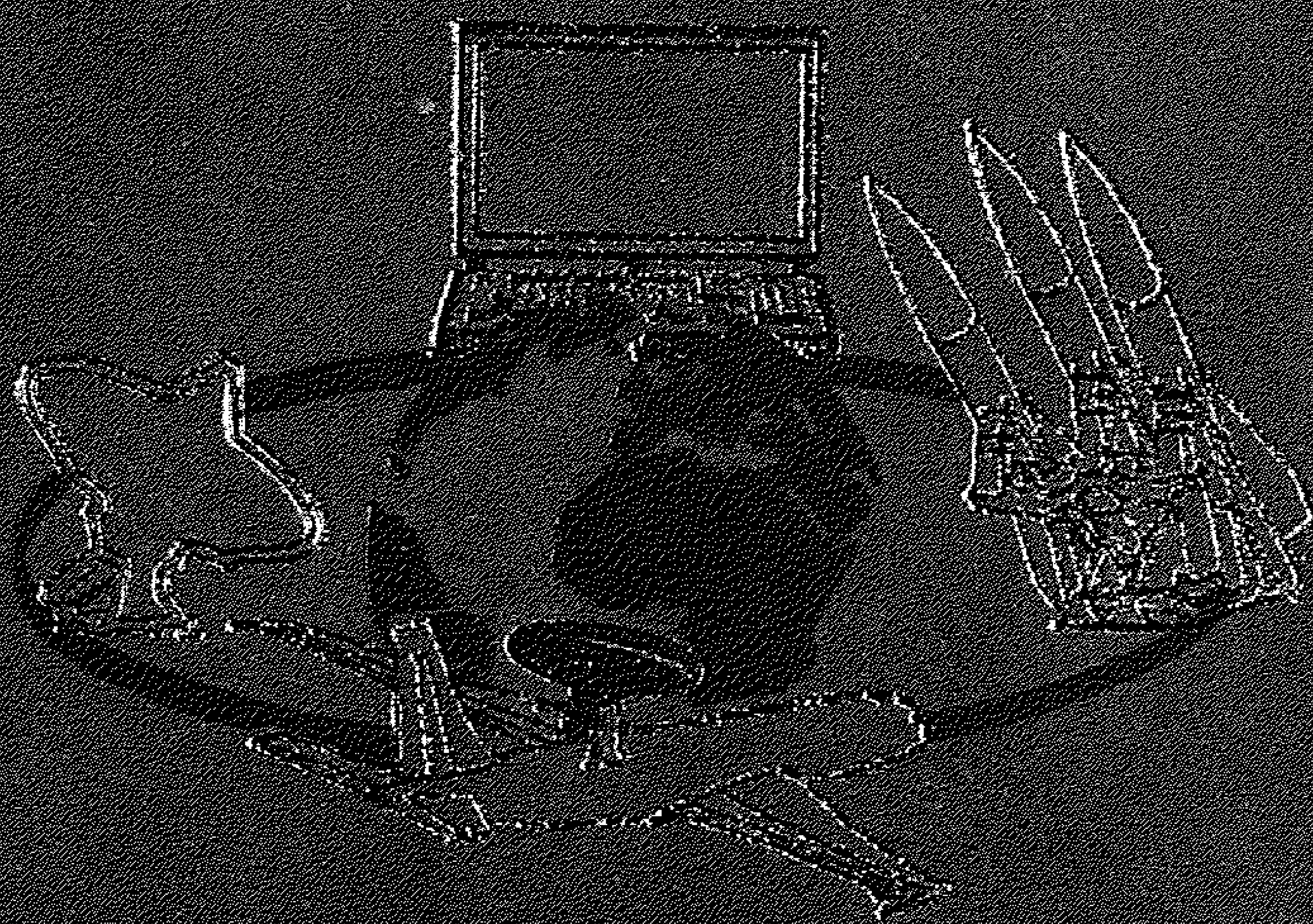
موسوعة
عالم المخابرات
كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم



NOBILIS

موسوعة عالم المخابرات

كلّ شيء عن الجاسوسيّة والاستخبارات في العالم

أصلُ الجاسوسيّة وتطوّرها

أسعَد مفرِّج

ولجَنة من البَاحثين

موسُوعَة

عَالَـــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العَالَم

الجزء الرَّابع

الجَاسُوسيَّة في خلال الحَربَين العَالميَّتين



إسم المَجموعَة	:	عَالَـــــم المُخابَرات
		كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارَات في العَالَم
إسم الكِتَاب	:	الجَاسُوسيَّة في خلاَل الحَربَين العَالميَّتَين
الجزء	:	الرَّابع
المؤلِّف	:	أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين
قياس الكتَاب	:	٢٠ × ٢٨
مكَان النَّشر	:	بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

الوَضعُ الأوروبّيُّ عَشيَّةَ الحَربِ العَالَميَّةِ الأولَى

يقول باحثون إنّ للدول العظمى مصالح دائمة، تسيّر وتوجّه سياستها الخارجيّة، مهما كانت الحكومة التي تقبض على زمام السلطة، ومهما كان نوع النظام السياسيّ السائد فيها. وهذه المصالح مرتبطة بشروط جغرافيّة وشروط ديموغرافيّة سكّانيّة، وشروط نفسيّة... كما أنّها مرتبطة أيضًا بحاجات وضرورات النظام الاقتصاديّ السائد. وقد كوّنت العداوات بين الشعور الوطنيّ وبين التسلّط الاستعماريّ الستار الخلفيّ الذي ظهرت أمامه الصعوبات على مسرح السياسة في أوروبّا. ومع ذلك، فعلينا ألاّ نقلّل من خطورة الأزمات الدبلوماسيّة، إذ إنّ كلّ الدول الأوروبيّة لم تكن تتمنّى الحرب. ولكنّ جميع هذه الدول كانت ترى أنّ حربًا عامّة كانت ممكنة. وقد حاول الجميع الوصول إلى موقف خاصّ، سواء لمنع الحرب، أو لمواجهتها في ظروف مؤاتيّة.

كان بسمارك يسيطر في وسط هذا النشاط الدبلوماسيّ، ويعرف كيف يفيد من اختلاف المصالح الدوليّة، لكي يحتفظ بالتفوّق القارّي الذي حصلت عليه ألمانيا بعد حرب ١٨٧٠، ولكنّ نفس الشيء كان يضايقه في ما يتعلّق بإمكانيّة التسبّب في تهديد بالحرب بين روسيا والنمسا والمجر في المسألة البلقانيّة. وقد نجح بسمارك، حتّى تركه السلطة سنة ١٨٩٠، في الاحتفاظ حول ألمانيا بنظام من المحالفات والوفاقات التي كانت تدعم تفوّقه. والعمل الدبلوماسيّ عنده لم يكن مجرّد مساومة، إنّما بناء نظام يسيطر وجوده على تفكير الحكومات والشعوب.

سقوط بسمارك سنة ١٨٩٠، سرّع بإحداث أزمة دبلوماسيّة أوروبيّة. فبعد استقالة المستشار رفضت الحكومة الألمانيّة الاحتفاظ بارتباط سرّي مع روسيا المعزولة واتّجهت صوب التحالف مع فرنسا، وبالتالي إلى إحداث تغيير عميق في العلاقات الدوليّة في أوروبّا.

تطوّرت العلاقات الدوليّة في مظهرين من مظاهرها خلال العشرين عامًا التي تلت سقوط النظام البسماركي في ألمانيا، فكان نتيجة ذلك: إستمرار نموّ التوسّع الأوروبّي رغم تصدّيه للصعوبات التي اعترضته، والتي كانت أشدّ خطورة ممّا سبقها، والخلافات القويّة بين الدول الأوروبيّة العظمى، والتهديد بالحرب في ما بينها، ممّا دفع بهذه الدول إلى عقد اتّفاقيّات ثنائيّة دبلوماسيّة وعسكريّة، زادت في حدّة العدوان في ما بينها.

ولكن، هل يا ترى كانت هناك علاقة مباشرة بين هذا التوسّع الأوروبّي، وبين هذه الصعوبات التي ازدادت في أوروبّا؟ وبمعنى آخر، ألم يكن الصدام بين الاتّجاهات التسلّطيّة خارج أوروبّا هو السبب الرئيسيّ للخصومات؟

لقد بدا هذا الافتراض مغريًا وخاصّة لهؤلاء الذين كانوا مستعدّين سلفًا باتّجاهاتهم الفكريّة إلى التفكير في أنّ المصالح الاقتصاديّة، كانت المصدر الرئيسيّ للصدامات السياسيّة، وهذا التفسير هو بسيط ومقبول، ولكنّه حقيقيّ.

غير أنّ الرغبة في التوسّع الاقتصاديّ وحركة القوميّات، كانتا تختلفان بين دولة وأخرى، إذ لا يمكن للدول الأوروبيّة العظمى الستّ، والتي تشمل على ما يقرب ٨٥٪ من سكّان القارّة، وللدولتين العظميين خارج نطاق أوروبّا، أي الولايات المتّحدة الأميركيّة واليابان، نفس الفكرة في التوسّع والتسلّط، والرغبة في القوّة. وقد ظهر توسّع الدول العظمى القويّة على حساب الدول الضعيفة، والمتخلّفة بسرعة متزايدة بين

سنة ١٨٩٣ وسنة ١٩٠١، ممّا أدّى إلى تغييرات هامّة في أشكال الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة في الشرق الأقصى، وأفريقيا، وأميركا اللاتينيّة. وأصبح كلّ ذلك مركزًا هامًّا في العلاقات السياسيّة بين الدول العظمى، وبدت الخصومات الأوروبيّة، وحتّى المنافسات البلقانيّة، التي كانت تسبّبت منذ بضع سنوات في خطر حرب عامّة، على أنّها قد سكنت.

في سنة ١٩١٣، لم تكن سيطرة أوروبّا على العالم لتقوم على قوّتها العسكريّة، وأساطيلها الحربيّة، وكثرة جيوشها فحسب، بل كانت علاوة على ذلك، قائمة على تفوّقها الماديّ والصناعيّ، الذي جعل منها "مصنع العالم"، إضافة إلى تفوّقها الماليّ وتفوّقها الفكريّ.

الثروة البشريّة في أوروبّا كانت ٤٦٠ مليونًا من أصل ١,٨٠٠ مليون هم مجموع سكّان الكرة الأرضيّة، أي ما يوازي ٢٦٪. ورغم ذلك فإنّ معدّل نموّ السكّان فيها، ظلّ دائمًا مرتفعًا. والهجرة الأوروبيّة إلى الخارج كانت أهمّ الهجرات في العالم. وقد أسهمت في توطيد وتطوير العالم الجديد، الذي نشأ في ما وراء البحار، كالولايات المتّحدة الأميركيّة ودول الدومينيون والأرجنتين والبرازيل. ويجب أن نضيف أيضًا جميع أولئك المهاجرين الذين ينزحون عن أوطانهم، إلى حين، ليعملوا في استثمار المشاريع الاقتصاديّة التي، كما قيل، "تديرها أوروبّا لمصلحة أوروبّا".

إنّ أوروبّا تكاد تكون السوق الوحيدة لعدد لا بأس به من الموادّ الأوّليّة كالصوف والفحم والنحاس والقصدير... والمموّن للعالم بالسلع المصنوعة الجاهزة، فهي جدير بأن تفرض على تلك الموادّ والسلع الأسعار التي تريد، وبأن تستوفي لقاء خدماتها في شحن تلك البضائع، وتأمينها وتسهيل معاملاتها المصرفيّة، جعالات، هي في الحقيقة موارد، وإن تكن غير منظورة، فإنّها ذات شأن كبير. كما أنّ المؤسّسات المصرفيّة

وبيوت المضاربات الماليّة، التي تتزوّد منها الحكومات والأفراد بما تحتاج إليه من الديون الطويلة الأجل، لم تكن توجد في متاجر أوروبّا الكبرى... فنشاط نيويورك كان لا يزال مقصورًا على تمويل الأميركتين الشماليّة والجنوبيّة.

كانت أوروبّا وحدها القادرة على بذل رؤوس الأموال الضروريّة، لفتح المناجم، ومدّ السكك الحديديّة، وإنشاء المصانع في أيّ جهة من العالم. لقد كانت مصرف العالم بأسره، إذ كانت تشكّل ٨٣٪ من التمويلات الخارجيّة. في حين كانت الولايات المتّحدة لا تشكّل أكثر من ٥٪ من هذه التمويلات.

إنّ هذه الثروة القوميّة التي كانت تنتقل بهذه الطريقة إلى الخارج، كانت تتحول إلى أدوات للسيطرة الاقتصاديّة، وتشقّ الطريق للتجّار ولأصحاب الاختصاص والمهندسين الذين بتولّيهم إدارة المشاريع الاستعماريّة الكبرى، يحوّلون البلاد الرازحة تحت وطأة الديون إلى بلاد تستورد من أوروبّا السلع الجاهزة، وتصدّر إليها الموادّ الأوّليّة.

لقد كانت الأمبراطوريّة الألمانيّة، أقوى دولة في أوروبّا، كما كانت في الوقت ذاته دولة عالميّة عظمى. فمنذ سنة ١٨٧١، سلكت هذه الدولة سياسة محافظة في أوروبّا. وكان بسمارك بين سنة ١٨٧١ وسنة ١٨٩٠ يرمي إلى الحفاظ على ما كسبته ألمانيا بانتصارها العسكريّ منذ سنة ١٨٦٦ حتّى سنة ١٨٧١، ولا يرى ضرورة لكسب التوسّع. وإذا قرأنا المؤلّفات التي كتبها أنصار هذه الجامعة آنذاك، تبيّن لنا أنّهم كانوا يرجون أن يجعلوا من ألمانيا دولة قويّة، ويرون أن تضمّ الأمبراطوريّة الألمانيّة تحت لوائها، الألمان الذين يعيشون في الخارج، مثل ألمان النمسا، وهنغاريا، وبلاد البلطيق، وحتّى ما يسمّونه الثغور الألمانيّة أي الهولنديّين والفلامنديّين. إلاّ أنّ الحكومة الألمانيّة لم تقبل في أيّ وقت مضى قبل سنة ١٩١٤ هذا البرنامج الشامل الذي وضعه

الجرمانيّون. وفي خارج أوروبّا كانت ألمانيا تطالب بنصيبها من النفوذ الذي تمارسه أوروبّا في القارّات الأخرى أو كما كان يسمّى "مكانًا تحت الشمس"، وقد اعتمدت على النظريّة التي تقول: "قوّة ألمانيا وحيويّتها وسعة اقتصادها ونموّ سكّانها السريع يجعل لها الحقّ في حصّة تتناسب مع أهميّتها عند تقسيم الأراضي، أو عند تقسيم مناطق النفوذ في العالم. رغم أنّها دخلت متأخّرة على الحقل الاستعماريّ، ولم تأت في الوقت المناسب... ومع ذلك أرادت أن تكسب بلادًا ويكون لها مستعمرات في العالم". لكنّ نشاطها كان قد امتدّ إلى خارج البلاد، فقد حصلت من الدولة العثمانيّة على امتياز مدّ خطّ سكّة حديد بغداد. وفرضت نفوذها في شمالي الصين في إقليم "شان تونغ"، وكانت تتمتّع بنفوذ إقتصاديّ في أميركا اللاتينيّة، ولا سيّما في تشيلي. وكان للجامعة الجرمانيّة برنامج توسّعيّ في أفريقيا وخاصّة في مراكش الجنوبيّة وأفريقيا الوسطى. وكان الجيش الألمانيّ أقوى جيش في القارّة الأوروبيّة، لا بل أقوى جيش في العالم من حيث التنظيم والعتاد. وكلّ إنسان في ألمانيا كان يعتبر نفسه جنديًّا. وهذه العقليّة ساعدت الحكومة كثيرًا. فقد كانت البورجوازيّة الألمانيّة متحمّسة جدًّا لتشكيل ملاك الضبّاط الاحتياطيّ. ومثل هذا الحماس لم يكن إلاّ قليلاً عند البورجوازيّة الفرنسيّة في ذلك الحين.

وهكذا أصبحت ألمانيا في مطلع القرن العشرين الدولة الأكبر أهميّة، نتيجة ثبات أهدافها وتركيز وسائلها، ونظام أهلها، وقوّة جيشها. وكانت النمسا وإيطاليا من أتباعها، والسويد صديقتها. وقدّمت تركيا لها مركز نفوذ سياسيّ واقتصاديّ. فنظّمت تجارتها العالميّة على نطاق واسع حيث نمت نموًّا سريعًا، في الكميّة والأهميّة، وصار العلَم الألمانيّ يشاهد في كلّ بناء. وكانت الدولة تدير السكك الحديديّة، وتحمي السوق الداخليّة، وتعيّن الصادرات... وكانت أقوى دولة اقتصاديّة في القارّة الأوروبيّة، فكانت

مفاتيح الحرب والسلم في يد برلين، وكان في وسع الأمبراطوريّة الألمانيّة في صباح واحد قلب التوازن الدقيق في أوروبّا.

أمّا وسائل ألمانيا الدبلوماسيّة، فكانت أقلّ صلابة من وسائلها العسكريّة والبحريّة.

لا شكّ في أنّ ألمانيا كانت مركز الحلف الثلاثيّ، إلاّ أنّ الدولة النمساويّة ـ الهنغاريّة، لم تكن، حسب تعبير غليوم الثاني، إلاّ مساعدًا ثانويًّا، وإيطاليا كانت حليفًا مشكوكًا في أمانته وإخلاصه، وقد كتب السفير الألمانيّ في روما سنة ١٩١٣: "يجب ألاّ ننسى أنّ جميع التعهّدات التي تأخذها إيطاليا على عاتقها، تخضع لمبدأ التحوّل".

وكانت سياسة القيصر الألمانيّ غير مستقرّة، وولعه بالأبّهة والعنجهيّة، وفوراته العنيفة، قد أبقت أوروبّا في حالة شديدة من التوتّر.

أمّا بالنسبة لإيطاليا، فإنّ وضعها الجغرافيّ يعيّن اتّجاه سياستها الخارجيّة، فهي شبه جزيرة محاطة بالبحار من ثلاث جهات. ويبلغ طول سواحلها ٨,٥٠٠ كلم. ومن الصعب حمايتها والدفاع عنها. ومن جهة أخرى، نراها منفصلة عن باقي القارّة الأوروبيّة بجبال الألب، أي بمنطقة صعبة العبور للغاية.

أمّا من الناحية الاقتصاديّة، فيغلب الطابع الزراعيّ، وينقصها الفحم والبترول والحديد. فهي تصدّر الحاصلات الزراعيّة لشراء الفحم والموادّ الأوليّة المنجميّة الضروريّة. إلاّ أنّها لا تستطيع أن تصدّر حاصلاتها الزراعيّة إلى بلاد حوض البحر المتوسّط، التي تنتج ذات المحاصيل. لذا وجب تصديرها نحو أوروبّا الوسطى، وحوض الدانوب. والسكّان الإيطاليّون كانوا يزدادون بسرعة في حين كانت صناعتهم لا تزال في طور النموّ، ممّا أجبر الكثير منهم على الهجرة نحو القارّة الأميركيّة.

كان الشاغل الأول للسياسة الإيطاليّة البحر الأبيض المتوسّط، لأنّه المنفذ الوحيد لها. فهي عن طريقه، تتلقّى جميع وارداتها... فكانت تسعى للحصول على نقاط ارتكاز على شواطئه، وخاصّة في طرابلس الغرب، وشرقيّ المتوسّط. وتخشى أن ترى دولة أخرى تسيطر على هذا البحر. في حين كانت أبواب المتوسّط في يد بريطانيا، مضيق جبل طارق من الغرب، وقناة السويس من الشرق، إضافة إلى القوّة البحريّة البريطانيّة التي تنتشر في جزره. وهكذا يمكن أن تكون الشواطئ الإيطاليّة في حالة الحرب، تحت رحمة القنابل البريطانيّة.

أمّا النزعة الاستعماريّة فكانت تراود الحكّام الإيطاليّين، لتؤمّن لإيطاليا الموادّ الغذائيّة، والمواد الأوليّة، والإستيطان بدل الهجرة إلى البلاد الأجنبيّة والذوبان في تلك البلاد فيفقد المهاجرين الوطن الأمّ. إلاّ أنّ وسائل إيطاليا كانت لا تزال ضعيفة لتحقيق هذا السياسة، لأنّها كانت لا تزال دولة فتيّة ناشئة... فضلاً عن أنّ وسائلها الماليّة كانت ضعيفة.

النمسا وهنغاريا، سنة ١٩١٠، كانتا تشكّلان دولة كبرى، إلاّ أنّها كانت دولة دون تماسك قوميّ. فقد كان الألمان والمجر بموجب النظام الثنائيّ يقبضون على ناصية الأمور السياسيّة، ولكنّهم كانوا أقليّة بالنسبة للسلافيّين.

كان يغلب على هذه الدولة الطابع الزراعيّ، رغم وجود المناطق الصناعيّة في النمسا وبوهيميا وسيبيريا. ومن ناحية السياسة الخارجيّة، فقد كانت الدولة الأوروبيّة الوحيدة التي لم يكن لها مصالح خارج أوروبّا، ولم تسلك سياسة توسّعيّة إستعماريّة، في حين كانت سياستها الأوروبيّة نشيطة جدًّا. وكانت نتائج جهدها في التوسّع نحو البلقان، بعد أن طُردت ألمانيا وأيطاليا، لكنّ هذه السياسة اصطدمت بالمنافع الروسيّة في البلقان.

إذا بحثنا عن الوسائل العسكريّة، وجدنا أنّه كان للأمبراطوريّة النمساويّة ـ الهنغاريّة جيش عظيم في عدده، إلاّ أنّه كان دون تماسك معنويّ، لأنّ معظم جنوده كانوا سلافيّين، في حين كان الضبّاط من الألمان والمجر. كما أنّ التناقض القوميّ الداخليّ كان من أسباب الاختلاف في الرأي. وقد عبّر عن ذلك "تشرنين" سنة ١٩١٣ بقوله: "إنّنا لم نقم ولن نستطيع أبدًا القيام بحرب تنال عطف جميع المملكة... ففي كلّ حال يكون بعض شعوبنا معنا، وبعضهم ضدّنا، ونحن مضطّرون أن نتجاهل كثيرًا وقليلاً حالة الرأي عند شعوبنا إذا أردنا أن نسلك سياسة خارجيّة نشيطة".

لقد أخفقت جميع الاهتمامات بالمسائل الاجتماعيّة والديمقراطيّة، ونهوض حركة العمّال الدوليّة ومنح حقّ الانتخابات سنة ١٩٠٧، في التخفيف من حدّة الانقسامات بين الأجناس المختلفة في الأمبراطوريّة النمساويّة ـ المجريّة، وكانت العنصريّة على الدوام أقوى الدوافع في إثارة الرأي العام. لقد كانت أقوى من الشعور الدينيّ، ومن الأطر الطبيعيّة والاجتماعيّة، ومن روابط المهنة والتضامن الاقتصاديّ... وقد عبّر كاتب نمساويّ عن هذا الشعور بقوله: "لقد كان القميص العنصريّ أقرب إلى القلب من البزّة الأمبراطوريّة".

أمّا روسيا، فتُعتبر أكبر دولة أوروبيّة مساحة وسكّانًا، إلاّ أنّها كانت تضمّ أقلّيات كثيرة غير متجانسة. وهي دولة كان يغلب عليها الطابع الزراعيّ، رغم بداية الحركة الصناعيّة فيها منذ سنة ١٨٨٠.

إذا تأمّلنا في وضع روسيا الجغرافيّ، وجدنا أنّها، بالرغم من سعة مساحتها، لا تملك جبهة بحريّة على المحيط المتجمّد الشماليّ، وهو بحر جليديّ، وعلى بحر البلطيق والبحر الأسود، وهما بحران مغلقان. ولم يكن للجيش الروسيّ الأهميّة الكبرى بالنسبة

إلى عدد السكّان، فضلاً عن أنّ هذا الجيش كـان بطـيء التجنيد. أمّا أسباب الضعف فترجع إلى العوامل التالية:

- قلّة عدد ضبّاط الاحتياط.
- عدم التجهيز الكافي بسبب النمط البطيء للصناعة الروسيّة.
- وجود الأسطول الروسيّ في بحرين مغلقين: البلطيق والأسود.

أمّا من حيث الوسائل الدبلوماسيّة، فقد كان الحلف النمساويّ الألمانيّ خطرًا على روسيا نظرًا لسياستها في البلقان. وكانت روسيا في مشاكل قائمة بينها وبين إنكلترا في آسيا على حدود أفغانستان، ثمّ في الشرق الأقصى. هذا الوضع جعل روسيا منعزلة، ممّا دفع بها إلى البحث عن حلف مع فرنسا، غير أنّ هذا الحلف كان موجّهًا ضدّ ألمانيا وحدها، وليس فيه ما يشعر بأنّه موجّه ضدّ إنكلترا. كما أنّه، من جهة أخرى، لا يتضمّن تعهّدًا واضحًا في ما يتعلّق بالسياسة البلقانيّة.

وفي الوضع الداخليّ، كانت القلاقل تزداد يومًا بعد يوم. فتفاقم تذمُّر الطلاّب في الجامعات، والنخبة المثقّفة كانت تطالب بتغييرات دستوريّة بعيدة المدى، والفلاّحون الفقراء كانوا يطالبون بضرورة سنّ قوانين عادلة تنظّم تأجير الأراضي، بينما المبادئ الماركسيّة تنتشر بين العمّال في المصانع. والحكومة القيصريّة تعالج كلّ هذا بالعنف والسجن والنفي إلى سيبيريا. ولكنّ كل هذه الطوائف ألّفت كتلة ضخمة من المقاومة، هدّدت النظام القائم في روسيا.

أمّا البرلمانات المتعاقبة فلم تستطع أن تعمل شيئًا للتقليل من كراهية الشعب للقيصر، أو للتخفيف من حدّة الفتن بين القوى المتصارعة. وكانت الزمرة السياسيّة والدبلوماسيّة والعسكريّة التي تحيط بالقيصر ميّالة إلى السلام، وكان الفريقان يمنّيان النفس يومًا بالهيمنة على ثغور القسطنطينيّة... وهكذا،

كما كانت سياسة القيصر عدوانيّة في الماضي، كذلك ما برحت عدوانيّة حتّى ذلك التاريخ.

كان يعرقل السياسة الخارجيّة الروسيّة التناقضات الداخليّة التي كانت تتحكّم في علاقات الأمبراطوريّة مع أوروبّا. فكانت روسيا بحاجة إلى رؤوس الأموال والتقنية الأجنبيّة إلى حدّ كبير، ولكنّ الحكومة لم تكن ترغب في رؤية النفوذ الأجنبيّ يؤثّر على الحياة السياسيّة الداخليّة، وفي الوقت ذاته كانت في صراع مستمرّ مع بعض أوساط البورجوازيّة وجماهير الفلاّحين في المسائل الداخليّة.

فرنسا، لم تكن تشكو من مشاكل عرقيّة، فالفرنسيّون كلّهم متجانسون، وليس فيها، كما في ألمانيا وروسيا وإنكلترا، أقليّات قوميّة. ومن الوجهة الجغرافيّة تتمتّع فرنسا بثلاث جبهات بحريّة وجبهة بريّة متّصلة جيّدًا بجبال الألب.

أمّا من الوجهة الاقتصاديّة، فكانت فرنسا بلدًا متوازن الاقتصاد بين الإنتاج الزراعيّ والإنتاج الصناعيّ. وكانت الصناعة قويّة بصورة كافية تستطيع معها البحث عن منافذ خارجيّة. وقد قال "جول فيري": "السياسة الاستعماريّة، بنت السياسة الصناعيّة، إذا كان لها سياسة توسّعية". وقد حقّق التوسّع الاستعماريّ الفرنسيّ منذ سنة ١٨٨٠ تقدّمًا كبيرًا وخاصّة في عهد الجمهوريّة الثالثة.

من الناحية العسكريّة، كانت فرنسا تستخدم كامل مواردها من الرجال. وكان جهدها في التجنيد يفوق جهد ألمانيا، أي أنّ نسبة المطلوبين للتجنيد في فرنسا كانت أقوى منها في ألمانيا، وشعبة التجنيد كانت تأخذ أكبر عدد ممكن من الشبّان. ومع ذلك فقد ظلّ الجهد الفرنسيّ محدودًا نظرًا لوضع فرنسا الديمقراطيّ، لأنّ سكّان فرنسا كانوا أقلّ عددًا من سكّان ألمانيا. أمّا البحريّة الفرنسيّة فرغم إعادة النظر فيها في ما بين سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩١٤، فقد كانت أقلّ بكثير من حاجتها.

أمّا قوّة إنكلترا الاقتصاديّة فكانت تعتمد على عنصرين: حريّة المبادلات، وحريّة المواصلات البحريّة. كما كانت تخشى هيمنة إحدى الدول الأوروبيّة على القارّة، لأنّ هذه الدولة تستطيع عندئذٍ أن تغلق القارّة في وجه التجارة البريطانيّة، وبصورة خاصّة إذا أنشأت لنفسها أسطولاً بحريًّا حربيًّا... وأخذت تهدّد سلامة الأمبراطوريّة البريطانيّة.

ومن جهة ثانية، كانت إنكلترا تسلك سياسة إستعماريّة توسّعيّة، ترجع إلى أسباب إقتصاديّة واستراتيجيّة ونفسيّة. ومردّ الأسباب الاقتصاديّة إلى أنّها كانت تخشى إذا تركت البلاد الأخرى تضع يدها على الأراضي الاستعماريّة الهامّة، أن تغلق هذه البلاد أبوابها في وجه التجارة البريطانيّة. واستراتيجيًّا، لأنّها بحاجة إلى نقاط استناد لأسطولها الحربيّ في جميع أنحاء العالم؛ أمّا نفسيًّا، فلأنّ أنصار التوسّع الاستعماريّ في إنكلترا يعلّقون أهميّة كبرى على رسالة إنكلترا في العالم، وعلى الدور الذي يقوم به الإنكليز تجاه الشعوب الملوّنة...

قبل سنة ١٩١٤، لم تكن إنكلترا ترى أنّها بحاجة إلى جيش دائم وكبير. فما دام أسطولها قويًّا فهي قويّة. يضاف إلى ذلك، أنّ الرأي العامّ الإنكليزيّ كان يكره بصراحة الخدمة الإجباريّة.

كانت السياسة البحريّة الإنكليزيّة، تعتمد على مبدإ "مستوى دولتين"، أي أنّه يجب أن يكون لبريطانيا أسطول حربيّ، يعادل على الأقلّ أسطولَي أقوى دولتين مع زيادة ١٠٪.

ومن حيث الوسائل الدبلوماسيّة، كانت إنكلترا في أدوار تاريخها، تبحث عن حلفاء إذا وقعت في ظروف حرجة، كما ظهر في الحروب النابوليونيّة. إلاّ أنّ الإنكليز كانوا يحاولون التخلّي عن الأحلاف ويسلكون سياسة العزلة. ولكنّهم وجدوا في أواخر القرن

التاسع عشر، أنّ هذه العزلة أصبحت خطرة، لأنّ إنكلترا بسبب النموّ الاستعماريّ، وجدت نفسها في صعوبات يمكن أن تؤدّي إلى خلافات. ولمّا لم يكن باستطاعتها أن تجابه هذه الأخطار كلّها بوسائلها الخاصّة، أخذت تبحث عن نقطة استناد في ألمانيا، إلاّ أنّها لم تنجح في ذلك، فالتفتت نحو فرنسا.

لقد بسطت الدول الأوروبيّة سلطانها الاقتصاديّ بشكل واسع على مستعمراتها، واستغلّت مواردها الطبيعيّة، ومجهودات سكّانها بشكل ملائم لمصالحها الذاتيّة. وقد اقتسمت هذه المستعمرات في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بشكل ارتجاليّ وغير مدروس، وخاصّة في أفريقيا، وذلك نتيجة للملابسات التي رافقت انتشار البعثات الدينيّة في تلك الأصقاع وغيرها من المناسبات والتطلّعات الدوليّة. لذلك كانت الحدود الفاصلة بين مختلف المستعمرات، مجرّد خطوط جغرافيّة يمليها العبث المطلق أحيانًا، وأحيانًا أخرى كان يُكتفى بأخذ درجات الطول والعرض حدودًا لتلك المستعمرات، دون أيّ اعتبار للفوارق العرقيّة والطبيعيّة. وإذا بها تفرّق بين الشعوب، أو تجمع بينها، دون أيّ مسوّغ من منطق أو عرف، وهكذا تكوّنت تلك الأمبراطوريّات الاستعماريّة المترامية الأطراف. فالأمبراطوريّة البريطانيّة كانت مساحتها توازي ١٨٠ مرّة مساحة بريطانيا، والأمبراطوريّة البلجيكيّة ٨٠ مرّة مساحة بلجيكا، والأمبراطوريّة الهولنديّة ٦٠ مرّة مساحة هولندا، والأمبراطوريّة الفرنسيّة ٢٠ مرّة مساحة فرنسا. وسيطرت روسيا على آسيا الوسطى إضافة إلى سيطرتها على سيبيريا.

إنّ الدول الثلاث: روسيا وبريطانيا وفرنسا، كانت تسيطر وحدها على أكثر من نصف مساحة الكرة الأرضيّة، وعلى أكثر من ثلث سكّانها. أمّا نظام استغلال هذه الممتلكات فكان نظام المقايضة. ويقوم بتصدير أكثر ما يمكن من الموادّ الخام، في مقابل استيراد المنتوجات الصناعيّة. ورؤوس الأموال الأجنبيّة لم تكن تُستخدم إلاّ في

سبيل إنتاج الموادّ الأوليّة. أمّا عائدات هذه الأموال، فقلّما تستثمر في البلدان التي أنتجتها. وهكذا لم تجر محاولة لتصنيع هذه البلدان...

لقد بقيت "جاوا"، المستعمرة النموذجيّة كما كانوا يدعونها، مرغمة على زراعة البنّ حتّى سنة ١٩١٤، وكانت أسعار الموادّ الأوّليّة تحدّد في أمستردام. أمّا في الهند فقد أوجدت سياسة الامتصاص Assimilation، حيث بقيت سوقًا ذات امتياز للصناعة الفرنسيّة مع تبادل بالمثل غير كامل. وكان من جرّاء ذلك، أن تدهورت تجارة الهند الصينيّة مع البلدان الآسيويّة، التي كانت السوق المثلى لمنتوجاتها من الأرزّ. واهتمّ البريطانيّون في الهند بتنمية الحاصلات الزراعيّة المعدّة للتصدير: كالقمح والقطن والأفيون والقنّب الهنديّ... أمّا الرسوم الجمركيّة التي فرضتها الدولة المستعمرة على الصناعات الوطنيّة، فقد منعت وعرقلت تقدّم هذه الصناعات، ممّا أدّى إلى إفلاسها وتعثّرها. إذ التزم التجّار الهنود استيراد المنتوجات الصناعيّة البريطانيّة دون سواها. وهو التزام لا يخدم سوى مصالح المرابين وكبار الملاّكين البريطانيّين. كلّ هذا قد حمل الغالبيّة العظمى من الفلاّحين الذين حلّ بهم الدمار والفقر على النزوح إلى أفريقيا الشرقيّة والجنوبيّة، حيث عوملوا معاملة العبيد... ممّا أهاب بـ"إنديّ" إلى رفع صوته بالاحتجاج والتهديد...

إنّ ٩٠٪ من التجارة الخارجيّة كان يتمّ مع "دومنيون" الأمبراطوريّة البريطانيّة. وتمثّل رؤوس الأموال البريطانيّة الموظّفة والمقدّرة بـ ٣٩٠ مليون استرليني، وفوائد الديون العامّة والالتزامات البيتيّة، وهي الرواتب التي تدفعها الهند للموظّفين القدماء، ما يزيد على ثلاثين مليون استرليني يترتّب على الهند أن تدفعها سنويًّا للإنكليز. كما أنّ الهند هي التي تحمّلت أعباء مال ورجال الحملات التي شنّتها بريطانيا في نهاية القرن التاسع عشر على السودان والحبشة.

كانت سيطرة أوروبّا تقوم على تفوّقها في المجالات الفكريّة. ففي أوروبّا نشأت التيّارات الفكريّة الحديثة والاكتشافات الكبيرة، ومن مختبراتها وجامعاتها، تخرّج الأطبّاء والتقنيّون والمهندسون الذين كانوا يحقّقون الأعمال العظيمة ويغيّرون من الكثير على وجه البسيطة، فلا عجب أن يُسعى إليها بحثًا عن أسرار عظمتها وفعاليّتها. فالطلاّب من كلّ صوب يتدفّقون إلى جامعاتها. وأكثر الكتب العلميّة ما دون المرحلة الجامعيّة مترجمة عن الفرنسيّة أو الألمانيّة... بعثات يابانيّة وصينيّة وغيرها... تفد إليها لتطّلع على الأساليب العلميّة لتكوين الدولة العصريّة. إضافة إلى البعثات العسكريّة المكلّفة بتنشئة الجيوش الوطنيّة. ومن جهة ثانية، نجد دعاة الإصلاح من الوطنيّين الشباب يستلهمون الأمثلة التي يقولها لهم تاريخ أوروبّا الحديث... فإذا بـ"ماتزيني"، و"كافور"، و"بسمارك"، يصبحون المثل الذي يقتدى به، ويصير الفكر الحرّ، وليد الثورة الفرنسيّة مصدر إلهام الدعاة الإصلاحيّين الصينيّين في مطلع القرن العشرين، وللضبّاط الأتراك زعماء جمعيّة الاتّحاد والترقّي وغيرهم...

في سنة ١٩١٤، كانت أوروبّا التي جمعت سلطان العلم، وسلطان القوّة، تسيطر على العالم بأكثره سيطرة كاملة. ومع ذلك، تراها مهدّدة بالفوضى المتزايدة في العلاقات الدوليّة، وبالمنافسات التي تدفع الدول الاستعماريّة إلى التناحر في ما بينها. إنّ ألمانيا أكبر دولة اقتصاديّة هي وحدها الدولة التي لا مستعمرات لها. وهي ترفض أن تنظر إلى هذا الوضع كوضع ناجز لا تبديل فيه. وفي أوروبّا كما في خارجها، تتناحر الدول العظمى تناحرًا شديدًا، وكلّ منها، يأمل في أن يستفيد من الصعوبات الداخليّة التي يلاقيها البعض في إيرلندا وبولندا وألمانيا وروسيا. وفي مقاطعتَي الألزاس واللورين، وفنلندا، وبين الأقليّات السلافيّة أو اللاتينيّة في النمسا والمجر، وفي كلّ مكان تستند فيه النزاعات القوميّة بازدياد الشعور الوطنيّ بين الشعوب.

ومن جهة أخرى، برز لأوروبّا منافسون، أجبرها تقدّمهم في شتّى المجالات على اعترافها لهم بحقّ المساواة. فهي لا تجد بدًّا من أخذها بعين الاعتبار نفوذ الولايات المتّحدة في القارّة الأميركيّة ونفوذ اليابان في الشرق الأقصى.

إنّ بوادر القلق الاجتماعيّ التي برزت أحيانًا سنة ١٩١٤، لم يكن مصدرها النظام المستتبّ في القرن التاسع عشر لمصلحة أوروبّا الاقتصاديّة، إنّما كان الاضطراب الاجتماعيّ المتزايد يومًا بعد يوم. فمنذ سنة ١٩٠٥، بدأت الاضطرابات الكبيرة ذات الطابع الثوريّ تنفجر في كلّ من إنكلترا وإيطاليا، عندما بدأت النقابات تظهر بشكل قويّ في صفوف العمّال الذين كان عددهم يتزايد بالملايين، وبالرغم من هذا، فلم يكن من دولة يخشى حكّامها انهيار النظام السائد، ما عدا روسيا، حيث لم يكن يعمل إلاّ النذر اليسير لمعالجة أسباب القلق المخيّم منذ إخماد ثورة سنة ١٩٠٥. فإنّ النظام السائد هناك كان مهدّدًا بالانهيار.

إنّ الحرب التي انفجرت سنة ١٩١٤، كانت بداية انهيار هذه السيادة حتّى لم يبق لها أثر بعد مرور أربعين سنة على انفجار تلك الحرب.

والحرب العالميّة الأولى، هي أوّل حرب خاضت غمارها في آن واحد تقريبًا، أهمّ دول العالم. فالحروب حتّى ذلك التاريخ، بما فيها حروب نابوليون، لم تكن في الواقع إلاّ حروبًا أوروبيّة، كذلك لم يتهيّأ لأوروبّا أن تتحالف وتقف معًا صفًّا واحدًا في وجه فرنسا إلاّ في حقبة سنة ١٨١٣ ـ ١٨١٥. إنّ الدول التي اشتركت في حروب القرن التاسع عشر، كانت تمتاز بطابعها الزراعيّ. فلم يمسّ اقتصادها إلاّ مسًّا رقيقًا، لا سيّما وأنّ تلك الحروب قد جرت في حيّز محدود من الزمان والمكان. أمّا الدول التي اشتركت في الحرب العالميّة الأولى بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨، فإنّها على عكس ذلك، دول صناعيّة وتجاريّة، راحت وهي في غمرة الحرب تحوّل قدراتها على

الانتاج، إلى تقوية صناعة الأسلحة وتطويرها، وتعبّئ الجيوش، ومعظمها من سكّان الأقاليم، ممّا يؤدّي إلى تقلّص السكّان وبالتالي إلى نقص المؤن والأغذية. وهكذا توقّفت حركة المبادلات التجاريّة وأصيب بناء الاقتصاد العالميّ إصابة خطيرة. ولم تكن إصابة البناء السياسيّ أخفّ وطأة من البناء الاقتصاديّ. فإذا استثنينا الدول ذات النظام الملكيّ، نجد أنّ سائر الدول الأوروبيّة كانت تأخذ بمبادئ تراها ثابتة لا تقبل الجدل، كالحكم المدنيّ، والديمقراطيّة البرلمانيّة التي تضمن لممثّلي الشعب حقّ الرقابة على أعمال الحكومة والإدارة العامّة، واحترام الحريّات الفرديّة الأوليّة. هناك أيضًا الحريّة الاقتصاديّة التي كادت تكون مطلقة من كلّ قيد وحدّ، عملاً بمبدإ "آدم سميث" القائل: "دعه يعمل دعه يمرّ".

في مثل هذه الحقبة من الليبيراليّة المنتصرة، والازدهار العامّ، لم يكن يظهر ما في ضعف الدولة من خطر يهدّد المصالح القوميّة العامّة. على أنّ الحرب من شأنها أن تقضي على هذه المبادئ والعادات، وعلى كلّ تقدّم وازدهار. فهي بحجّة أنّها تقوّي السلطة والنظام، تنزع إلى إلغاء أو تخفيف رقابة المجالس النيابيّة، وتقدّم سلامة الدولة على حقوق الأفراد والدفاع عنها، ودعم القوى الاجتماعيّة وتقوية نفوذها، هذا الذي كانت الأنظمة الديمقراطيّة تعمل على إضعافه والحدّ من نشاطه...

إنّ التنظيم الحربيّ هو الذي قضى على ما ألفه الناس من عادات، وما درجوا عليه من تقاليد وآراء موروثة. فلم تلبث أجهزة الانتاج، وهي أجهزة دقيقة ومعقّدة، أن تعطّلت فجأة، فالتزمت كلّ حكومة أن ترتجل إجراءات ثوريّة، وأن تتولّى بنفسها إدارة الاقتصاد الوطنيّ، أو تضعها تحت سلطتها لتتمكّن من إمداد الجيوش بالمعدّات والمؤن، وتأمين وسائل العيش للمواطنين. لقد اضطرّت كلّ دولة، بسبب افتقارها إلى وسائل النقل البحريّ، والحصار المفروض عليها من جانب أعدائها، إلى

ممارسة ما يُعرف بسياسة الاكتفاء الذاتيّ، الذي أتى على نظام توزيع العمل، كما يمارس أيّام السلم.

لأوّل مرّة في التاريخ، أجبرت الحرب الأمم أن تخصّص للنزاع جميع مواردها. لذا وجب أن يكون جهد المحاربين مدعومًا بجهد السكّان جميعهم. ووجب على كلّ شعب أن يوجّه طاقته نحو غاية واحدة هي الحرب[1].

كما شكّلت الحرب العالميّة الأولى نقطة تحوّل بارزة في تاريخ الاستخبارات... "قبل الحرب العالميّة الأولى، كان علم الاستخبارات ذا أهميّة ثانويّة، في حين أصبح بعدها يشكّل دعامة في مقدّمة الدعامات، في الحرب كما في السلم. لم تعد الاستخبارات وفنونها المختلفة كما كانت قبل الحرب، طفلاً يحبو متلمّسًا طريقه... بل أصبحت مكتملة النموّ، شديدة البأس، تعتمد على نفسها ويعتمد عليها الآخرون... وهذا ما سيؤدّي في ما بعد إلى التفاعل المستمرّ بينها وبين المعلوماتيّة"[2].

---

١ ـ قبيسي د. بشرى ومخّول موسى، الحروب والأزمات الإقليميّة في القرن العشرين، دار بيسان للنشر والتوزيع (بيروت،١٩٩٧) ص٩ ـ ١٩.

٢ ـ كان دايفيد، حرب الاستخبارات، ترجمة عبد اللطيف أفيوني، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ط٢ (بيروت،١٩٨٢) ص٥١ ـ ٥٢.

الاستخبارات الصهيونيَة في الحرب العالميَة الأولى

لعبت الاستخبارات دورًا أساسيًا في تأثيرها على الحرب العالميّة الأولى، خاصّة في منطقة الشرق. وكان للاستخبارات البريطانيّة دورها الفعّال في هذا الشوط، وقد تركت بصماتها الواضحة على مجمل التطوّرات اللاحقة في معظم مناطق العالم، ومن بينها المنطقة العربيّة. وكان اهتمام إنكلترا بمنطقة الشرق الأدنى قد سبق حقبة الحرب العالميّة الأولى بكثير، إلاّ أنّه اتّخذ طابعًا أساسيًا بعد احتلالها لمصر عام ١٨٨٢. فكان من الطبيعيّ أن تكون طلائع بعثاتها إلى هذه المنطقة، من رجال الاستخبارات. وقد نجحت بريطانيا في مهمّتها هذه، في اعتمادها على عائلة "أرونسون" اليهوديّة، حيث كان "جاك أرونسون" وكيلاً للبارون الصهيوني "إدموند دي روتشيلد" ومتمتّعًا بثقته.

شبكة آل أرونسون

جاء أرونسون إلى "زمارين" في فلسطين كوكيل لروتشيلد، حاملاً معه الأموال الوفيرة، وكان يُنظر إليه في مقدّمة مؤسّسي "الوطن القومي اليهودي". كان ذلك في عام ١٨٨٩.

كان أبناء جاك أرونسون من الدعاة الكبار للصهيونيّة، ومن الذين حقّقوا نجاحًا واسعًا في فلسطين قبل نشوب الحرب العالميّة الأولى وأثناءها. إلاّ أنّ "هارون

أرنسون" وأختـه "سـارة"، تميّزا بنشـاطهما السرّي لمـدّة طويلـة، بـالرغم مـن العـدد الكبير لأفراد الشبكة التجسّسيّة التـي أنشـأها لصـالح بريطانيـا والصهيونيّـة معًـا، ذلك أنّ فلسـطين كـانت محـور الاهتمـام الاسـتعماري الصهيونـي منـذ زمـن طويـل، إلاّ أنّ مؤتمر بال حدّد بوضوح أهمّيتها في المخطّط القاضي بإعطائها "وطنًا قوميًا" لليهود. من هنا كانت ضـرورة تـأمين الكـوادر الأساسيّة القـادرة علـى تحقيـق "الوعـد التاريخيّ".

كان هارون من كبار علماء النباتات ليس في فلسطين وحدها، بل في سـائر أنحـاء العالم، وله في ذلك عدّة مؤلّفات تُرجمت إلى اللغات الأجنبيّة وكانت تدرّس في المعاهد الزراعيّة في كثير من أنحاء العالم. وقد جاب هارون جميع أنحاء البلاد العربيّة، وهـو الذي اكتشف "القمح البرّي" في أعالي جبل الشيخ، وسُجّل اسمه في هذا الاكتشـاف فـي الأنسيكلوبيديا البريطانيّة، كما سجّل اسمه على أنّه مكتشف اللوز البرّي في أعالي جبل "قاسيون" بسوريا.

إستغلّ هـارون اختصاصـه لخدمـة الجاسوسيّة البريطانيّـة والصهيونيّـة. فقد أنشأ مختبرًا زراعيًا في قرية "عتليت" بفلسطين كان يُعدّ أعظم مختبر أنشئ فـي ذلك العهد في السـلطنة العثمانيّـة. وقـد اتّخذ هذا المختبر قـاعدة لإدارة شـعبة الاسـتخبارات فـي فلسطين من قبل سارة شقيقة هارون، الذي مع انصرافه إلى الشؤون الزراعيّـة ودرس مختلف أنواع النباتات، كان يُعتبر من أكبر الجواسيس البريطانيّين الصهاينة، تمامًا كمـا كما سيكون حال "لورنس العرب" في ما بعد.

لمّا نشبت الحرب العالميّة الأولى، كـان هـارون قد أدّى خدمـات كبرى لبريطانيـا والصهيونيّة معًا، وحقّق نجاحات واسعة في خلال الحرب، كان لها تأثيرها الكبير على مجرياتها. وفي الوقت الذي قرّر فيه الذهاب إلى مؤتمر الصلح في فيرساي بعد انتهـاء

الحرب العالميّة الأولى للدفاع عن القضيّة الصهيونيّة، قُتل على أثر سقوط الطائرة التي كان يستقلّها.

أمّا "ألكسي أرونسون" شقيق هارون وسارة، والذي كان يعرف اختصارًا باسم "ألِك"، فقد كان طبيبًا وداعية صهيونيًا. وكان يتظاهر بأنّه معلّم مدرسة، فيطوف على القرى لإلقاء المحاضرات الأسبوعيّة على الشبيبة اليهوديّة، في الوقت الذي كان ينفّذ فيه مهمّته الأساسيّة في العمل لخدمة المخابرات البريطانيّة والصهيونيّة[1].

إلاّ أنّ سارة أرونسون قد اشتهرت أكثر من أخويها في هذا المجال، إذ كانت تحسن اللغات العبريّة والعربيّة والفرنسيّة والألمانيّة والإيطاليّة والروسيّة إضافة إلى الإنكليزيّة طبعًا. وكانت في الوقت نفسه مولعة بالعلوم الزراعيّة والنباتيّة وشريكة شقيقها هارون في المختبر الزراعيّ.

كُلّفت سارة من قبل الاستخبارات البريطانيّة بالحصول على معلومات جديدة عن البادية السوريّة قبَيل الحرب العالميّة الأولى، وكرّر هذا التكليف البارون دي روتشيلد الذي أعلمها أنّ مصلحة الصهيونيّة توجب ذلك، فوافقت على القيام بالمهمّة، وراحت تبحث عن شخص قويّ يمكنها أن تعتمد على مكانته في سبيل الدفاع عنها، فوجدت أخيرًا ضالّتها في أحد شبّان بيروت الأثرياء الذي يحسن عدّة لغات ويهوى الآثار. وعن طريقه، تجوّلت في البادية السوريّة خطوة خطوة، ودرستها من مختلف النواحي النباتيّة والسياسيّة والعسكريّة... رغم تعرّضها مع الشاب البيروتيّ لمخاطر كثيرة أثناء تنقّلهما في البادية.

---

١ ـ عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت،١٩٧٦) ص٦.

درّبت سارة الحمام الزاجل على التنقّل بين قاعدتها في "عتليت"، والمناطق المجاورة. وشكّلت شبكة تجسّس جعلتها ذات فروع وتسلسل بحيث لم يعرف بأمرها سوى ثلاثة أشخاص هم: الدكتور "كوهين خانكن"، و"أبراهام إزرائيل"، و"صموئيل سام". وعندما جاء جمال باشا السفّاح إلى فلسطين في أواخر كانون الأول ـ ديسمبر ١٩١٤، تقدّمت إليه سارة مع الوفد اليهوديّ الذي جاء إلى القدس ليستقبل السفّاح، وتكلّمت مؤكّدة إخلاصها للعثمانيّين.

لم تكن غاية سارة الحقيقيّة من مجيئها مع الوفد تحيّة القائد التركيّ، بل التعرّف إليه مواجهة، ومعرفة أسرار الاستعدادات التي كان يقوم بها لتجهيز الحملة على مصر عن طريق السويس، وقد نجحت في مهمّتها هذه خير نجاح، بعد أن قدّمت للإنكليز معلومات قيّمة في هذا الصدد أدّت إلى إفشال حملة السويس العثمانيّة. ثمّ جاءت إلى بيروت سنة ١٩١٥، وكان أوّل ضحاياها شابّ بيروتيّ يدعى "يوسف عيسى عمران"، الذي كان يعمل في خدمة أحد أثرياء بيروت الذي كانت له علاقة مع سارة والإنكليز، وقد أُعدم يوسف عُمران في عاليه في ١٠ آذار ـ مارس ١٩١٥ باعتباره جاسوسًا لم يعرف إسم السيّدة الأجنبيّة التي تتّصل بسيّده.

كانت سارة أرونسون على علاقة أيضًا بعميل بريطانيّ ذائع الصيت، هو "توماس إدوارد لورانس" (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥) المعروف بـ"لورانس العرب"، الذي كان مغامرًا وجنديًّا وباحثًا بريطانيًّا، تعلّم في أكسفورد، وانضمّ إلى بعثة بريطانيّة للتنقيب عن الآثار في بلاد ما بين النهرين سنة ١٩١١، وبقي في الأقطار العربيّة يتعلّمّ العربيّة المحكيّة حتّى عام ١٩١٤. وعند إعلان الحرب العالميّة الأولى، التحق لورانس بقسم المخابرات في الجيش البريطانيّ بمصر. وانضمّ سنة ١٩١٦ إلى القوّات العربيّة المحاربة بقيادة فيصل بن الحسين وساعد في إيقاد جذوة الثورة ضدّ الحكم التركيّ.

عمل في قطع سكّة حديد المدينة المنوّرة ـ دمشق. ثمّ قاد الجنود العرب في احتلال ميناء العقبة. دخل دمشق بجنوده العرب سنة ١٩١٨ قبل أن يحتلّها القائد اللنبي، ولكن لم يُوفّق إلى تحقيق أماني العرب في مؤتمر فرساي. انضمّ إلى القوّات الجويّة البريطانيّة باسم مستعار هو "روس"، وفي الوقت عينه اتّخذ "ت. أ. شو" إسمًا شرعيًا له، وأطلق عليه أيضًا إسم "أمير مكّة" وإسم "ملك العرب غير المتوّج" نظرًا لنشاطاته وأهميّته ودقّة معلوماته التي نقلها إلى الاستخبارات البريطانيّة. وجذب إليه انتباه الرأي العام حين نشر مذكّراته بعنوان "ثورة في الصحراء" عام ١٩٢٧. وألّف كتابًا كاملاً بعنوان "أعمدة الحكمة السبعة" نشر عام ١٩٢٦، وكتاب "دار سكّ النقود"، وهو وصف لحياته في القوّات الجويّة البريطانيّة، كما ترجم "الأوديسّا" إلى الإنكليزية. مات بحادث اصطدام سيّارة بدرّاجته البخاريّة. اختلف بعض مؤلّفي التراجم في تقييم شخصيّته[1].

حمّل لورانس سارة أرونسون كتابًا من الشريف حسين إلى ولده فيصل في دمشق ينبئه فيه بقرب إعلان الثورة العربيّة. ولو وقع هذا الكتاب في يد جمال باشا لأدّى إلى اعتقال فيصل وإعدامه، كذلك الأمر بالنسبة لسارة. وكان لورانس قد سلّم الكتاب إلى سارة في عتليت لتوصله إلى فيصل وتعود بالجواب، ثمّ تبعها في ٦ آذار ـ مارس إلى دمشق وعاد إلى الحجاز. إلاّ أنّ جمال باشا بعد أن أدرك أنّ جميع أوامره وحركات قوّاته تصل مباشرة إلى أعدائه الذين كانوا ينزلون بها أشدّ الضربات، أمر بالمراقبة الدقيقة وبمكافحة أعمال الجواسيس حتّى انتهى الأمر بالوصول إلى سارة أرونسون حيث اعتُقلت واعترفت بتطوّرتها في أعمال التجسّس لصالح الاستخبارات البريطانيّة،

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، دار الجيل والجمعيّة المصريّة لنشر المعرفة والثقافة العالميّة، ط٢ (بيروت،٢٠٠١) ٤: ٢١٠١ ـ ٢١٠٢.

وسرعان ما انتحرت بإطلاق النار على نفسها من مسدّس كانت تضعه في رزمة من القطن، فماتت بعد يومين[1].

عمدت سارة إلى انتقاء أعضاء شبكتها بدقّة، وكان معظمهم من أصحاب الاختصاصات. وكان من جملة أعضاء تلك الشبكة أحد كبار زعماء اليهود البولونيّين "ليتشانسكي"، وهو من العلماء المعروفين، إذ كان يتقن لغات عدّة، ويعرف العربيّة والبدويّة منها على اختلاف لهجاتها، وقد كان جاسوسًا خطيرًا أتعب الأتراك لزمن من جرّاء تجسّسه وحصوله على معلومات هامّة أنزلت بهم خسائر فادحة، واستطاع الإفلات من قبضتهم مرارًا بفضل تنكّره، إلاّ أنّهم اعتقلوه في النهاية وأعدموه في ساحة المرجة بدمشق. وقد أوصى في رسائله التي تركها إلى زوجته وصديقه بأن يتزوّجا، كما أوصى ولده أن يسير على دربه في خدمة الصهيونيّة[2].

كان إلى جانب ليتشانسكيفي في شبكة سارة أرونسون كلّ من "نهمان بلكند" و"جوزيف طوبين"، وكان يطلق إسم عصابة الثلاثة على هذين بالإضافة إلى ليتشانسكيفي. وقد ساهم كلّ منهم في تشجيع الجنود على الفرار من الجنديّة وعلى إخفاء سلاحهم في المستوطنات اليهوديّة. وكانوا يجيدون عمليّات التنكّر والاختفاء إذ كانوا يتنقّلون فيه متستّرين بثياب البدو، دون أن يترك أحد رفيقه. ولهذا فعندما اعتُقلوا وحُكم عليهم بالإعدام في الديوان العرفي في عاليه، ترك كلّ منهم وصيّة إلى زوجته

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) عن: ملكي علي، الجاسوسيّة الصهيونيّة في البلاد العربيّة، منشورات صوت الشوف (لا.ت.) ص٩ ـ ١٠.

٢ ـ عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، ص٧؛ ملكي علي، الجاسوسيّة الصهيونيّة في البلاد العربيّة، ص٨٦، ٨٨ ـ ٨٩؛ زهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، ص٥١ ـ ٥٢.

وأولاده يحثّهم فيها على متابعة السير في خدمة الصهيونيّة. وقد جاء في وصيّة بلكند: "... لديّ ١,٥٠٠ ليرة إنكليزيّة هي كلّ ثروتي أقفها لأوّل رجل يبشّر عائلتي بتحقيق الوطن القومي الصهيونيّ في فلسطين... أمّا زوجتي وأولادي فلا أترك لهم شيئًا إذ عليهم أن يعملوا بكلّ قواهم لتحقيق الغاية التي ضحّيت بنفسي لأجلها، وأن يعتبروني رمزًا للعمل في سبيل الصهيونيّة، وعليهم أن يسيروا على هذه الخطّة"[1].

أمّا جوزيف طوبين فقال في وصيّته: "أنا روسيّ الأصل، هاجرت من مسقط رأسي وتركت كلّ حياة ورفاه وسعادة ومستقبل حسن ينتظرني هناك في سبيل تحقيق فكرة الوطن القوميّ اليهوديّ، وفي سبيل هذه الغاية اشتغلت مع الإنكليز الذين وعدونا بتحقيق هذا الوطن، ولست نادمًا أبدًا على ما بدر منّي في هذا الصدد، وفي إمكانكم أن تفعلوا بي ما تشاؤون. أمّا وصيّتي فهذه هي، وقد كتبتها لزوجتي وأولادي الذين أتركهم للحركة الصهيونيّة التي لها أن تفعل بهم وتقرّر مستقبلهم ومصيرهم كما تشاء"[2].

---

١ ـ عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، ص٦؛ ملكي علي، الجاسوسيّة الصهيونيّة في البلاد العربيّة، ص٦٤، ٨٦، ٨٩ ـ ٩٠؛ زهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، ص٥٢.

٢ ـ ملكي علي، الجاسوسيّة الصهيونيّة في البلاد العربيّة، ص٨٦، ٩٠.

شبَكة ألتر ليفي

كان هناك شبكات متعدّدة أخرى للتجسّس أنشأها البريطانيّون في فلسطين قُبيل الحرب العالميّة الأولى، وكان اعتماد البريطانيّين في ذلك بشكل أساسيّ على اليهود الصهاينة. وكان من بين تلك الشبكات واحدة قويّة برئاسة "آلتر صموئيل ليفي"، وهو يهوديّ أميركيّ، هاجر إلى فلسطين قبل نشوب الحرب العالميّة الأولى. كان ليفي ذا تعليم عالٍ، ويحسن لغات عدّة بما فيها العربيّة والعبريّة، وكان له مكانة مرموقة بين رجال الأعمال إذ كان صاحب وكالات عدّة شركات أوروبيّة وأميركيّة، انتسب إلى دائرة المخابرات البريطانيّة عام ١٩١١، وكُلّف بالإقامة في القدس حتّى بداية الحرب العالميّة الأولى. وعندما أُعلنت الحرب وجاء جمال باشا إلى القدس في بداية سنة ١٩١٥، للتحضير لحملة السويس، كان آلتر ليفي في مقدّمة الذين رحّبوا به باسم الجالية الأجنبيّة في البلاد، تمامًا كما فعلت سارة أرونسون باسم الوفد اليهوديّ. وفي تلك المناسبة، أعلن آلتر ليفي عن تبرّعه بكميّات وفيرة من الأدوية التي يحتاج إليها الجيش الزاحف على القناة، ما جعله ينال ثقة جمال باشا الذي منحه وسام الحرب العثمانيّ وكتاب شكر على "إخلاصه للوطن". ونتيجة لهذه الثقة حضر ليفي حفلة عرض القوّات المسافرة إلى قناة السويس واطّلع على أمورها. ثمّ أوفده جمال باشا إلى مصر، بعد فشل حملة السويس، لإيقاف الحملة الصحافيّة على القائد العثمانيّ، فنجح في مهمّته نجاحًا كبيرًا، كما حمل إليه معلومات أملتها عليه الاستخبارات الإنكليزيّة، وأخبره بأنّه تدبّر بمصر جواسيس يوافونه بالمعلومات الحقيقيّة عن استعدادات الإنكليز وتحرّكاتهم في جزيرة العرب. وقد تمكّن آلتر ليفي بمعلوماته من أن يخدع جمال باشا

لمدّة طويلة، وزوّده في كثير من الأحيان بتقارير خادعة كان جميعها من عمل الإنكليز ولصالحهم، كما كانت من أهمّ الأسباب في تقويض السلطنة والقضاء على نفوذها في فلسطين وفي كلّ بلاد العرب.

إعتبر باحثون أنّ شبكة آلتر ليفي كانت أقوى شبكات الجاسوسيّة الإنكليزيّة والصهيونيّة في فلسطين، نظرًا للثقة التي كان يتمتّع بها رئيسها لدى جمال باشا. وعندما كان جمال باشا يستعرض القوّات التركيّة في حرج بيروت، في عرض كبير بهدف إبلاغ الحلفاء أنّ مقاومتهم ستكون رادعة في حال محاولتهم احتلال السواحل اللبنانيّة والسوريّة، كان آلتر ليفي بين الحضور، يعمد إلى التقاط الصور الفوتوغرافيّة للقوّات العسكريّة بصورة سريّة، من خلال آلة تصوير صغيرة رُكّزت عدستها في عروة سترته، وكثيرًا ما تمكّن بواسطتها من التقاط صور للأسرار العسكريّة العثمانيّة في كثير من الظروف. وقد لفتت هذه الآلة الفوتوغرافيّة نظر الملازم "صبحي نوري بك"، وهو الذي سيصبح أحد نوّاب "المجلس الوطنيّ الكبير"، فاقترب من ليفي، ولمّا تبيّن الآلة الفوتوغرافيّة في عروته، وقف وراء "فؤاد باشا" رئيس أركان حرب الجيش الرابع، وأسرّ إليه الأمر، فأفهمه رئيس الأركان أنّ الرجل من أصدقاء جمال باشا... وبعد عرض الأمر على جمال باشا، لم يقتنع بأن ليفي هو جاسوس يقوم بعمل خطير...

إستمرّ آلتر ليفي زمنًا طويلاً في خداع جمال باشا، وهو الذي حرّضه ضدّ الدكتور "عبد الرحمن الشهبندر" و"عبد الكريم الخليل" بناء على تعليمات الإنكليز.

كان ألتر ليفي يعتمد اعتمادًا كبيرًا على جاسوسة صهيونيّة، كانت من أفراد شبكته، تدعى "ليديا مردوخ سيمونفيتش"، وقد حدّد لها مهمّة الاتّصال بأحد ضبّاط أركان حرب الأتراك اليوزباشي "جواد أدهم بك" في منزل "إستير حاييم" في الحيّ المسكوبي في

القدس، حيث كان ملتقى الضبّاط الألمان والنمساويّين وبعض ضبّاط الأتراك. وبعد أن اتّضح للقيادة التركيّة تسرّب الأسرار العسكريّة، بدأت المراقبة الدقيقة لكشف شبكة التجسّس، فاعتقلت ليديا مع الضبّاط "جواد أدهم بك" أثناء شجارها معه حول تسليمها معلومات خاطئة كانت سببًا في تكبيد الإنكليز خسائر كبيرة. ولم ينتظر الضابط الذي اعتُقل بالجرم المشهود محاكمته، بل تناول مسدّسه وأفرغ منه رصاصة كانت كافية للقضاء عليه. إلاّ أنّ ليديا قد اعترفت، بعد إنكارها، بأنّها آلة في يد آلتر ليفي الذي دفعها للاتّصال بالضابط التركيّ، لكنّها لا تعرف مكان الجاسوس الخطير... وأوضحت بأنّها خدمت آلتر ليفي كجاسوسة إنكليزيّة، بل تحقيقًا لخدمة الوطن القوميّ اليهوديّ... ثمّ أُحيلت إلى الديوان العرفي لمحاكمتها[1].

لمّا تبيّن خطر ليفي على البلاد العثمانيّة، طورد لمدّة طويلة، لكنّه تمكّن من الهرب مرارًا، وقد استمرّت مطاردته إلى أن تبيّن لرئيس بوليس القدس "عارف بك ابراهيم" أنّه يسكن في دار المناضل المنفيّ "خليل السكاكيني"، مقابل دار الحكومة مباشرة، فاهتدى إليه بعد حيلة أُعدّت للإيقاع به. وعند لقائه أبلغه بأنّه موقوف، فحاول ليفي رشوته بمبلغ كبير من المال، ولمّا لم يقبل، أكّد له ليفي على استحالة إعدامه "حتّى ولو صار على المشنقة". فاقتيد لمقرّ القيادة في الوقت الذي بدأ فيه الهجوم البريطانيّ على القدس، عندها ذهب به رئيس البوليس إلى عمّان ومنها إلى دمشق، وسلّمه إلى الديوان العرفيّ وتلقّى إيصالاً باستلامه، فقفل راجعًا إلى فلسطين، لكنّ ليفي تمكّن من الإفلات إذ أُطلق سراحه دون أن يرسَل للمحاكمة. وبعد أربعة أشهر، التقى عارف بك إبراهيم بالجاسوس آلتر ليفي وهو يدخّن النارجيلة في أحد مقاهي دمشق، فأخبره بأنّ محقّق

---

١ - ملكي علي، الجاسوسيّة الصهيونيّة في البلاد العربيّة، ص١٣٧ - ١٣٨.

الديوان العرفي أطلق سراحه مقابل أربعمائة ليرة ذهبيّة، كما قام المحقّق بإتلاف الوثائق وترك آلتر ليفي حرًّا[1].

شبكة أبرَاهَام وارتنبُرغ

من شبكات الجاسوسيّة ذات الطابع الصهيونيّ الذي اعتمدت الاستخبارات البريطانيّة عليها في حقبة الحرب العالميّة الأولى، شبكة كانت برئاسة رجل صهيونيّ أعرج يدعى "أبراهام وارتنبرغ"، وكانت تلك الشبكة التي تأسّست في حيفا تضمّ إلى وارتنبرغ كلاً من: "بخور جودا"، "عزرا كوهين"، و"مردخاي عزرا ليفي"، و"إيزاك جاك رابينوفيتش". وكان بخور ليفي، من أعضاء تلك الشبكة، قد طاف على مخافر الساحل العثمانيّ من حيفا إلى بيروت متنكّرًا بلباس ضابط من ضبّاط جمال باشا، ووعد عناصر المخافر بتحسين أوضاعهم... وقد نقلت هذه الشبكة مقرّها إلى بيروت بعدما اكتشفت السلطات التركيّة أمر شبكة سارة أرونسون.

بعد انتقال الشبكة إلى بيروت، تمكّن رئيسها أبراهام وارتنبرغ من سرقة وثائق القيادة التركيّة الخاصّة بخطّة الدفاع عن بيروت، عن طريق الضابط "عثمان بك"، أحد ضبّاط أركان الحرب العثمانيّين، الذي كان يتردّد على منزل "روز كونون" حيث طلب منه وارتنبرغ الوثائق اللازمة مقابل مبلغ ثلاثة آلاف ليرة تركيّة. وقد أدّى اعتراف الجندي الذي كان في خدمة عثمان بك إلى اعتقال الضابط العثمانيّ صديق روز الذي سلّمها ملفّ الوثائق دون أن يعرف محتوياته. إثر ذلك اعتُقلت روز وأحد عشر شخصًا

---

١ ـ ملكي علي، الجاسوسيّة الصهيونيّة في البلاد العربيّة، ص١٢١ ـ ١٥٩.

كانوا في منزلها بينهم عضوا الشبكة بخور جودا وعزرا كوهين. ثمّ انتحر عثمان بك، واعتُقل مردخاي عزرا ليفي وهو بثياب البدو وصودرت منه صور كثير من الوثائق المهمّة... وبعد أيّام أُعدم جودا وكوهين وليفي، ولم يبق من أفراد الشبكة إلاّ أبراهام وارتنبرغ وإيزاك رابينوفيتش. وفي عام ١٩١٧، عندما جاء أنور باشا إلى بيروت، ونزل في فندق "كسمان" الذي أصبح يُعرف في ما بعد باسم "أوتيل رويال"، استطاع رابينوفيتش الوصول إلى غرفة القائد التركيّ، رغم الحراسة الشديدة حوله، وتناول ملفًا من الأوراق كان يحوي تقريرًا تلقّاه أنور باشا من قائد "جيش الصاعقة" في فلسطين، يتضمّن وصفًا للحالة من الوجهة الإداريّة والعسكريّة هناك. إلاّ أنّه فوجئ بدخول أنور باشا الذي تمكّن من اعتقاله وسلّمه إلى مدير الشرطة للتحقيق معه. عندها تبيّن أنّ هذا الجاسوس هو إيزاك رابينوفيتش الذي أحيل إلى الديوان العرفي حيث حُكم عليه بالإعدام فورًا. فلم يبقَ من هذه الشبكة سوى رئيسها وارتنبرغ، الذي تمكّن شابّان بيروتيّان من القبض عليه، وهما "خضر المغربي" و"معروف الداعوق". لكنّ اعتقاله لم يدم طويلاً حيث أُطلق سراحه مقابل مبلغ من المال قبضه الضابط التركيّ "إسماعيل بك"[1].

١ ـ ملكي علي، الجاسوسيّة الصهيونيّة في البلاد العربيّة، ص٩٨ ـ ١١٧.

الجاسوسيَّة بعدَ الحَرب العالميَّة الأولى

في بداية القرن العشرين، حدثت طفرة هائلة في فنّ التجسّس، قلبت كلّ النظم القديمة رأسًا على عقب. فبظهور الهاتف والتلغراف ووسائل المواصلات السريعة، تطوّرت أجهزة الاستخبارات بما يتناسب وتكنولوجيا التطوّر التي أذهلت الأدمغة للسرعة الفائقة في نقل الصور والأخبار والمعلومات. ومع انتهاء الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) نشطت أجهزة الاستخبارات بعدما تزوّدت بالخبرة والحنكة، وشرعت في تنظيم أقسامها الداخليّة للوصول إلى أعلى مرتبة من الكفاءة والإجادة. ورصدت لذلك ميزانيّات ضخمة للإنفاق على جيوش من الجواسيس المدرّبين، الذين انتشروا في كلّ بقاع الأرض، ولشراء ضعاف النفوس والضمائر. كلّ هؤلاء يحرّكهم طابور طويل من الخبراء والعلماء، تفنّنوا في ابتكار وإنتاج أغرب الوسائل للتغلغل والتنصّت وتلقّط الاخبار ومغافلة الأجهزة المضادّة. وفي تطوّر لم يسبق له مثيل ظهرت آلات التصوير الدقيقة التي بحجم الخاتم، وكذلك أجهزة اللاسلكي ذات المدى البعيد والفاعليّة العالية، وأجهزة التنصّت المعقّدة، وأدوات التمويه والتخفّي السريّة التي استحدثت أوّلاً بأوّل لتخدم أجهزة الاستخبارات وتعمل على تفوّقها وسلامة عملائها.

تغيّرت أيضًا نظريّات التجسّس التي اهتمّت قديمًا بالشؤون العسكريّة في المقام الأوّل إذ اتّسعت دائرة التحليل الاستراتيجي والتسلّح، وشملت الأمور الاقتصاديّة والاجتماعيّة والفنيّة والعلميّة والزراعيّة... فكلّها تشكّل قاعدة هامّة وتصبّ في النهاية كمًّا هائلاً من المعلومات الحيويّة، تمثّل منظومة معلوماتيّة متكاملة[1].

---

١ ـ الفالوجي، جواسيس الموساد العرب، ص١٥ ـ ١٦.

الرَّصَاصَاتُ التي أشعلَت الحربَ العالميَّة الثَّانية

صباح الأوّل من أيلول ـ سبتمبر ١٩٣٩، أشيع في ألمانيـا والعـالم الغربـيّ أنّ قـوّة بولنديّة نظاميّة قد هاجمت محطّة الإذاعة الألمانيّة في "غليوتز" قرب الحدود البولنديّـة، مخترقة الأراضي الألمانيّة. وقد اعتبر الحكم النازيّ في ألمانيـا أنّ بولنـدة قد وجّهت "إهانة لا تُغتفر" إلـى ألمانيـا، وأنّ بولنـدة هـي التـي بـدأت العـدوان، وعليهـا أن تتحمّـل العواقب.

في الواقع، لم تكن الرصاصات التي أطلقها رشّاش الدبّابـة الأولـى التـي اقتحمت الحدود البولنديّة هي الرصاصات الأولى التي أطلقت في الحـرب العالميّـة الثانيـة، بـل سبقتها قبل ليلة واحدة رصاصات أخرى أطلقها رجـل مخـابرات... وفيمـا كـانت فـرق "البانزرز" وطائرات "لوفتواف" تندفع على بولندة في ذلك الصباح الباكر، كـان الرجـل الذي أطلق الرصاصات الأولى يدلف إلى منزله ليغطّ في نوم عميق يستعيض بـه عـن الجهد الذي بذله في مهمّته الليليّة الناجحة، دون أن يدور في خلده أنّ ما قام به سـيكون له نتائج جسيمة: الحـرب العالميّـة الثانيـة. ودون أن يـدرك أحد أنّـه هـو الـذي أطلـق الرصاصات الأولى في هذه الحرب.

كان هذا الرجل ضابط المخابرات الألماني الملازم "ألفرد هلمنت نوجوكـس"، أحد الأعوان المقرّبين من "رينهارت هايدريش"، رئيس جهـاز الأمـن السـرّي فـي فـرق الـ SS، أي الفرق النازيّة الخاصّة، وقد بدأت مهمّته فـي ٥ آب ـ أغسطس ١٩٣٩، حين

استُدعي إلى المقرّ الرئيسيّ للمخابرات الألمانيّة في برلين، شارع "برنز ألبرت ستراش"، حيث وجد رئيسه بانتظاره منتصبًا بقامته المديدة وشعره الأشقر، مرتديًا بذّته الرسميّة الخاصّة بفرق SS، وقد بادره بالقول: "أنت الرجل الذي يلزمنا في هذه المهمّة"... وأخذ يشرح له المهمّة التي سمّيت "الأطعمة المحفوظة" بالشيفرة. ولم ينس أن يؤكّد له أن هتلر نفسه قد قرّر هذه العمليّة.

كانت العمليّة تقضي بأن يقوم نوجوكس بهجوم مفتعل على محطّة إذاعة غليوتز الألمانيّة من الحدود البولنديّة بصورة يكفل معها حصول القيادة الألمانيّة على البرهان الكافي على أنّ هذا الهجوم حدث بفعل من القوّات البولنديّة... واختتم هايدريش حديثه إلى نوجوكس بالتعليمات التالية:

ستذهب لمقابلة "هايزيخ مولر" رئيس المخابرات الألمانيّة "غستابو"، الذي سيسلّمك سجينًا وثيابًا عسكريّة بولنديّة، وسيكون هذا السجين ضحيّة "الاعتداء" الذي ستتركه القوّة المهاجمة صريعًا خلفها لدى انسحابها، وأضاف هايدريش قائلاً بلهجة صارمة: "من البديهيّ أنّ احتمال الاخفاق في هذه المهمّة يُعتبر خارج نطاق البحث بصورة مطلقة"... ولم يندهش نوجوكس لطبيعة المهمّة، فقد نفّذ هو شخصيًّا ما يفوقها غرابة حين أُرسل إلى "سلوفاكيا"، وأخذ يلقي المتفجّرات ويفتعل الاعتداءات وذلك قبَيل غزو ألمانيا لتشيكوسلوفاكيا... بل بالعكس، فقد وجد أنّ مهمّته هذه أسهل من ذهابه إلى سلوفاكيا وتعريض نفسه للخطر هناك. كلّ ما هو مطلوب منه مهاجمة محطّة إذاعة ألمانيّة وضمن الأراضي الألمانيّة واحتلالها لمدّة وجيزة، ومن ثمّ إذاعة بيان "يهين فيه ألمانيا، ويتوعّدها"، وستكون جميع الإذاعات الألمانيّة مفتوحة لتلقّي هذا البيان وبثّه في ألمانيا لتهييج الرأي العامّ الألمانيّ. ولكنّ نوجوكس دُهش في اليوم التالي للعمليّة حين علم باندلاع الحرب...

أمّا هتلر، فقد حدّد أوّل شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٣٩ موعدًا للهجوم على بولندة، وأسرّ بذلك إلى الجنرال "كاتيل"، وكلّف الأميرال "كاناريس" رئيس إدارة مخابرات الجيش الألمانيّ بالاستعلام عن احتمال دخول فرنسا وبريطانيا الحرب إلى جانب بولندة، وعندما أبلغه الأميرال كاناريس أنّ لندن مصمّمة على حماية بولندة، لم يصدّق ذلك، وظلّ معتزمًا الإقدام على مغامرته، بيد أنّه كان ينقصه اللمسة الأخيرة والأساسيّة في مخطّطه هذا، وهي الحصول على "السبب اللازم" الذي يستحيل فيه عليه الرجوع إلى الوراء... وهكذا قرّ رأيه أخيرًا على عمليّة "الأطعمة المحفوظة"... وصدرت أوامره إلى مساعديه الذين شرعوا في البحث عن الرجل القادر على تنفيذ هذه العمليّة المدروسة بشكل دقيق، فوقع الإختيار على نوجوكس...

كان هتلر مدركًا كلّ الإدراك خطورة ما هو مقدم عليه عندما اتّخذ قراره شخصيًّا بشأن عمليّة "الأطعمة المحفوظة"... فهو يعلم أنّه يختار بذلك الطريق الذي يستحيل فيه عليه الرجوع إلى الوراء، وأنّه بالتالي سيقامر بمصيره ومصير ألمانيا ومصير العالم أجمع... فلم يثنه ذلك عن عزيمته وقرّر المضيّ في "لعبته" حتّى النهاية. لذلك لم تصدّق شعوب العالم أذنيها وهي تستمع طيلة شهر آب ــ أغسطس ١٩٣٩ إلى تصريحات هتلر تنادي بالسلام والوئام ورغبة شعب ألمانيا في تجنّب الخلافات مع جيرانه، طالبًا منهم حسن الجوار والصداقة والعلاقات الوديّة... وكان هتلر في أوج خداعه للعالم عندما رفع غصن الزيتون فجأة، ولم يعلم أحد أنّه كان يعدّ بالخفاء لضربته الكبرى.

عندما قال هايدريش إلى نوجوكس: "إنّ احتمال الإخفاق في هذه المهمّة يُعتبر خارج نطاق البحث بصورة مطلقة"... كان يعني بذلك الإعدام الفوريّ لنوجوكس ورفاقه في حالة الإخفاق، لذلك انصرف نوجوكس إلى دراسة مهمّته دراسة دقيقة

مستعينًا بالخرائط الجويّة لمنطقة الحدود، كما سلّمه الأميرال كاناريس الملابس العسكريّة والأسلحة البولنديّة، وخصّص له صالة فسيحة في أحد المعسكرات لتدريب رجاله الستّة الذين انتُقوا بدقّة لهذه العمليّة.

بعد إتمام الدراسات والتدريب، غادر نوجوكس برلين مع رجاله كمسافرين عاديّين واتّجهوا إلى بلدة غليوتز حيث حلّوا في أحد فنادقها، وسجّلوا أسماءهم على أنّهم مهندسين... ما يبرّر انصرافهم إلى دراسة الأراضي المجاورة للبلدة، ومنها الأراضي المحيطة بمحطّة الإذاعة طيلة عدّة أيّام. ثمّ استدعى نوجوكس إلى مدينة "أوبلن" في الأيّام الأخيرة من شهر آب ـ أغسطس لمقابلة "هايتريك مولر" من كبار ضبّاط المخابرات الذي أعلمه أنّ الخطّة قد توسّعت مجدّدًا وأنّها أصبحت تقضي بتدبير عدد من حوادث الحدود، وأنّه أحضر بالتالي عشرة من السجناء العاديّين المحكوم عليهم بجرائم مختلفة، وسيقوم أحد الأطبّاء التابعين للمخابرات بحقنهم بمادّة مخدّرة، ثمّ تستبدل ثيابهم بثياب عسكريّة بولنديّة، وتوضع في أيديهم أسلحة بولنديّة تمهيدًا لإطلاق النار عليهم في منطقة الحدود، حيث ستترك جثثهم كشواهد على العدوان البولنديّ المزعوم، حين ينهال الصحافيّون على المنطقة الحدوديّة في الأيّام التالية لتغطية هذه الأحداث.

عاد نوجوكس إلى غليوتز ونفّذ القسم الأوّل من مهمّة الحدود، وأطلقت النار على السجناء، على أنّهم جنود بولنديّون، وحضر الصحافيّون، وتوتّرت الأحوال على الحدود حتّى ظهر ٣١ آب ـ أغسطس إذ تسلّم نوجوكس برقيّة جاء فيها: "إتّصل بمولر لأجل الأطعمة المحفوظة". وقد اتّصل بمولر فعلاً، وأعلمه أنّه مستعدّ للتنفيذ، ثمّ توجّه إلى غابة "رايتبور" الملاصقة للحدود حيث ارتدى الألبسة العسكريّة البولنديّة هو ورجاله، وعند الساعة السابعة والنصف مساء اقتحم نوجوكس محطّة الإذاعة التي لم

يكن فيها سوى فنيّين يشرفون على الأجهزة الفنيّة، وأطلق الرصاصات الأولى، فاستسلم الفنيّون فورًا، ثمّ توجّه إلى ميكروفون الإذاعة، وأمر أحد الفنيّين ببدء الإرسال، وما لبث أن ألقى خطبة جامحة هاجم فيها ألمانيا وكال لها الشتائم والتهديدات والإهانات الجارحة، كما نصّ الخطاب الذي أعدّ سابقًا في إدارة المخابرات الألمانيّة النازيّة. إثر ذلك أطلق نوجوكس مع رجاله عدّة طلقات على البناء ثمّ اختفوا... وقد دام هذا الهجوم مع إذاعة الخطاب دقائق معدودة. وأمام درجات المدخل وُضعت جثّة السجين وهو يرتدي الملابس العسكريّة البولنديّة إمعانًا في التضليل.

قُدّر لتلك الرصاصات التي أُطلقت في هذه المهمّة من قبل ضابط المخابرات الألمانيّة نوجوكس أن تكون ابتداء الحرب العالميّة الثانية، التي امتدّت كالنار في الهشيم... حتّى أغرقت العالم كلّه بالدمار والويلات وملايين القتلى وفي بحر من الدماء لم تشهد له الإنسانيّة مثيلاً... واستمرّت هذه الحرب حتّى تضافر الحلفاء ودخلوا ألمانيا منتصرين وانتهى هتلر منتحرًا أو مقتولاً، وطوت الأيّام والسنون ذكريات هذه الحرب المدمّرة ليبقى منها ما خلاصته أنّ المخابرات هي التي أشعلت هذه الحرب[1].

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،لا.ت.) ١:٣٤٦ ـ ٣٤٩.

الجَاسُوسيَّة في سنتَي بدايَة الحرب

كان طموح هتلر النهائي هو تحويل أوروبا الشرقية تقريبًا إلى امبراطورية قائمة على مبادئ عنصرية يستعبد فيها عرق السادة الجرماني الشعوب المختلفة السلافية ويُستبعد منها "السمّ" اليهودي. ولم يشك الفوهرر أبدًا في أن المرحلة الحاسمة من سيطرة هذه الامبراطورية تتضمن حرب غزو ضد الاتحاد السوفياتي. وعند استلامه السلطة عام ١٩٣٣، فإن القليل من الناس أخذوا على محمل الجد رؤية امبراطورية أوروبية كان قد غالى في وصفها ضمن مجموعته التخريفية Mein Kampp، وهو برنامجه السياسي الموضوع منذ حوالي عشر سنوات. وكان هو ذاته يخفي، أواسط ثلاثينات القرن العشرين، مطامحه المتعاظمة عن الرأي العام حول أوروبا الشرقية وجَعَلَ الشعب الألماني يعتقد أنه بالفوز "بالمساواة في الحقوق" فإن الرايخ الثالث سيضمن السلام لأوروبا.

عام ١٩٢٢ كان كل من روسيا الثورية وألمانيا المغلوبة ـ وكان قد تم استبعادهما من النظام الدولي قبل ذلك ـ قد خرج من العزلة: لقد أبرمتا معاهدة رابالو Rapallo وفاجأتا بقية أوروبا بإقامة علاقات دبلوماسية، وبالتخلي عن استحقاقاتهما المالية المتبادلة بتعهدهما بالتعاون. وخلال العقد اللاحق، ورغم المحاولة التعيسة عام ١٩٢٣ لتفجير الثورة في ألمانيا، أقامت روسيا السوفياتية مع ألمانيا ويمر Weimar علاقات دبلوماسية وتجارية محدودة جدًا بالنسبة لعلاقاتها بالقوى الكبرى الأخرى. وهكذا ومنذ نهاية عام ١٩٢٣، وضع استيلاء النازيين على السلطة حدًا لحقبة رابالو. مع أن ستالين

لم يعِ مدى الخطر النازي حتى الغزو الألماني عام ١٩٤١، فإن عداء هتلر الشديد وضوحًا على الأمن الروسي، وتفاقم شعور الخشية لدى السوفياتيين من ظهور الخطر الياباني المفاجئ في الشرق، جعل ينجم عن ذلك تغير مذهل في توجههم الدبلوماسي. لقد قامت السياسة الخارجية السوفياتية رسميًا على البحث عن أمن جماعي ضد التهديد العدواني النازي الفاشستي: لقد تحققت هذه السياسة عام ١٩٣٤ بدخول الاتحاد السوفياتي إلى هيئة الأمم بعدما كان قد قاطعها، وعام ١٩٣٥ بمعاهدات مع فرنسا وتشيكوسلوفاكيا، وهي أول اتفاقات دفاعية مع بلدان رأسمالية.

إن"ماكسيم ليتفينوف"، الداعية الأشد للأمن الجماعي، كان مفوّض العلاقات الخارجية من عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٣٩. وكقائد لجماعة من المهاجرين البلاشفة إلى بريطانيا العظمى قبل الثورة، عاد إلى روسيا متزوجًا من إنكليزية، ولم يكن لدى أي رجل دولة من هذا الرعيل هذا القدر من الذكاء والحذاقة لإقامة علاقات صداقة مع زملائه الغربيين وللانضمام إلى التقدميين الغربيين الذين خاب ظنهم من تردّد حكوماتهم إزاء تهديدات ثم اعتداءات هتلر وموسوليني.

منذ عام ١٩٣٤، بدأ ستالين مع ذلك ينظر سرًا بتكتيك آخر لمواجهة التهديد الألماني: فالإتفاق مع هتلر له الأولوية على تفاهم جماعي ضده. وفي اجتماع للمكتب السياسي Politburo، في تموز ـ يوليو ١٩٣٤، بعد مدّة قصيرة من مصرع "أرنست روهم Röhm" قائد خلايا الانقضاض Sections d'Assaut (SA) ومئة وثمانين ضحية غيره تقريبًا خلال "ليل السكاكين الطويلة"، هتف ستالين على ما يظهر: "هل أنتم على اضطلاع بآخر أخبار ألمانيا، وبالطريقة التي تخلص بها هتلر من روهم؟ الرمز المعبّر، هذا الهتلر! فهو يعلم كيف يعامل معارضيه السياسيين".

أما قرار الزعيم السوفياتي بتصفية كيروف Kirov، منافسه الرئيسي المحتمل، فيشبه المثال الذي أعطاه هتلر. ومنذ ذلك الحين، راح ستالين يفكر بارتباطات القوى" في الغرب، (وهو مفهوم يأخذ بالاعتبار، وعلى خلاف الحساب التقليدي لتوازن القوى، الإدارة السياسية كما القوة العسكرية.)[1] بطريقة ملائمة أكثر فأكثر لهتلر. وهو لم يؤمن بإمكانية تفاهم دائم مع دولة رأسمالية معتمدًا على جانب من العقيدة الماركسية - اللينينية بأن لدى كل الرأسماليين ميل طبيعي للتآمر على الدولة السوفياتية. مع ذلك كان العالم الرأسمالي نفسه منقسمًا، وهذا وضعٌ قدّم فرصة مؤاتية لروسيا...

آخذًا بالاعتبار حقد هتلر على الماركسية، فإن اتفاقًا مع ألمانيا النازية قد يطرح مشاكل أكثر من الاتفاق مع الديمقراطيات البورجوازية. غير أن ستالين كان يأمل، على ما يبدو، أن يمارس هتلر السياسة الواقعية Realpolitik بمهارة كافية للإمساك بالمزايا المتبادلة واقتسام أوروبا الشرقية إلى منطقتي نفوذ، نازية وسوفياتية.

في كانون الثاني - يناير ١٩٣٧، قدم دافيد كاندلاكي Kandelaky رئيس البعثة التجارية في برلين، عروضًا للتفاوض السري من أجل اتفاق سياسي، وذلك بناءً على طلب ستالين ومولوتوف، ودون أن يكون لليتفينوف أيّ علاقة بذلك. وحتى ذلك الحين لم يبدِ هتلر أي اهتمام[2].. وعند عودة كاندلاكي إلى موسكو، يرافقه مندوب المفوضية

---

١ - Erickson J., *The Great Identifical and Strategic Appraisal by the Soviet Union*, in Ernest R. May ed. Knowing one's Enemies(Princeton University Press 1984) p. 379.

٢ - Haslam Jonathan, *Soviet Union and the Struggle for Collective Security*, 1939, Macmillan (Lonons,1983) p. 127

الشعبية لأمن الدولة NKGB[1] في برلين، ليعرض على ستالين هذه المحادثات، واجه بتفاؤل، حسب كريفيتسكي، مشاريع الاتفاق مع ألمانيا. (يمكن الافتراض على كل حال أن المقصود تفاؤل ظاهري لإخفاء فشل مهمته) وقد أسرَّ إيجوف Igov لكريفيتسكي: "أن ألمانيا قوية... لقد أصبحت بفضل هتلر أكبر قوة في العالم. من يشك في ذلك؟ قد نفقد الذوق السليم تمامًا إذ لا نعتبر ذلك! وليس أمام روسيا السوفياتية سوى خط واحد تسير عليه". وأكد أن ستالين كان قد قال له أنه لا بدّ "من إيجاد اتفاق مع هذه القوة العظمى التي هي ألمانيا".

كان ستالين على معرفة بألمانيا النازية أقل بكثير من معرفته بالقوى الكبرى الأخرى. ومع ذلك، وقبل وصول هتلر إلى السلطة، فإن دوائره السرية كانت تشتغل في ألمانيا على صعيد أكبر بكثير من أي مكان آخر في أوروبا. فقد كان الحزب الشيوعي الألماني KPD ـ أكبر حزب شيوعي خارج الاتحاد السوفياتي ـ قد نظم شبكة من الاتصالات العمالية أو "رابكور Rabcors" (مختصر لـ Correspondent Rabochi) ارتفع عددها إلى عدة ألوف، وكان هدفها الرسمي إطلاع الصحافة الشيوعية على شروط العمل في فرنسا وبلاد أوروبا الأخرى. وكانت تقدم كذلك وبشكل سري معلومات تقنية مستخدمة في الجاسوسية الصناعية والعسكرية. وعام ١٩٣٠، تم انتخاب "هانس كيبانبرغر Kippenberger" إلى الرايخستاغ، وكان هذا مسؤولاً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الألماني عن الصلة بين العناصر السرية للحزب ونظام الجاسوسية السوفياتي. وقد تابع عمله الاستخباراتي بعد استيلاء النازيين على

---

١ ـ NKGB: مفوضية الشعب لأمن الدولة (دائرة الأمن السوفياتية عام ١٩٤١ ومن عام ١٩٤٣ حتى ١٩٩٦، وذلك قبل ولادة MGB، أي الوزارة السوفياتية لأمن الدولة.

السلطة بثلاث سنوات، تحميه الحصانة البرلمانية ومركزه ضمن اللجنة العسكرية في الرايخستاغ[1].

كانت برلين القاعدة الرئيسية لعمليات مكتب الكومنترن الغربي (OMS) في الغرب وعاصمة لتنظيمات الظل ولامبراطورية مانزنبرغ الوسيطة. وكانت توجد فيها كذلك دائرة مهمة للجوازات ذات اختصاص عالٍ، جاءت لتساعد المديرية الرابعة والمديرية السياسية الموحدة لأمن الدولة OGPU (وهي دائرة سوفياتية للأمن، ١٩٢٣ ـ ١٩٣٤) وعناصر المكتب الغربي للكومنترن OMS عبر أوروبا، وحتى أبعد من ذلك، كونها مصدرًا للجوازات و"الأساطير" (هويات مزوّرة مرتكزة على تفاصيل شخصية دقيقة وعلى ملفات مزيفة). وسيقدم هانس راينر Reiners، أحد خبراء هذه الدائرة في ما بعد مثل "إيفان ميلر Muller" لكشف الانتباه الخاص المعطى للتفاصيل: "لم يكن باستطاعة ميلر أن يجول العالم بجواز بسيط، يجب أن يكون مسلحًا بكل الملفات الأساسية التي تتيح له تبرير هويته: نبذة عن الولادة، كتيّب الضمان الاجتماعي إلخ. وقد سُمّيت بـ"السلَسلة" مجموعة الأوراق الشخصية هذه. ولوضع "سلسلة ما" كاملة، لا بدّ من أن يكون المرء مؤرخًا وفي الوقت ذاته جغرافيًا، وعلى اضطلاع كامل بعادات الشرطة... وعندما تصبح السلسلة جاهزة، فإن تحفظًا إضافيًا يفرض نفسه: ففي المرة الأولى التي يجتاز فيها ميلر الحدود يجب ألاّ يكون الجواز على هيئته المتوهجة الجديدة. فإذا كان مليئًا بالتأشيرات أو بأختام الجمارك التي تؤكد مراقبته وإعادة مراقبته بنجاح، فإن الشرطة لن تعير اهتمامًا كبيرًا كون الملف المعروض ليس جديدًا. ولذلك كانت دائرة الجوازات تضع دائمًا عددًا من التأشيرات والأختام المزيفة. وكان

---

١ - Dallin D.J., Soviet Espionnage, yale University press (New Haven,1955), pp. 86-88.

من المفروض أن يتم درس خط سير المسافر عن قـرب. ويجب أن تتوافق كل نقـاط "الأسطورة" التي يحفظها عن ظهـر قلـب. وحسب راينر، أصـدرت دائـرة الجـوازات حوالي ٤٥٠ "سلسلة" من الملفات سنويًا بين عامي ١٩٢٧ و١٩٣٢.

إن أهمية الدوائر السرية السوفياتية فـي ألمانيـا والتشـابك بيـن النشـاطات الرسـمية للحـزب الشـيوعي الألمـاني KPD والعنـاصر السـرية للحـزب وفتـور همـة شـبكة الاتصالات العمالية Rabcors، كل ذلك ساهم في إشاعة الفوضى داخل شبكات دائـرة الأمـن السـوفياتية OGPU (الاسـم الرمـزي "كـلارا") وداخـل المديريـة الرابعـة (الاسـم الرمزي "غريت Grete") خلال السنوات الأخيرة من عمر جمهورية وايمـر Weimar. ومن حزيـران – يونيـو ١٩٣١ حتـى كـانون الأول – ديسمبر ١٩٣٢ هنـاك أكثر مـن ثلاثمائة عملية تجسس، وجميعها تقريبًا على علاقة بالاستخبارات السوفياتية – حكمت فيها المحاكم الألمانية. وحتى نيسان - إبريل ١٩٣٢، وهو تاريخ "مرسوم في الدفاع عن الاقتصاد الوطني" رفع إلى خمس سنوات سجن كعقوبة في حالة التجسس لصالح سلطة أجنبية، لم يمضِ أكثرية المحكومين سوى عدة أشهر في السجن. وفي تشرين الثـاني – نوفمبر ١٩٣٢، وعند مداهمة مسكن تستخدمه دائرة الجوازات، استولت الشرطة علـى ٦٠٠ جواز أبيض (مزورة أو حقيقية) و٣٥ جوازًا ملئـت جزئيًـا و٨٠٠ صـورة هويـة و٧٠٠ بيان من الشرطة و٢,٠٠٠ ختم مطاط وملفات أخرى متنوعـة رسـمية تسـتخدم لتحرير "الأساطير".

كان ارتداد جورج سـملمان Semmelmann عـام ١٩٣١ هـو الـذي أدى أكثر مـن غيره إلى إرباك الدوائر السرية السوفياتية: كـان هـذا العنصـر مـن OGPU (المديريـة السياسية الموحدة لأمن الدولة) يعمل منـذ ثمـاني سنوات انطلاقًـا مـن البعثـة التجاريـة السوفياتية في هامبورغ. فقد كتب، بعد ارتداده، لمجلـة فـي فيينـا يقـترح عليهـا فـي مـا

يتعلق بالجاسوسية في ألمانيا والنمسا وبلدان أخرى، سلسلة من المقالات تكشف لها هوية كيبانبرجر Kippenberger وعملاء سوفيات آخرين. غير أنّه قبل كتابة هذه المقالات قتله أندريه بيكلوفيتش Piklovitch، وهو شيوعي حربي في خدمة المديرية السياسية الموحَّدة لأمن الدولة OGPU. وأثناء محاكمته عام ١٩٣٢، اعترف بيكلوفيتش بجريمته مؤكدًا على أنه قام بها لتفادي خيانة وموت العديد من "المقاتلين البروليتاريين". وبعد حملة لصالح بيكلوفيتش نظمها الشيوعيون، لم تتوصل هيئة المحكمة لاتفاق بشأنه، وأخلي سبيله.

وبفضل المستفيدين زيفًا من دائرة الجوازات فإن القسم الأكبر من أكثرية الأعضاء الأشد فعالية من الحزب الشيوعي الألماني KPD ومن الكومنترن نجحت في الهرب إلى الخارج بعد استيلاء النازيين على السلطة عام ١٩٣٣. غير أنّه بالنظر إلى إنشاء دولة بوليسية وإلى خطر الحزب الشيوعي الألماني، والحماس الشعبي الذي أثارته ديكتاتورية هتلر، وعدد المرتدين من بين العناصر الشيوعية السرية... ألغي الأساسي من الشبكة السوفياتية. وقد أرسل ضابط من مديرية الأمن السوفياتية OGPU يدعى غرانفلد Grunenfeld (الاسم الحركي "برينو Bruno") إلى ألمانيا ليحاول تخليص مَن تبقى من منظمات "الكلارا Klara" و "والغريت Grete". ولم تكن علاقاته كافية فاستبدله المركز بضابط آخر من رتبة أعلى، هو جورج رابينوفيتش، وهو طبيب يهودي كان يثير شعور أحد عملائه بكآبته، وكذلك "بالذكاء المرتسم في عينيه الغائرتين الرماديتين". وكان هندامه رائعًا ومن نموذج كلاسيكي ينم عن مظهر رصين ومتماسك"[1]. اختصر رابينوفيتش شبكة المديرية الرابعة إلى ما يقارب ٢٥

١ - Budenz Louis, *This is My Story*, Whittlesey Housse (New york, 1947), pp. 254-255.

عنصرًا، وألغى بالكامل، على ما يبدو، شبكة المديرية السياسية الموحّدة لأمن الدولة. لقد اختفى كل تنظيم شبكة العلاقات العمالية الـ "Rabcors". وتم نقل دائرة الجوازات إلى سارّ Sarre، ثم إلى موسكو وباريس عندما قرر الفرع في هذه العاصمة العودة إلى ألمانيا بعد ذلك بسنة. وقد أعلن أبراهام سلوتسكي Sloutsky، كرئيس لفرع تشيكًا للاستخبارات الأجنبية INO وخلال مؤتمر للحزب الشيوعي الألماني KPD عقد بالقرب من موسكو عام ١٩٣٥، أن كل شبكات التجسس الواسعة في ألمانيا قد تم إلغاؤها. حتى أن "الغريت Grete"، التي أبقى عليها رابينوفيتش، كانت تعمل بصفتها شبكة، غير فعالة، معارضة سرية للنظام النازي أكثر من كونها وكالة جمع للمعلومات. وعام ١٩٣٦، نُقل رابينوفيتش إلى الولايات المتحدة للمساعدة في تغلغل الحركة التروتسكيّة.

مبتدئة مع هتلر، تكاملت تقريبًا تصفية دوائر الاستخبارات السوفياتية في ألمانيا مع ستالين. وقد أبيد الكثير من الألمان الذين عملوا مع الدوائر السرية السوفياتية خلال مرحلة الإرهاب الكبير، مع أكثرية قادة الحزب الشيوعي الألماني الملتجئين إلى موسكو. وكان هانس كيبانبرغر Kippnberger أحد الضحايا الأوائل قد أجبر على الاعتراف عام ١٩٣٦، بتهمة "التجسس لحساب الرايخ شْوِهْر Reichswehr"...

أما التصفية الشبه نهائية في ألمانيا فكانت أشد ضررًا بقدر ما كان هذا البلد على الأرجح القوة الوحيدة الكبرى والتي لا يمكن حل شيفرتها الجيدة الإعداد بالوحدة المختلطة لحل رموز مفوضية الشعب بوزارة الداخلية NKVD[١]، المديرية الرابعة

---

١ - NKVD مفوضية الشعب في وزارة الداخلية (الملحقة بأمن الدولة في الأعوام ١٩٢٢ - ١٩٢٣ وفي الأعوام ١٩٣٤ - ١٩٤٣)، وقبل ولادة MVD.

للفرع الخاص بهذه المفوّضيّة. وعندما ترأس بريا Beria هذه المفوّضيّة عام ١٩٣٨، قرّر حلّ هذه الوحدة المختلطة. أما فرع حل الرموز في هذه المفوضية المنتمي إلى العمليات الخاصة SO فتمركز في فندق سلكت Select القديم شارع دزرجنسكي Dzzerjinski حيث ركّز نشاطه على المراسلات الدبلوماسية. أما أكثرية، إن لم نقل كل الاتصالات العسكرية، فكانت من اختصاص وكالة الاستعلام العسكري السوفياتية GRU. ولم يتم اختراق أي رواية من الكود الخاص بنظام "اللغز Enigma" الذي تستعمله الجيوش الألمانية من قبل إختصاصيي مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD ومن قبل وكالة الاستعلام العسكري السوفياتية قبل غزو حزيران - يونيو عام ١٩٤١؛ ومع بعض الاستثناءات، احتفظت هذه الجيوش على الأرجح بكل سرها حتى نهاية الحرب. ولم تزل الكودات الرئيسية الدبلوماسية الألمانية - المفكرة ذات الاستخدام الوحيد والمنظومة المعروفة لدى أصحاب الألغاز البريطانيين باسم "فلورادورا Floradora" - تمثل حتى الآن المنظومة الأكثر صعوبة من سواها. ولا تقدم دائمًا المعلومات حول أعداد الشيفرة الدبلوماسية والملفات المكتشفة في السفارات الألمانية في طوكيو وفي وارسو سرّ "فلورادورا". وفي أيار ــ مايو ١٩٤٠، أوضح أصحاب الألغاز البريطانيون رواية "اللغز Enigma" التي استخدمها لفتواف Luftwaffe. ومع أنهم قد حصلوا في الوقت ذاته تقريبًا على نموذج كامل عن الكود الأساس الخاص بـ "فلورادورا"، فإنهم لم يقوموا بأي اختراق مهم فعلاً لهذه المنظومة قبل شهر آب ــ أغسطس عام ١٩٤٢...

لقد سعت الاستخبارات السوفياتية للتعويض عن ضعفها في ألمانيا بعمليات استهدفت هذا البلد من الخارج وخاصة من بلجيكا والأراضي المنخفضة وفرنسا وسويسرا. وفي نهاية الثلاثينات، جهّز عدد من أفضل عملاء المديرية الرابعة ما

سيصبح شبكة الحرب الرئيسية الخاصة بالاتحاد السوفياتي من أجل جمع المعلومات عن ألمانيا النازية. وهناك شخصيتان لعبتا الدور الرئيسي في هذا المجال. كان الأول ليوبولد تربّر Trepper، يهودي بولوني، والذي بعد عمله لمصلحة مكتب الكومنترن الغربي OMS، ألحق عام ١٩٣٦ بالمديرية الرابعة. وصل هذا إلى بلجيكا عام ١٩٣٨ بجواز سفر مزوّر، وتحت اسم آدم ميكلر، وكرجل أعمال كندي لديه ١٠,٠٠٠ دولار يَوَدُّ تشغيلها. ومع ليون غروسفوجل Grossvogel وهو صديق يهودي كان قد عمل لحساب مكتب الكومنترن الغربي كذلك أسس شركة الـ Foreign Encellent Raincoat Company، والتي شكل اسمها الطريف غطاء لعمله في الجاسوسية. وقد أصبحت حسب كلماته الخاصة "الصورة الحقيقية للصناعة المحظوظة" ... وأنشأ شبكة مؤلفة من يهود تحتقرهم اللاسامية النازية ويرغبون في العمل مجانًا ضد هتلر. مع أنه كان هناك في قيادة شبكة "تربّر" أشخاصًا مثل سورج دفعوا أساسًا من حسابهم الخاص. فلم يحصلوا وحتى بداية الحرب على القليل من المعلومات الممتازة. وبعد عدة سنوات كان على "تربّر" أن يكتب: "لقد تخلينا عن عمل الاستخبارات بالمعنى الحرفي حتى بداية الحرب. كان هدفنا تمتين غطائنا التجاري وإنجاز العمل الأساسي الضروري لنكون جاهزين عند الطلقة الأولى"...

كان الهنغاري "ألكسندر رادو" معاصر تربّر الأكثر شهرة، وهو يهودي كذلك بدأ مهنته في مكتب الكومنترن الغربي وألحق بالمديرية الرابعة. ومثل تربّر، انطلق هذا في مجال الأعمال وأسس عام ١٩٣٦، في جنيف شركة رسم الخرائط الجغرافية المطبوعة La Societé de Cartograhpie Géopress، التي استخدمها كغطاء لنشاطاته الاستخباراتية. وخلال الحرب العالمية الثانية قاد أهم شبكة سوفياتية ضد ألمانيا؛ مترقبًا الأمور، مكتفيًا هو أيضًا بنشاط هامشي...

لقد كان التسلل إلى سفارتَي ألمانيا في طوكيو ووارسو هو الذي زوّد الاتحاد السوفياتي بمصادر المعلومات الأكثر فائدة حول ألمانيا ما قبل الحرب. لقد قام سورج بدور مستقبِل في طوكيو. فمنذ أن أصبح صديقه أوجين أوت Eugen Ott الملحق العسكري سفيرًا لألمانيا عام ١٩٣٨، أصبح بإمكانه "التنقل بحرية ـ ليلاً ونهارًا ـ في السفارة"، على حد قول موظف كبير من فريق أوت. وقد قدّر سورج إضافة إلى ذلك أن ٦٠ ٪ من المعلومات المرسلة إلى موسكو عبر شبكته مصدرها السفارة الألمانية. وفي حقبة ما، وبناءًا على طلب "أوت"، كلِّف بحمل رسالة للسفارة في مانيلا وكانتون وهونغ ـ كونغ ـ وتلك حالة نادرة لعميل سوفياتي يعمل بغطاء دبلوماسي ألماني.

وحسب سيرته المنقحة السوفياتية، لم يعلم سورج أبدًا أن الجنرال برزين Berzine مدير المديرية الرابعة كان قد صفي عام ١٩٣٨. فالرسالة التي وجهها إليه كانت أشد إيلامًا: "رفيقي العزيز! لا تقلق علينا. فرغم تعبنا وتوترنا المخيفين، نبقى مع ذلك منضبطين، مطيعين، نشيطين ومخلصين. جاهزين دومًا لتنفيذ المهمات ذات العلاقة بالرسالة العظيمة! أفضل تمنياتي لك ولأصدقائك. أرجو تسليم الرسالة المرفقة إلى زوجتي. راجيًا قلة العجلة في السهر على راحتها"...

مع ذلك، فإن المعلومات الأكثر أهمية التي قدّمها سورج، قبل وبعد الحرب العالمية الثانية، على علاقة بالسياسة اليابانية أكثر من علاقتها بالسياسة الألمانية. وخلال صيف ١٩٣٨، كان قادرًا على أن يؤكد لموسكو، على قاعدة المعلومات التي يقدمها أوزاكي Ozaki، أن الاقتراح الخاص بالمجابهة الأولى السوفياتية ـ اليابانية الخطرة والتي قد تحصل فجأة قرب بحيرة خازان Khasan على حدود منشوريا والخاضعة للاحتلال الياباني، يعود للقائد الياباني المحلي، وأن الحكومة اليابانية في طوكيو تأمل بتفادي الحرب. ووجّه الرسالة ذاتها المطمئنة بعد الانتهاكات اليابانية على

حدود منغوليا الخارجية في أيار ـ مايو عام ١٩٣٩. لم توافقه موسكو على ذلك واستنتجت فورًا أنها أمام اعتداء شامل على الطرف الشرقي للاتحاد السوفياتي[١]. وابتداءًا من صيف ١٩٣٩، مرت المديرية الرابعة بمرحلة ارتابت فيها بضابطها الأشد كفاءة. وفي أول أيلول ـ سبتمبر ١٩٣٩، شكل الغزو الألماني لبولونيا الإشارة على بدء الحرب العالمية الثانية. حينئذٍ وجهت موسكو إلى سورج لومًا قاسيًا. "لقد باشرت اليابان تحركات مهمة، عسكرية وسياسية، تحضيرًا لدخولها الحرب ضد روسيا، غير أنّك لم تنقل إلينا أيّ معلومات ذات قيمة. ويقال بأن نشاطك يتراخى".

وخلال السنتين السابقتين للحرب، سرَّبت الدوائر السرية السوفياتية عميلاً آخر إلى سفارة ألمانيا، ففي عام ١٩٣٧، جند رودولف هرنستاد Herrnstadt الصحافي اليهودي الذي قاد في ما بعد الـ"Neues Deutschland de la RDA" العامل في خدمة المديرية الرابعة في فرصوفيا، جنّد "رودولف فان شليها Scheliha" المستشار في السفارة الألمانية، والبالغ من العمر أربعين سنة، وهو سليل عائلة أرستقراطية سياسية، اشترك في الحرب كضابط في فرقة الفرسان قبل دخوله الحقل الدبلوماسي. وخلال الثلاثينات، فإنّ مُرَتّبَهُ وعائدات زوجته لم تعد تكفيه لتغطية ديونه من جراء لعب القمار ونفقة عشيقاته؛ وبخلاف سورج، كان مرتزقًا وليس مثاليًا. وفي شباط ـ فبراير ١٩٣٨، أودعت المديرية الرابعة ٦,٥٠٠ دولار لحسابه في بنك في زيوريخ ـ وهو أحد أضخم المبالغ المودعة لحساب عميل سوفياتي خلال فترة ما بين الحربين.

لماذا كانت المديرية الرابعة تقدم إلى حد بعيد "فان شليها؟" ببساطة لأن هذا كان يزودها بمعلومات من الدرجة الأولى حول تطور السياسة الألمانية إزاء بولونيا، وهو

---

١ - Joukov G.K., *The Memoirs of Marshal Zhukov*, Jonathan cape (London,1971), vol. I, p. 149.

الموضوع الذي يشكل الشغل الشاغل لموسكو. وخلال سنواته الخمس الأولى في السلطة، حاول هتلر تخفيف مخاوف بولونيا الثابتة في موضوع مطامعه بمناطق أوروبا الشرقية، وذلك بتوقيع معاهدة عدم اعتداء معها في كانون الثاني ـ يناير ١٩٣٤. وأراد طمأنة البولونيين حتى تسمح له عملية إعادة التسلح بمواجهة عدوانيتهم، والحصول على دعمهم في فترة ما، وفي تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٣٨ اقترح عليهم سياسة مشتركة ضد روسيا على قاعدة ميثاق مقاومة الكومنترن. إنما بُعيد ميونيخ (أيلول ـ سبتمبر ١٩٣٨)، أصبح من الواضح أكثر فأكثر أن مطالبه في مرفأ دانتزيغ Dantzig (مرفأ غدانسك البولوني الآن) نمَّت عن سياسة كان هدفها تحويل بولونيا إلى دولة تابعة. لقد بلغت العلاقات الجرمانية ـ البولونية النقطة الحرجة في أذار ـ مارس ١٩٣٩. ورافضة سياسة التهدئة المتبعة حتى الآن، أكدت بريطانيا العظمى وفرنسا دعمهما لبولونيا في حال تعرضها لعدوان ألماني.

وقد اختلطت المعلومات الدقيقة حول السياسة الألمانية التي يقدمها سورج وفان شليها بالأخبار الخاطئة وضجيج المؤامرة المنتشر من مصادر أخرى. لقد توافق ضم النمسا من قبل ألمانيا النازية، في شهر أذار ـ مارس ١٩٣٨، وبلاد السودات Sudètes في تشيكوسلوفاكيا بعد ميونيخ مع الإرباكات الكبرى الناجمة عن الإرهاب الستاليني في وسط المراكز الخارجية لفرع تشيكا للإستخبارات الأجنبية INO ولمفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD. نجم عن ذلك هبوط واضح في تدفق المعلومات، وكان هذا في الفترة ذاتها التي كان هتلر يستعد فيها لدخول الحرب.

إن إحدى المخاطر التي كان يصر عليها "سيمون روستوفسكي" المعروف باسم "إرنست هنري"، أحد العناصر غير الشرعيين في مفوضية الشعب، الناجي من الإرهاب الستاليني، كان التهديد من "إدخال ألمانيا للبلطيق على الخارطة العسكرية"

والذي أتاح لها الانغراس في فنلندا وحيث تتمكن من هناك من تقديم الدعم لأسطولها في البلطيق والانطلاق بهجوم ضد لينينغراد عبر مضيق كارليا Carélie، وهو خطر يثير القلق المتزايد حسب قول زعيم الحزب في لينينغراد، "أندريه جدانوف"... أما رواية المديرية الرابعة لهيئة أمن الدولة KGB والمصنفة سرية والمنشورة عام ١٩٨٠ فتستنتج أن وكالة هلسنكي كانت قد حصلت على نتائج مقبولة في الثلاثينات بمساعدة حوالى نصف دزينة من السياسيين وأعضاء في الحكومة كانوا في خدمتها. وكانت هلسنكي مع ذلك، بعد لندن، أحد المراكز التي أصابها الرعب أكثر من غيرها، ومنذ نهاية ١٩٣٧، استُدعي عمليًا كل عملاء مفوضية الشعب NKVD والمديرية الرابعة إلى موسكو حيث كان ينتظرهم الموت أو السجن، وخلافًا لمقتضى الأمر، لم يبقَ أي شخص في مركزه في وكالة هلسنكي، وقطع الاتصال مع عملاء التسلل الفنلنديين. والضابطان الوحيدان اللذان أفلتا من التحقيق في موسكو وعادا إلى هلسنكي كانا "بوريس نيقولايفتش ريبكين" المعروف بـ "يارتسيف Yartsev" والعامل تحت غطاء دبلوماسي، كسكرتير ثانٍ، وزوجته "زويا نيقولايفنار ربكينا" المعروفة بـ"يارتسيفا Yartseva"، مديرة قسم السياحة الداخلية في هلسنكي. وقد أُمِر ريبكين في ربيع عام ١٩٣٨ بعد ترقيته إلى درجة سفير مقيم أن يعيد مع زوجته إطلاق عمليات مفوضية الشعب NKVD في فنلندا.

مع ارتيابه التام بأن ريبكين يعمل لصالح مفوضية الشعب NKVD، اعتبره وزير الخارجية الفنلندي المقبل فانيو تاينر Vanio Tanner شخصًا مليئًا بالحيوية بل ومثيرًا للإعجاب. "يمكن، كما قال، أن تتناول معه المواضيع الأشد حساسية، وكأنه، وخلافًا للكثير من زملائه، ليس بحاجة لمراقبة أحاديثه بوجه خاص".

طويلة وشقراء، فإن زويا ريبكينـا، المرأة الجميلـة والتـي تضـج بالشباب، حسب تاينر[1]، نالت هي أيضًا بعض النجاح في هلسنكي، وبعد الحرب قادت الفرع الألمـاني والنمساوي من فرع تشيكا للإستخبارات الأجنبية INO المعاد تنظيمه. ولم تكن أسـاليب ريبكين الصريحة والجذابة في اتصالاتـه الفنلندية سوى خديعة. ففـي داخل مفوضيـة الشعب NKVD، كان يتصـرف كعقـائدي سـتاليني، وعن وعـي بـأن أصولـه اليهوديـة تجبره علـى أرثوذكسية خالصـة وعلـى التمسك بـالمبدأ القـائل: "Ougadat, Ougodit, Outselet، شمشم، لَحْوس الجزمات وانجُ بنفسك"...

عام ١٩٣٨، انتشرت مزايا ريبكين فـي الأوساط الدبلوماسية السرية. وفـي ١٢ أذار - مارس، غزا هتلر النمسـا دون مواجهـة أيّ معارضـة وضمّهـا إليـه فـي الحـال. وداخل الشك الكرملين، بأن إجراء الفوهرر القادم لن يكون توطيـد وضعـه فـي فنلنـدا. وفي ١٢ نيسان - إبريل، أحيا الاحتفال بالعيد العشرين لتحرير هلسـنكي مـن السـيطرة السوفياتية، بمساعدة الألمان، هذه المخاوف. أمّـا الوفد الـذي ترأسـه الكونـت روديجـر فون در غولتز Rudiger Von Der Goltz، قائد الفرق الألمانية عام ١٩١٨، فقام بـدور رئيسي في هذه الاحتفالات[2]. وبعد يوميـن، التقـى ريبكين وزيـر الخارجيـة الفنلنـدي، رودولف هولستي Holsti. وخلال إقامته الأخيرة في موسكو، أُسندت إليـه، كمـا يقـول "سلطات استثنائية واسعة جدًا للشروع، فـي مـا يخـص العلاقـات الروسية - الفنلنديـة، بمحادثات غير منتظرة حتى من السفارة السـوفياتية". فقد كـان الكرملين، كمـا أوضـح لهولسني، "على يقين" أن ألمانيا تتأهب لإنزال جيش في فنلندا لتغزو روسيا في ما بعد؛

١ - Tanner Vainö, *The Winter War* (Stanford university press,1957), p. 3.

٢ - Tolstoï Niekolaï, *Stalin's secret war,* Jonathan cape (London,1981), P. 127.

وسُمِع يتحدث كذلك عن انقلاب فاشي في حال عدم تعاون حكومته مع المعتدين. وإذا تدخل الألمان في فنلندا، فإن الجيش الأحمر سيتدخل كذلك، مسببًا هكذا حربًا على الأراضي الفنلندية. أما إذا قاومت فنلندا التدخل الجرماني، فسيقدم لها الاتحاد السوفياتي السلاح والعون العسكري ويتعهد بسحب فرقه حال انتهاء النزاع.

وخلال عدة شهور، لم يكن لدى ربكين الأمل باتفاق ما. وفي حزيران ـ يونيو وتموز ـ يوليو التقى خلال جولتين رئيس الوزارء "أ. ك. كاجاندر Cajander" وأصرَّ من جديد على أنه الوحيد الذي باستطاعته التفاوض: فالسفير، قال باحتقار "يتحدث إلى الكثير من الناس، غير أن ما يقوله لا يساوي شيئًا". ولم يبدِ كاجاندر أكثر رغبة من هولستي في التخلّي عن الحياد الفنلندي لصالح تحالف عسكري مع الاتحاد السوفياتي. وفي كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٣٨، تواصلت المفاوضات في موسكو، وفوجئ الوفد الفنلندي بأنه استقبل من قبل ليتفينوف، مفوض الشؤون الخارجية وليس من قبل أنستاز ميكويان مفوض التجارة الخارجية. وقد قيل لهم بأن ليتفينوف لم يكن على علم بهذا اللقاء، مع أنه شارك في ما بعد في المفاوضات. لقد قاوم الفنلنديون دائمًا الضغوطات، ولم يقبلوا أبدًا أن يؤجروا لأجلِ ما جزر الخليج الفنلندي الاستراتيجية للاتحاد السوفياتي. وتوقفت المفاوضات فجأة دون نتيجة في أذار ــ مارس ١٩٣٩، بعد عروض هولستي الأولى السرية بسنة تقريبًا. غير أن الدبلوماسية كانت حينئذٍ تعيش عملية تبدّل كامل.

لقد حكم مؤتمر ميونخ، في أيلول ــ سبتمبر ١٩٣٨، بالموت على سياسة الأمن الجماعي. ولم يشارك الاتحاد السوفياتي فيه، وتحت الضغط الفرنسي البريطاني، تنازلت تشيكوسلوفاكيا عن بلاد السودات Sudetes إلى ألمانيا، حارمة نفسها هكذا من كل حماية فعالة عندما دخل هتلر بعد ستة أشهر إلى براغ. ولعل ستالين وبريا Beria

وعلى الأرجح مجموعة المكتب السياسي Politburo راحوا، وبالتدريج، يعتبرون ميونخ كعنصر في مؤامرة غربية تستهدف دفع هتلر للتوجه نحو الشرق وترك فرنسا وبريطانيا العظمى بسلام، ويكون بذلك قد ركّز عدوانيته على الاتحاد السوفياتي. وقد أصبحت نظرية المؤامرة هذه في ما بعد رواية السوفيات التاريخية الرسمية. وحتى نهاية الثمانينات، لم يزل المؤرخون السوفيات يدّعون "بأن القوى الغربية الكبرى لم تبدِ الترحيب فقط بالعدوان الفاشي، لكنها حاولت بكل وضوح توجيهه نحو الاتحاد السوفياتي"... بالاختصار، فإن عددًا لا بأس به من قادة الدول الغربية هللوا للمجابهة بين الطاغيتين، إلاّ أنّه لا وجود في الواقع لأيّ مؤامرة فرنسية ـ بريطانية استهدفت تشجيع الهجوم الألماني ضد الاتحاد السوفياتي.

كان ستالين ميّالاً للإقرار بمؤامرة فرنسية ـ بريطانية ليس فقط بسبب ميله الطبيعي لنظرية المؤامرة، إنما بسبب المعلومات التي كان يتلقاها. إن جيلاً بكامله تقريبًا من السفراء المقيمين الرسميين وغير الرسميين كانوا قد صُفُّوا؛ وتوارى الآخرون أمثال أورلوف Orlov وكريفيتسكي Krivitsky، أمّا بعض وكالات مفوضية الشعب NKVD، مثل وكالة لندن فلم تتوفر لها دائمًا الكوادر. أمّا ضباط فرع استخبارات تشيكا الأجنبي INO الذين فروا، على الأقل موقتًا، من التصفية، فبحثوا عن ملاذٍ لهم في مبدأ العبودية القائل: "شمشم، لَحْوِس الجزمات وانج بنفسك Ougadat, Ougodit, Outselet". وأكثر من أية زمن آخر من التاريخ السابق لهيئة أمن الدولة KGB، كان فرع تشيكا المذكور INO مضطرًا لتقديم معلومات مستندة عِلى فرضية مؤامرة ما. إنّ كل عميل لا تؤكّد معلوماته مؤامرة فرنسية ـ بريطانية ساعية لتفجير نزاع سوفياتي ـ ألماني تدور حوله الظنون كمتواطئ مع الإمبرياليين. أما الجيل الجديد من موظفي الدولة الحزبيين الذي خلف الضباط العالميين، ضحايا عمليات التطهير، فكان لديهم كذلك تجربة محدودة مع

العالم الخارجي: فخلال ممارستهم لمهنتهم، أثبت هؤلاء مهارتهم في اكتشاف مؤامرات خيالية معادية للثورة.

بعد موت أبراهام سلوتسكي في شباط ١٩٣٨، إثر تسمم ولا ريب، فإن معاونة "ميخائيل شبيجلغلاس Chpigelglas" هو الذي خلفه بالوكالة على رأس فرع التشيك للإستخبارات الأجنبية INO. وهو الذي قاد في إسبانيا عمليات التخريب خلف خطوط الوطنيين، أتباع فرنكو، ودبّر في سويسرا مصرع المنشق أينياس ريس Ignace Reiss. لقد تذكره منشق لاحق كرجل دون اهتمامات "غير أنّه دقيق، نظيف، فعّال وعلى درجة من الرهافة الجسدية والعقلية". وقد جرت تصفية شبيجلغلاش كذلك، وهو يهودي مثل سلوتسكي، بعد عدة أشهر... وعندما وصل بريا Beria إلى موسكو في تموز - يوليو ١٩٣٨، بصفته الخليفة المعين لإيجوف Iejov، كان يرافقه شريكه الجيورجي فلاديمير جيورجيفيتش دكانوزوف، الذي أصبح المدير الجديد لفرع تشك المذكور INO[1]. بطول يكاد يصل إلى ١٥٠ سم، كان لهذا أنف أعقف، وبعض خصل الشعر السوداء المرخية على رأس أصلع: مظهر تافه. غير أن أحكام الإعدام العديدة التي نطق بها في القوقاز في بداية العشرينات أعطته الشهرة "كجلّاد باكو"، وقد أكد شهرته هذه في ما بعد سلوكه الدموي في حقبة الإرهاب الستاليني عندما كان نائب رئيس مجلس مفوضي الشعب في جورجيا. أما تجربته بالشؤون الخارجية فكانت منعدمة تمامًا: فقد كان أول مدير لفرع تشك الخارجي INO لم يجتز حدود الاتحاد السوفياتي. مع ذلك، فإن أيًا من أسلافه الأكثر تجربة لم يقم بدور مشابه لدوره في السياسة الخارجية. وخلال سنتين، تمّتْ ترقيته إلى مركز المفوض - المعاون للشؤون الخارجية ثم سفيرًا في برلين.

---

١ - Conquest Robert, Insice Stalin's secret Police: NKVD politics 1936-1939, Macmillan, (Londres,1985), P. 103.

أما الرواية المعتمدة في موسكو للخطط التي نظمها "تفيل شامبرلان" في روما في كانون الثاني - يناير ١٩٣٩ فتسمح بتقدير الأثر الحاسم للمعلومات المرسلة بعد ميونيخ إلى بريا Beria وستالين من قبل دكانوزوف Dekanozov. وقد أكّد ليتفينوف لسفير بولونيا على أنه على علم من مصدر مؤكد أن شامبرلان كان قد أثار المسألة الأوكرانية خلال محادثات روما، مضمرًا "أن بريطانيا لن تواجه في فترة غير مؤاتية المطامع الألمانية في هذا الاتجاه". لقد آمنت موسكو أشد الإيمان بهذا البرهان الإضافي عن جهود بريطانيا – العظمى في تشجيع هجوم ألماني ضد روسيا، حتى أن أحد مساعدي ليتفينوف، بعد ذلك بثلاثة أشهر، وشى كذلك عن مؤامرة شامبرلان المزعومة للسفير الإيطالي.

في تلك اللحظة بالذات التي قدمت فيها مفوضية الشعب NKVD المعلومات الجديرة بالثقة أقل من غيرها، وصل تأثير هذه المفوضية على السياسة الخارجية السوفياتية حده الأقصى. وقد اعتادت هذه المفوضية في الحقيقة إجراء محادثات سرية مع فنلندا عام ١٩٣٨ ومع ألمانيا عام ١٩٣٩. وقد تواصل إسقاط الدبلوماسيين المتهمين بعواطفهم المضادة للثورة أو المناصرين للغرب وعلى امتداد سنة ١٩٣٨ وحتى عام ١٩٣٩. وفي ما يلي شهادة لاحقة من أحد الدبلوماسيين الذين عاشوا بعد هذه المرحلة:

"إنّ زميلاً ما، كُنّا قد أعطيناه موعدًا لمناقشة مسألة ما قد يتعرض جديًا للاختفاء من اليوم إلى الغد على يد مفوضية الشؤون الخارجية... لقد تم توقيفه." ان هؤلاء الذين ظن بهم بريا وستالين أولاً هم هؤلاء الذين كان لديهم من التجربة ومن المعلومات عن العالم الغربي أكثر من غيرهم. ولم توفّر الاعتقالات قمة الهرم: فالمعاون السابق لمفوض الشعب، ن. ن. كرستانسكي Krestinsky، هو رمز لـ"أعداء

الشعب" المحكوم عليهم بالإعدام بمناسبة الدعوى على "تكتل اليمين والرتوتسكيين"، التي بدأت في موسكو، في شباط ـ فبراير ١٩٣٨. أما الملحق الآخر لمفوضية الشعب للشؤون الخارجية، "بوريس سبيريدونوفيتش ستومونياكوف"، فكان خاضعًا إلى درجة من التوتر، حتى أن زملاءه فاجأوه أحيانًا مربوط الرأس بمنشفة لكي يخفف آلام الرأس المتواصلة. وكان يقوم بحمام بارد كل مساء ليشعر بالهدوء والسكينة. وكانت نهايته هي ذاتها نهاية كرستانسكي...

بعد ميونخ زال نفوذ سياسة الأمن الجماعي، حتى أن أيام ليتفينوف نفسه في المفوضية أصبحت معدودة. وقد تذمر مولوتوف في ما بعد من وجود، حتى بين السوفيات أنفسهم، "بعض الأشخاص القصيري النظر، المنساقين وراء تحريض فاشستي مبتذل والمتجاهلين للتحدي الذي يعمل على أساسه الأعداء الفريبون". وهو يقصد بكل وضوح ليتفينوف: فسياسته الخيالية تصب في طاحونة "الأوساط العليا البريطانية والفرنسية" الراغبة سرًا في تشجيع هجوم هتلري ضد الاتحاد السوفياتي. وفي نيسان ـ إبريل ١٩٣٩، حاول ليتفينوف وللمرة الأخيرة تحقيق الأمن الجماعي مقترحًا مفاوضات مع بريطانيا العظمى وفرنسا من أجل ميثاق تعاون متبادل ضد "عدوان في أوروبا". وفي ذلك اليوم بالتحديد، زار السفير السوفياتي في برلين وزارة الشؤون الخارجية ليقترح عليها محادثات لتطوير العلاقات الجرمانية ـ السوفياتية. وقد ظهر إذن أن المفاوضات التي يجب أن تتوج أخيرًا بميثاق جرماني ـ سوفياتي كانت تقوم بها مفوضية الشعب NKVD وليس الأوساط الدبلوماسية. وكيهودي وداعية للأمن الجماعي، بدا ليتفينوف بوضوح على أنه العقبة في وجه المفاوضات مع ألمانيا. وفي الرابع من أيار ـ مايو خلفه مولوتوف، وفي ما بعد سُمّي دكانوزوف Dekanozov ولوزوفسكي ـ الرئيس السابق "للأممية الشيوعية النقابية ـ مفوضين ملحقين. وخلافًا

لأسلافه الملحقين، بقي ليتفينوف حيًا، غير أن اجتماعًا سريًا ـ شارك فيه خاصة مولوتوف وبريا ودكانوزوف ـ عقد في المفوضية لإلغاء ما تبقى من "الليتفينوفية". وهنا ظهر مولوتوف وبريا بالثياب المدنية، لكن دكانزوف ارتدى بزة مفوضية الشعب NKVD، وحضر أعضاء المفوضية الواحد تلو الآخر لإنكار ـ وأحيانًا دون نجاح ـ أي ارتباط لهم بأعداء الشعب.

خلال عدة أشهر، أجرى مولوتوف رسميًا مفاوضات مع كل من بريطانيا العظمى وفرنسا لعقد اتفاق ما. بينما كان يحاور سرًا، بعد تردد في البداية، ألمانيا. وقد أثارت المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي حماسًا معتدلاً عند البريطانيين والروس. وقد كتب شامبرلان في مراسلاته الخاصة: "إني أرتاب أشد الارتياب بنوايا الاتحاد السوفياتي وأشك على قدم المساواة بقدرته العسكرية، حتى ولو شاء صادقًا مساعدتنا"[١]. من المحتمل جدًا أن يكون ستالين قد اعتبر المفاوضات مع فرنسا وبريطانيا وسيلة ضغط لتوقيع اتفاق مع ألمانيا، أو السبيل الوحيد الباقي إذا لم يتحقق الميثاق الجرماني السوفياتي. وحدها فرنسا شعرت بالخطر وخشيت عن صواب أن يوقّع ستالين اتفاقًا مع هتلر في حال فشلت هذه المفاوضات[٢]. وقد اخترعت مفوضية الشعب NKVD الأجراءات الفعالة" الأشد مكرًا لدفع ألمانيا نحو إبرام الاتفاق.

وبعد عدة أيام على لقاء السفير السوفياتي مع وزير الشؤون الخارجية الألماني في ١٤ نيسان ـ إبريل، تلقت سفارة الرايخ في لندن ـ وأبلغت ذلك إلى برلين ـ مضمون

---

١ ـ Gilbert Martin, *Winston S. Churchill*, Heinemann (London, 1976), P. 1073.

٢ ـ Duroselle J. B., *La Décadence*, Imprimerie nationale 1932-1939 (Paris,1979) PP. 416, 924.

سلسلة البرقيات الدبلوماسية الأولى، وفيها يتمسك البريطانيون بتقدم المفاوضات مع الاتحاد السوفياتي. وقد تضمنت بعض البرقيات التي أمكن احتجازها عددًا من الفجوات و "التحريفات" موجبة مثلاً أن المفاوضين الفرنسيين والإنكليز قدموا عروضًا أكثر إغراءًا وتقدموا بسرعة أكبر في حين لم يكن الحال كذلك. وهناك احتمال ضئيل أن يكون مصدر هذه البرقيات دوائر التجسس الألمانية. لقد كانت هذه غير قادرة على حل رموز البريد الدبلوماسي البريطاني، ولم تُعَيِّن أبدًا "للمكتب الخارجي" Forcigne Office أي عميل دخل عالم هذه البرقيات...

وكما بيّن ذلك البروفسور دونالد كاميرون وات، فإن دخول السفارة الألمانية المفاجئ - والانتقائي - على البريد الدبلوماسي البريطاني عام ١٩٣٩، وهذا التوقف الفج قبل توقيع الاتفاق الجرماني السوفياتي بأسبوع، وكذلك أعمال الحذف و"التحريف" للبرقيات المحتجزة، كل ذلك لا يمكن تفسيره بصورة مقبولة إلا على ضوء فرضية تدخل مفوضية الشعب NKVD. وبالمناسبة فإن فون در شيلانبرغ Schulenburg، سفير ألمانيا في موسكو تلقى معلومات مماثلة، مخصصة كذلك لتسريع توقيع الاتفاق الجرماني - السوفياتي.

لقد صدرت البرقيات التي أرسلتها مفوضية الشعب NKVD للسفارة الألمانية في لندن عن مصدر أو مصدرين متكاملين. الفرضية الأولى: الكابتن ج. هـ. كنغ، موظف الشيفرة في فرع الإشارة في "المكتب الخارجي" والمراقَب من قبل تيودور مالي حتى استدعائه عام ١٩٣٧. ومن المحتمل - ولكنّ ذلك ليس أكيدًا البتة - أن يكون كنغ قد عاد إلى خدمته عندما أكدت مفوضية الشعب NKVD حضوره في لندن خلال شتاء ١٩٣٨ - ١٩٣٩. الفرضية الثانية: ان فك رموز البريد الدبلوماسي البريطاني يمكن أن يكون من فعل فرع مفوضية الشعب المضاد لفك الرموز المعتمد إلى حد بعيد على مساهمة

كنــغ ومــاكلان Maclean وكــارنكروس. إن المعلومــات الصـــادرة عــن أحــد هذيــن المصدرين، أو عن كليهما، والتي نقلتها مفوضية الشعب NKVD، بعـد تزويرهـا، إلـى السفارة الألمانية في لندن جرى وصفها دون مبالغـة علـى أنهـا "العمـل الرائـع لضغط حقيقي وإيحاء مزيف Suppressio Veri et de Suggestio Falsi"[1]. ويبقى علينا مع ذلك أن نبين منفعتها إذ إن الاتفاق يقدم مزايا كهذه لهتلر في وقت يتهيـأ فيـه لغـزو بولونيـا، وإن مفوضية الشعب كان باستطاعتها أن لا تستخدم هذه الوسائل في الضغط المباشـر. لقد تم توقيع ميثاق عدم الاعتداء الجرماني ـ السـوفياتي فـي ٢٣ آب ـ أغسـطس. وقـد لحظ بروتوكول سري أنه "في حال أي تعديـل فـي الأراضـي أو السياسـة"، فـإن شـرق بولونيـا واسـتونيا وليتوانيـا وفنلنـدا وبسـربيا، فـي رومانيـــا، سـتكون تحـت السـيطرة السوفياتية. وقد فوجئ "المكتب الخارجي" وكذلك أكثرية البلاد الأجنبية بهذا الاتفاق.

وقد بدا الطاغيتان مفتونين. وبعد التوقيع، شرب ستالين على صحة هتلر قائلاً: "أنا على علـم بحـب الشـعب الألمـاني للفوهـرر. إنـه رجـل يسـتحق أن أشـرب قدحًـا علـى صحته". ثم شـرب مولوتـوف قدحًـا علـى شـرف ريبنـتروب Ribbentrop وريبنـتروب على شرف الحكومة السوفياتية. ثم إن مولوتوف شرب بمناسبة نجــاح سـتالين، الرجـل الـذي كـان فـي أذار "المحـرض علـى فسـخ التحالفـات". وكخاتمـة، أعلـن سـتالين أمـام ريبنتروب: "أن الحكومة السوفياتية تتعاطى مع الميثاق الجديد بجدية كبيرة. وأتعهـد أن لا يخون الاتحاد السوفياتي شريكه". وكان هتلر على طاولة العشاء عندما أُعلـم أنـه تـم التوقيع على النص؛ فقفز عن كرسيه صارخًا: "لقد ربحنا!" لقد أصبحـت بولونيـا رهـن يديه...

---

١ ـ المصدر السابق.

فـي أول أيلـول ـ سـبتمبر، بعـد أسـبوعٍ تمامًـا علـى توقيـع المعـاهدة الجرمانيـة ـــ السوفياتية، عبر مليون ونصف مليون جندي ألماني الحدود البولونية. وفي ١٧ أيلول ـ سبتمبر، وبينما كان البولونيون يقومـون بشـجاعة، ولكـن دون مسـتقبل، فـي ورماشـت Wehrmacht، غزا الجيش الأحمر شرق البلاد ليأخذ حصته من الحلوى. وعندما التقـى الجيشان تآخيا، وشربا الأنخاب وحتى أنهمـا نظمـا الاحتفـالات العسـكرية المشـتركة... وعند القسمة النهائية لغنائم الحرب، استبدل ستالين ليبان Lubin ووارسـو، المقـاطعتين البولونيتين مقابل ليتوانيا، التي تمنحها المعـاهدة إلـى ألمانيـا. وكـان أمـام دول البلطيـق كذلك تسعة أشهر من الاستقلال المحدود، إنما كان عليها القبول وتحـت التهديـد بإنشـاء قواعد عسكرية سوفياتية. وقد أسـرَّ سـتالين للوفـد الأسـتوني حـال تخليـه عـن مطالبـه: "بإمكاني أن أؤكد لكم أن الحكومة الأستونية تصرفت بحكمة... فما حصـل فـي بولونيـا كان يمكن أن يحصل لكم".

وفي بولونيا الرازحة تحت الاحتلال السوفياتي، سرعان ما نظمت مفوضية الشعب NKVD استفتاءات شعبية مزيفة للمطالبـة بـالوحدة مـع الاتحـاد السـوفياتي. أمـا نيكيتـا خروتشوف، السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأوكراني، الذي اعتبر جنوب ـ شـرق بولونيا مثل "أوكرانيا الغربية"، فكان عليه في ما بعد أن يذكر، دون أن يكـون فـي نيتـه التهكم في الظاهر، النتائج المذهلة التي حصلت عليها مفوضية الشعب: "لقد تم انتخـاب وفود إلى مجلس لفوف Lvov... وقـد تـابع هـذا المجلـس عقـد جلسـات لأيـام عدة فـي أجواء من التهليل والحماس السياسي. ولم أسمع حديثًا واحدًا يعبر عن أدنى شك حـول الحاجة للخضوع للنظام السوفياتي. وواحد تلو الآخر، وبفرح وتأثر، أعلن كل الخطبـاء أن حلمهم العزيز جدًا كان قبولهم في الجمهوريـة السـوفياتية الأوكرانيـة. لقد لاحظـت بسرور أن الطبقة العاملة، والفلاحين والمثقفين الكادحين بدأوا يفهمون تعاليم الماركسية

اللينينية.... وتابعنا في الوقت ذاته الاعتقالات، ذلك أنها أتاحت، برأينا، تعزيز الدولة السوفياتية وفتح الطريق للإشتراكية المبنية على المبادئ الماركسية - اللينينية".

بينما كان الغستابو النازي الألماني ينظّم أعمال الاضطهاد العرقي على الأراضي البولونية التي تحتلها ألمانيا، كانت مفوضية الشعب NKVD السوفياتيّة تهاجم "الأعداء الطبقيين". وقد أدّت قرارات صادرة عن هذه المفوضية إلى نفي أربع عشرة فئة من الأشخاص. وبطريقة ذات مغزى، يشير القرار الأول إلى التروتسكيين وبقية البدع الماركسية. وتشير اللائحة كذلك إلى كل الأشخاص الذين كانوا قد سافروا إلى الخارج أو "كانوا على اتصال مع ممثلي الدول الأجنبية"، وهي فئة واسعة بحيث تشمل حتى أنصار اللغة الدولية Esperanto وجامعي الطوابع... وأكثرية النواب والشخصيات الفعّالة ضمن طوائفها، بما فيها عائلاتهم: رجال سياسة، موظفون، ضباط في الجيش، رجال شرطة، قضاة، أصحاب الأراضي، رجال أعمال، أصحاب الفنادق والمطاعم، رهبان و "أشخاص لهم نشاط معين ضمن رعيتهم... وعلى صورة دائرة الأمن في ألمانيا النازية SS أو الغستابو، فإن هدف مفوضية الشعب، كما أعلن في ما بعد الجنرال لاديسلاس أندرس Anders، كان "تشذيب الجماعات" وتدمير كل سلطة بإمكانها تنظيم مقاومة ما للسيطرة السوفياتية. وقد تعاونت مفوضية الشعب مع دائرة الأمن في ألمانيا النازية SS وقايض الغستابو شيوعيّي الغولاغ Goulag الألمان مقابل المهاجرين الروس والأوكرانيين في ألمانيا[1]. وكانت "مارغريت بوبر نومان Buber-Neumann" إحدى الشيوعيات الألمانيات التي سُلّمت لدائرة الأمن في ألمانيا النازية

---

١ - Davies Norman, God's Playground: A History of Poland, vol. II, Clarendon press (Oxford,1981).

SS، على الجسر الذي يصل بيغ Bug وبرست ـ ليتوفسك. بعد التحية والسلام، كان ضباط دائرة الأمن وضباط مفوضية الشعب يتصرفون كشركاء قدامى: "عندما أصبحنا في وسط الطريق، حسب ما نتذكر، عدت أدراجي. وبقي أعضاء مفوضية الشعب متحلّقين، ينظرون إلينا ونحن ننطلق. وفي ما وراءهم تمتد روسيا السوفياتية. وبمرارة استعيد أغنية الشيوعيين المشهورة: "حزب الشغيلة؛ معقل الحرية؛ وملاذ المعذبين"...

وعلى العموم، فإن ما يقارب المليون ونصف المليون من "الأعداء الطبقيين" البولونيين، نقلوا عنوة في مقطورات الحيوانات إلى الأراضي المقفرة في كازاخستان وسبيريا. وعند إعلان العفو العام بعد الغزو الألماني في حزيران ـ يونيو ١٩٤١، كان نصف هؤلاء تقريبًا قد تمت إبادتهم. وهناك ١٥,٠٠٠ ضابط بولوني لقوا حتفهم بالقرب منهم[١]. وتحكي آخر الملاحظات التي أخذها أحد الأقرباء عن مذكرات الميجور سولسكي Solski وصوله، تحت حراسة مفوضية الشعب، إلى غابة "كاتين Katyn" قرب "سمولنسك Smolensk" في ٩ نيسان ـ إبريل ١٩٤٠: "ها نحن الآن في غابة صغيرة تشبه تمامًا مخيم العطلات. انتزعوا منا خواتم الزواج وساعاتنا التي كانت تشير إلى السادسة والنصف صباحًا... وكذلك أحزمتنا وسكاكيننا. أي مصير ينتظرنا؟".

وبعد ذلك بثلاث سنوات، اكتشفت الفرق الألمانية جثة سولسكي، مع أربعة آلاف آخرين، في "مدفن العظام" داخل غابة كاتين، وقد شُدّت أيدي أكثريتهم إلى ظهورهم، وطلقة واحدة في العنق[٢]. وحتى أنه وجد بين ضحايا مفوضية الشعب NKVD

---

١ - Davies, History of Poland, vol. II, PP. 448-452.

٢ ـ مقال من المجلة الأسبوعية البولونية Odrodzenie، منشور في الدايلي تلغراف، ١٧ شباط ـ فبراير ١٩٨٩.

بعض الشيوعيين البولونيين الذين أفلتوا من حملات التطهير في موسكو. وفي عام ١٩٤٠، هرب قائد الحزب المقبل من منطقة السيطرة السوفياتية والتحق بمنطقة السيطرة الألمانية[1].

بعد تقسيم بولونيا بين النازيين والسوفيات، مورس ضغط متزايد على الفنلنديين. وهذا "ريبكين"، الوكيل المقيم لمفوضية الشعب NKVD في هلسنكي يقص على ستالين ما يريد هذا سماعه: عند وقوع الحرب، سينهار الفنلنديون بالسرعة التي انهار بها البولونيون، وستقدم البروليتاريا دعمها لإنشاء نظام شيوعي... وفي الخامس عشر من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٣٩، استُدعي وفد فنلندي إلى الكرملين، حيث أطلعه ستالين على مطالبه: على فنلندا السماح بإنشاء قواعد عسكرية، في الجزر وعلى الشاطئ، والتخلي للاتحاد السوفياتي عن رقعة من الأرض في شمال لينينغراد مقابل جزء من "كاريليا Carelie" السوفياتية ليس بحاجة إليه. "يبدو أننا لا نتقدم إلى الأمام كمدنيين"، أعلن مولوتوف بعد ١٥ يومًا من المحادثات... "إن على السلاح أن يتكلم الآن". وقدَّر الجنرال "ك. أ. مرتسكوف Meretskov"، آمر قطاع لينينغراد العسكري، أن اجتياح فنلندا يتطلب ثلاثة أسابيع، أما المارشال شابوشنيكوف، قائد الأركان العامة، فقال بعد عدة أشهر. إنّ ستالين قد فضّل خطة مرتسكوف[2]. وقد استعرض خروتشوف في ما بعد لقاءً بين ستالين ومولوتوف وأوتو كيزينين الفنلندي والسكرتير العام للكومنترن وأحد مستشاري الدكتاتور للشؤون السياسية الخارجية، قائلاً: "عندما وصلت إلى القاعة، قال ستالين: "لنبدأ الآن. يكفي أن نرفع صوتنا قليلاً. فيتنازل الفنلنديون. وإذا لم

---

١ - Davies, History of Poland, vol. II, P. 452.

٢ - Tolstoï, *Stalin's Secret War*, PP. 129-134; Seaton Albert, *Stalin as Warlord*, Batsford (London, 1976), P.90.

ينفع ذلك، فسيستسلمون بطلقة وحدة"[1]. وقد نُمي عن الفرق السوفياتية التي اجتاحت الحدود في ٣٠ تشرين الأول ـ أكتوبر أنهم قالوا إن شعب فنلندا المضطهد انتظرهم لاستقبالهم بالأحضان...

وقد ألقت مقاتلات سلاح الجو السوفياتي على هلسنكي منشورات محرضة الشغيلة للإلتحاق بالجيش الأحمر والإطاحة بالطاغية الرأسمالي. وقد تمركزت "الحكومة الديمقراطية الفنلندية" القوية، يقودها كيزنيز، وتدّعي "اعتمادها التام على الشعب، في تريجوكي، المدينة الأولى التي "حررها" الجيش الأحمر. وفي ٢ تشرين الأول ـ أكتوبر وبموجب معاهدة مع الاتحاد السوفياتي، منح هذا كل الأراضي التي أعلنت عنها حكومة كاجاندر Cajander، ونصت هذه المعاهدة أنه "بفضل معركة الشعب الفنلندي البطولية وجهود الجيش الأحمر السوفياتي تمت تصفية بؤرة الحرب المتفشية، التي أقامتها حكومة الأثرياء في فنلندا على حدود الاتحاد السوفياتي لصالح القوى الإمبريالية".

إن تاريخ المديرية الأولى، المصنف على أنه سري، يقر أن التفاؤل اللاواقعي الذي رافق بدايات "الحرب الباردة" يعكس طموحات عملاء ريبكين المناصرين للسوفيات، والتي قدمت علاقاتهم للرأي العام الفنلندي رؤية ضيقة الأفق أكثر بكثير من تلك التي قدمتها الوكالة القديمة التي صُفِّيت عام ١٩٣٧، لقد نَقَل ريبكين الخنوع شخصيًا إلى موسكو آراءهم المغلوطة، التي تؤكِّد آراء ستالين نفسه. وعلى مدى كل مرحلة بداية الحرب، استسلمت موسكو للخداع تمارسه العلاقات الجاسوسية والتي على أساسها "تركت الحكومة الفنلندية هلسنكي لمصير مجهول". ولم تسفر الحرب عن

---

١ - Tolstoï, *Stalin's Secret War*, PP. 135-136.

النتائج المرجوة: فقد استسلم مليون جندي سوفياتي معززين بقوى مدرعة في غاية القوة ومدعومين بالطيران، أمام جيش فنلندي لا يتجاوز عدده أبدًا الـ ٢٠٠،٠٠٠ رجل... وبلباسهم الأبيض، تدفق الفنلنديون من الغابات على زلاّجاتهم وبددوا الصفوف الطويلة من الجنود الروس وأبادوهم عن بكرة أبيهم. وعندما لام ستالين المارشال فوروشيلوف، مفوض الشعب للدفاع، على وقوعه في الخديعة، رد هذا قائلاً: "إنّ كل ذاك نتيجة خطة! أنت الذي أبَدت الحرس القديم للجيش؛ لقد قتلت أفضل الجنرالات عندك!" وتلاحق هذا الجدل حتى أن المارشال المهان قلب صينية كبيرة عليها خنزير رضيع مشوي...

ومن أجل تعزيز قرار الجيش الأحمر، فإن وحدات من مفوضية الشعب NKVD سُحبت من الخطوط الخلفية لاجتذاب الفرق التي قد تقاتل معزولة. على أيّ حال، انهارت المقاومة الفنلندية أمام الأعداد الكبيرة والتسليح الهائل السوفياتيين. وأجبرت معاهدة سلام، وُقِّعت في أذار ـ مارس ١٩٤٠، فنلندا على التخلّي عن مضيق كاريليا ـ شمال لينينغراد ـ الذي يمثل عشر عدد السكان. غير أن حكومة كيزنين الدمية اختفت في "مزابل التاريخ".

إن اللاكفاءة السوفياتية في "الحرب الباردة" تتناقض على وجه الخصوص مع سرعة غزو الألمان للنزوح في نيسان ـ إبريل ١٩٤٠ وكذلك مع النجاح الساطع، في أيار ـ مايو وحزيران ـ يونيو، للحرب الخاطفة التي أدّت إلى اندحار فرنسا وبلجيكا والأراضي المنخفضة خلال ستة أشهر لا غير. واستدعى مولوتوف السفير الألماني شيلانبرغ Schulenburg إلى الكرملين وقدم له "أحرّ تهاني الحكومة السوفياتية على النتائج الباهرة التي حصل عليها الـ "ورماشت Wehrmacht". لقد ساهم الاتحاد السوفياتي، مساهمة متواضعة، ولكن ذات مغزى في صنع النصر الذي حققه هتلر:

"فقد استعملت دبابات غدريان Guderian البنزين السوفياتي، عندما اندفعت باتجاه بحر أبفيل Abbeville، أما القنابل التي دكّت روتردام فاحتوت على قطن البارود السوفياتي، والجنود البريطانيون الذين تعثروا للإلتحاق بمراكبهم في دنكرك، فقد أُستهدفوا بالطلقات المغطاة بالأشابة النحاسية النكلية السوفياتية".

عندما رمت الجيوش الألمانية بثقلها على الأراضي المنخفضة، أعلنت الإزفستيا السوفياتيّة إلى قرائها: "لقد برهنت الأحداث الأخيرة، مرة أخرى، أن حياد الدول الصغيرة - غير القوية بما فيه الكفاية لفرض هذا الحياد - وَهْم خالص. إذن فلدى الدول الصغيرة حظّ ضئيل في العيش والاحتفاظ بالاستقلال". وكان واضحًا أن أيام دول البلطيق أصبحت معدودة. وليل ١٥ - ١٦ حزيران - يونيو استدعى دكسانوزوف إلى مكتبه في لوبيانكا عددًا من المسؤولين، ومن بينهم زميله فيشنسكي Vychinsky، المفوض المساعد للشؤون الخارجية والوكيل الخطر للقضايا الكبرى، وأعلمهم بأنه تم اختيارهم للقيام بمهمات في دول البلطيق، وأعلن أمامهم: "بناءًا على قرار المكتب السياسي Politburo وطلب الرفيق ستالين، لا بدّ الآن من حل مسألة الأمن على طول الحدود الشمالية الغربية". وقد ادّعى دكانوزوف، وربما آمن بذلك، أن حكومات دول البلطيق تآمرت "مع بورصات باريس ولندن". وقد أشار ملوتوف إلى شيء من هذا القبيل أمام شيلنبرغ دون أن يذكر على كل حال البورصة. وفي هذا اللقاء الليلي، أعلن دِكانوروف أنه سيكون على رأس المهمة في ليتوانيا Lituanie؛ وسيقصد فيشنسكي لتونيا Lettonie، وجدانوف استونيا. وإذا كان شغيلة هذه الدول قد طلبوا تحويل الأنظمة البورجوازية إلى جمهوريات اشتراكية سوفياتية، فلم يكن لدى الرفيق ستالين أي سبب للمعارضة"... وقد نُكوّن فكرة عن عمل هذه المهمات الثلاث على أساس خطة NKVD، التي ركّزها دكانوزوف "في سبيل تصفية ليتوانيا" والمؤرخة في ٧

تموز - يوليو ١٩٤٠، والتي وضع اليد عليها الألمان في ما بعد. وقد لحظت هذه الخطة "الإلغاء الفعلي للنفوذ المسيطر لأحزاب الدولة ومنها: حزب الوطنيين، ومناصرو فولدمارا، والشعبيون والمسيحيون الديمقراطيون والشباب الليتواني والتروتسكيون والاشتراكيون - الديمقراطيون والحرس الوطني، إلخ. ويجب أن يحصل ذلك دفعة واحدة في كل ليتوانيا، ليل ١١ - ١٢ تموز - يوليو ١٩٤٠".

وفي منتصف تموز - يوليو، عرفت الانتخابات التي أشرفت عليها مفوضية الشعب NKVD مشاركة ضعيفة، غير أن الأكثريات الشيوعية كانت كافية: ٩٩،٢٪ في ليتوانيا، ٩٧،٨٪ ليتونيا، ٩٢،٨٪ في إستونيا؛ وفي ٢١ تموز - يوليو طلبت المجالس التمثيلية الاتحاد مع الاتحاد السوفياتي، واستجاب مجلس السوفيات الأعلى لطلبها في ٣ آب - أغسطس. وبدعم من ملايين المخبرين، قامت مفوضية الشعب بتوقيف أعداد هائلة من "أعداء الشعب". فخلال ليل ١٤ - ١٥ حزيران - يونيو، وقبل أسبوع فقط من غزو ألمانيا للاتحاد السوفياتي، اعتقل ٦٠,٠٠٠ إستوني و٣٤,٠٠٠ ليتوني و٣٨,٠٠٠ ليتواني وحشروا داخل مقطورات المواشي وأبعدوا مسافة آلاف الكيلومترات عن أوطانهم، إلى مخيمات السجناء. ومع بداية الغزو كان قد تم نفي ٤٪ تقريبًا من الأستونيين و ٢٪ من الليتونيين والليتوانيين إلى مناطق في عمق سيبيريا وأوزبكستان.

في ١٦ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٤٠، وصل إلى برلين مولوتوف ودكانوزوف وفسفولود نيقولايفتش مركولوف، مساعد بريا، وذلك للنظر بمناطق النفوذ الألمانية والسوفياتية. ومع أن لدى دكانوزوف معرفة بالعالم الخارجي يحدها إخضاع ليتوانيا، فإن أيًا من زميليه لم يسافر مثله، فهذه أول إقامة لهما في الخارج. وبينما كانت المحادثات على قدم وساق، أعلن ستالين في ٢٠ تشرين الثاني - نوفمبر أن دكانوزوف سمي سفيرًا في ألمانيا. وفي ١٨ كانون الأوّل - ديسمبر، وقّع هتلر الأمر السري رقم

٢١، المشهور بـ"عملية برباروسا"، طالبًا إنهاء الاستعدادات لهجوم صاعق على الاتحاد السوفياتي قبل ١٥ أيار ـ مايو ١٩٤١. وفي اليوم الثاني استقبل الفوهرر دكانوزوف للمرة الأولى[١]. وأظهر له الود، غير أن دكانوزوف القصير القامة أحيط باثنين من الحرس ضخمي الجثة، تم اختيارهما خصيصًا لإثارة السخرية من قامته الهزيلة.

كأول مدير لفرع تشيكا INO وكسفير الآن، فإن دكانوزوف كان من حيث المبدأ رجل الساعة، في وقت كان فيه الاتحاد السوفياتي بأمس الحاجة، وأكثر من أي وقت مضى، للوقوف على أخبار ألمانيا. غير أنه لم يكن لديه شيء من تريليسر Trilisser وأرتوزوف أو حتى من سلوتسكي. إن ستالينيته المتملقة وعقليته المتآمرة وجهله بالعالم الخارجي، كل ذلك جعل منه شريكًا في أسوأ كارثة تلقاها الاتحاد السوفياتي في مجال الجاسوسية.

وخلال السبعة أشهر الأولى من عمله في برلين، اهتم دكانوزوف، مثل ستالين، بمؤامرات بريطانيا، أكثر بكثير من اهتمامه بالمؤامرات الألمانية الفعلية. ورغم بعض الحوادث لم توح له العلاقات الجرمانية السوفياتية بما يدعو للقلق. واستمر تدفق البترول السوفياتي يغذي أكثر الحرب الجرمانية، وتابعت الآليات الألمانية سيرها نحو الشرق. وفي كانون الثاني ـ يناير ١٩٤١، اشترى الاتحاد السوفياتي من ألمانيا منطقة سويالكي Suwalki البولونية بسبعة ملايين ونصف المليون دولار من الذهب. مع بداية هذه السنة بالذات وجه هتلر رسالة إلى ستالين: بما أن ألمانيا الوسطى والغربية "قد قصفتها إنكلترا بكثافة وتحت إشراف طيرانها، فإنني أجبر نفسي على نقل وحدات

---

١ - Hanner Milan, Hitler: Achronalogy of His Life and Times, Macmillan (London,1983) P. 156.

مهمة نحو الشرق لتعزيز عملية برباروسا"... التي لم يجد من الضروري ذكرها.

شكلت مناطق البلقان بؤرة التوتر الرئيسية بين الألمان والروس نتيجة التقدم الألماني الذي جعل السوفيات يحتجّون رسميًا في عدة مناسبات. وفي ٦ نيسان - إبريل ١٩٤١ تم توقيع معاهدة بين السوفيات ويوغوسلافيا ذات عبارات غامضة. وقد استقبلت الصحافة الروسية هذه المعاهدة بالتهليل والتطبيل، ذلك أنها لم تلحظ أي دعم عسكري. وفي اليوم الثاني شنت ألمانيا هجومًا خاطفًا على يوغوسلافيا، التي لم يعد أمامها سوى إنهاء المعارك بعد ثمانية أيام. ورغم احتجاجات الاتحاد السوفياتي، حرص ستالين على أن لا يبدو مهانًا. ومنذ توقيع الاتفاق الألماني ـ السوفياتي بلغت الإمدادات الروسية لألمانيا بالمواد الأولية أقصى حد لها في شهر نيسان - إبريل هذا: ٢٠٨,٠٠٠ طن من الحبوب، ٥٠,٠٠٠ طن من المازوت، ٨,٣٠٠ طن من القطن، ٨,٣٤٠ طن من المعادن. وتخلت روسيا كذلك عن ٤,٠٠٠ طن من الكاوتشوك اشترتها من الشرق الأقصى، وشحنت إلى ألمانيا في قطار عبر سيبيريا. وبمناسبة احتفال أقيم لوداع وفد ياباني غادر موسكو في منتصف نيسان ـ إبريل، ظهر ستالين مسرورًا جدًا مع شيلانبرغ Schulenburg والآخرين من الحضور. حتى أنه ربت على ظهر ملحق عسكري أخذته المفاجأة، وقال له: "سنكون أصدقاء كبارًا!" وأثناء استعراض الأول من أيار ـ مايو العسكري في موسكو، احتفظ لدكانوزوف بمقعد شرف إلى جانبه على المنصة فوق ضريح لينين في الساحة الحمراء[١].

راغبًا في تفادي "التحديات" التي تجازف بإغاظة هتلر أو بالضرر بالاتفاق الجرماني - السوفياتي، فرض الديكتاتور على عمل الاستخبارات في ألمانيا قيودًا لم

---

١ - Gilbert Martin, The Second World War, Weidenfeld (London,1989), P. 179; Tolstoï, Stalin's Secret war, PP. 209-212.

تفرض في أي مكان آخر. إن إحدى الأولويات التي فرضها على مفوضية الشعب NKVD وعلى وكالة الاستخبارات السوفياتية العسكرية GRU في برلين هي، ببساطة، اكتشاف سر نجاح هتلر: "هذا الذي يسهل أمر الحزب النازي، كيف استطاع جعل أكثرية أوروبا القوية بين يديه؟" وقد أُبلغ إسماعيل أحمدوف، الضابط في الـ GRU المرسل إلى برلين في خريف ١٩٤١، عَبْرَ رئيسه، أن ستالين "يحاول أن يعرف وعلى وجه الخصوص من أين استمد هتلر قوته"، وقد طُلب إليه وضع "تقارير موضوعية ونزيهة عن هذا الموضوع"... أمّا الأولوية الثانية عند مفوضية الشعب فكانت مراقبة عمل وكالة الاستخبارات السوفياتية العسكرية GRU. وإن أحمدوف استنتج، وهو على صواب، أن كوبولف يحاول ببساطة معرفة خطأ ما قد يرتكبه ويرتد عليه في ما بعد. وقد اشتملت مراكز وكالة مفوضية الشعب NKVD على غرفة مجهزة، خصوصًا، لاستجواب وتعذيب وتصفية "أعداء الشعب" الموجودين في السفارة وفي المستعمرة السوفياتية. وقد اكتشفت هذه الغرفة عندما أخلى السوفيات هذه الأمكنة بعد الغزو الألماني. وكان دكانوزوف المسؤول العام عن عمليات مفوضية الشعب NKVD ووكالة الاستخبارات العسكرية Gru يحكم السفارة مثل "قيصر صغير". ويتذكر أحمدوف موقفه خلال الاجتماعات: "كان يعدِّد المهمات المطروحة والمسائل الواجب معرفتها، ثم يصرفنا بلهجة قاطعة... وكل هذا المشهد كان لكي يظهر لنا أنه هو السيد".

وها هم السوفيات يتعاملون مع الجاسوسية بقسوة منذ قضية السفارة في برلين. ذلك أن مفوضية الشعب NKVD لم تستخدم، على ما يبدو، عملاء يتمتعون بأفق حقيقي شامل. فهذا مندوب وكالة الاستخبارات العسكرية GRU في الوفد التجاري، "ألكسندر أردبرغ"، الذي سيظهر ثانية باسمه الحقيقي: سيرجيو كودرياتسيف

Sergeökoudriatsev، في البلاد البعيدة مثل كندا وكامبوديا، ها هو يكتفي بأن يجند تواطؤًا بعض الشيوعيين في المقاومة السرية، وهم أنفسهم كانوا متحمسين لتشكيل شبكتهم الخاصة وإقامة اتصال عبر وسيط هو "رودولف فان شليها"، الدبلوماسي الألماني المتطوع في فرصوفيا عام ١٩٣٧. أما المجندان الرئيسيان الملتحقان به من بين الشيوعيين السريين فهما "أرفيد هارناك" و"هارّو شيلز بوازن Harro Schulze-Boysen"، وكان الأول المولود عام ١٩٠١، ابن مؤرخ مشهور وابن شقيق لفيلسوف أقل شهرة، اعتنق الماركسية في العشرينات، وقد التقى خلال زيارة للاتحاد السوفياتي عام ١٩٣٢ "كيبزينين Kuusinen" و"بياتنيتسكي"، قبل التعاون مع العناصر السرية في الكومنترن. وعام ١٩٣٣، دخل في وزارة الاقتصاد الألمانية وتدرّج حتى مركز Oberregie-Rungsrat. أما اتصالاته بالاستخبارات السوفياتية فبقيت متقطّعة حتى جنّده أردبرغ نهاية عام ١٩٤٠. وقد قال عنه، في ما بعد، مقاوم شيوعي آخر، هو رينولد شونبرن Chanbrünn إنه: "متعصب، صلْب ومحترف، ورائع كذلك بنشاطه وفعاليته. فلم يكن هارناك لطيفًا أو جذّابًا بشكل خاص. كان رصينًا دائمًا، تنقصه الدعابة، وكان يصيبنا، نحن زملاءه، الإزعاج بحضوره. هناك نزعة طهرية لدى هذا الرجل ذي العقل المحدود والمبدئي، غير أنه كان مخلصًا إلى أبعد الحدود"...

أما شولز ـ بوايسن Schlze-Boysen، الرجل الآخر الذي جنده أردبرغ، فقد كان شخصية شديدة الاختلاف. وكان ليوبولد تربر، قائد الأوركسترا الحمراء خلال الحرب، يرى فيه "الشخص المتحمس ذي الرأس الحامي، المختلف تمامًا عن آرفيد هارناك، الرجل الرصين والمفكّر". ورغم أصوله الأرستقراطية، فإن شولز ـ بوايسن أصبح شيوعيًا عام ١٩٣٣، في الرابعة والعشرين من عمره. اعتقل لمدّة قصيرة بعد وصول النازيين إلى السلطة، غير أن عائلته بذلت كل ما في وسعها للإفراج عنه. وقد

أتـاح لـه نفـوذ عائلتـه أن يعمـل كضـابط استخبارات فـي وزارة الطـيران وفـي دوائـر غورنغ. وإن تقريـرًا لاحقًـا مناهضًـا للجاسوسـية يحـدد بدايـات "نشـاطاته كخـائن" عـام ١٩٣٦. وهكذا زوّد السفارة السوفياتية في برلين، عن طريق وسيط، بـالخطط السـرية العسكرية ضد الحكومة الجمهورية الإسبانية. على كل حال لم يجرِ تجنيده عميـلاً فـي وكالة المخابرات العسكرية السوفياتية إلا مع بداية العام ١٩٤١ عندما قدمه هارناك إلى أدبرغ...

مـن بيـن العمـلاء الذيـن جنّدهم شـولز ــ بوايسـن بفضـل اتصالاتـه مـع وزارة الطـيران، يـبرز كولونيـل لايفتويـف Luftwaff أرويـــن جرتـــس Erwin Gehrts، أحد مسؤولي تدريـب الضبـــاط وهورسـت هيلمــان، المجنّـد عـام ١٩٤١ فـي سـن الثامنـة عشـر فـي شـعبة الشـيفرة فـي قيـادة الأركـــان، مـع حـق فـي الدخـول علـى اتصــالات أبويـر Abwehr ، وليوتنـــان لايفتـوف هربـرت غولنـوي، القـائد اللاحـق الـذي نظّـم عمليـات إسـقاط المظليين خلـف الخطـوط السـوفياتية؛ وفـي أيـار ــ مـايو وحزيران ـ يونيو، زوّد أدبرغ هارناك وشولز ـ بويسن بأجهزة إرسـال لتوزيعهـا علـى فرقهم من العملاء... ولم يعمل أي جهاز. فبعد هجوم ألمانيـا علـى روسـيا، كـان علـى هذين العميلين إرسال المعلوماته بالبريد عبر بلجيكا واسكنديناڤيا ومـن هنـاك يتـم نقلهـا إلى موسكو...

لم تتقن شبكة هارناك ولا شبكة شولز ـ بويسون بطريقة أرثوذكسية قواعد المهنـة. فقد ألم الكثـير مـن العمـلاء بنشـاطاتهم الخاصـة وواصلـوا العمـل سـوية فـي المقاومـة الشيوعية وحالت القيود، التي فرضها ستالين على عمل المخابرات في ألمانيا، دون أن يقوم كل عميل بمراقبة ذاتية ودون إنشـاء شـبكات تجسـس قويـة ومفصولـة تمامًـا عـن المقاومة السياسية للنازية.

ولم يُطوِّر أردبرغ شبكتي هارناك وشولز بويسون، إنما حافظ على اتصاله مع "رودولف فان شليها" المنقول في آب ـ أغسطس ١٩٣٩ من السفارة إلى وارسو فرع المعلوماتية في وزارة الشؤون الخارجية. وبفضل حضوره اليومي اجتماعات قادة الفرع في الوزارة، كان "شليها" قادرًا على إعلام موسكو بالقنوات الكبرى للسياسة الخارجية النازية. وقد نجحت "إيلس ستوب Ilse Stöbe" عشيقة رودولف هرنستاد، عميل فون شليها في فرصوفيا، في الحصول على مركز في دائرة الصحافة في الوزارة؛ وتلك حجة رائعة أتاحت لها، وبانتظام، لقاء ممثل وكالة تاس في برلين. وكان هذا ينقل بدوره المعلومات من "شليها" إلى السفارة السوفياتية حيث يتولى أمرها غالبًا أدبرغ. لقد كان "شليها" لا ينظر إلا إلى مصلحته المالية، إذ إن ستوب أمدّته في شباط ـ فبراير ١٩٤١ بمبلغ ٣٠,٠٠٠ مارك. وإنّ إيلس ستوب الخاضعة لتوتر أقوى من شليها، أصيبت بمرض زهري وفقدت بالتدرج صحتها....

بعد هزيمة فرنسا وبلجيكا والبلاد المنخفضة، بدأت شبكة "تربّر" تقديم معلومات من الطراز الأول حول تحركات الفرق الألمانية. ركز "تربّر" مركز قيادته في باريس المحتلة وأنشأ مشاريع جديدة أتاحت له غطاءًا تجاريًا: "سيمسكو" في بروكسل و"سيمكس" في باريس... بمكاتبها الموجودة في الشانزليزيه، كانت السيمكس على علاقة محدودة مع المركز الباريسي، القريب جدًا، لمنظمة "تودت Todt" التي كانت تقوم لصالح الـ"ورماشت Wehrmacht" بكل أشغال البناء والتحصين. وقد حصل تربّر بواسطة "ليدويغ كانز Ludwig Kainz"، وهو مهندس من هذه المنظمة معادٍ للنازية، نُقل إلى وكالة الاستخبارات السوفياتية العسكرية GRU، حصل في ربيع عام ١٩٤١، على أول إخطارٍ حول قرب حدوث عملية بربوروسًا. وقد تلقت موسكو في ما بعد تحذيرات متزايدة عن الاستعدادات لهجوم ألماني.

أما ضابط المخابرات الذي كان ستالين يناقش معه عادة هذا التهديد فكان الليوتنان ـ جنرال فيليب إيفانوفيتش غوليكوف، الذي أصبح، في تموز ـ يوليو ١٩٤٠، مديرًا لوكالة الاستخبارات العسكرية السوفياتية GRU وهو في سن الأربعين، والتي حلت محل المديرية الرابعة منذ الحرب. ولم يكن غوليكوف أبدًا رجل الساعة. ومع أنه أُختير لصلاته السياسية وفعاليته العسكرية، التي أقام الدليل عليها على رأس الجيش السادس خلال غزو بولونيا، فهو لم يتقلّد أبدًا أي مركز في دوائر الاستخبارات في الجيش. وهذا هو المنشق اللاحق "إسماعيل أحمدوف"، الذي عمل في خدمته، يكتب عنه: "رغم بزته المتألقة كليوتنان ـ جنرال في الجيش الأحمر، فلم تكن له الشخصية المهيبة. لقد كان قصير القامة (١،٥٥م) سمينًا بصلعة كاملة... وذا وجه محمرّ بصورة بشعة. إن قوة هذا الرجل تظهر في عينيه. فليس في حجمهما ما هو خارق، إنما لهما زرقة البولاد وثاقبتان بفظاعة عند التحديق بأحدهم"..

قدّم غولوكوف لضباطه مهمة تطوير "فهم وتعاون مشترك" مع مفوضية الشعب NKVD. وقد فسّرت الوكالات التابعة لوكالة الاستخبارات العسكرية السوفياتية GRU هذه العبارة كأمر للقبول بإشراف الأقوى أي مفوضية الشعب. وفي أيلول ـ سبتمبر ١٩٤٠، أعلن، خلال اجتماعٍ لقادته في قسم العمليات، أنه تلقى من ستالين ومالانكوف توجيهًا بمتابعة عملية تطهير الوكالات التابعة لوكالة الاستخبارات العسكرية السوفياتية GRU: "إنّ الكثير من العملاء أمضوا وقتًا طويلاً في الخارج، وكان لديهم العديد من الاتصالات ويمثلون إذن مخاطر عديدة على الأمن". وكان أحمدوف أحد قادة القسم المولجين بتنفيذ هذا التطهير، فتصفّح بسرعة الملفات مفتشًا عن ضحايا: "كان بإمكاني أحيانًا إيجاد تعيسي الحظ الذين ارتكبوا فعلاً هفوات أو أخطاء تستحق اللوم،

والمعرضين للطرد في أيّ لحظة. إنما، كان عليّ، على العموم، اعتماد حجة علاقاتهم الجيدة مع الغرب".

وبعد حديث طويل مع ستالين في كانون الأول ١٩٤٠، جمع غولوكوف مساعديه من أعلى المستويات. وقد عبَّر الكلام الذي أبلغه لهم عن ستالينية الدوغماتية إنما الملتهبة ومفهومه المختلف عن العلاقات الدولية. ووصف الاتفاق الجرماني ـ السوفياتي كأمر مؤقت، "تتاجًا لعبقرية رفيقنا ستالين الجدلية". ومع ذلك كانت مخاطر هجوم ألماني ما ضعيفة: ستصبح بريطانيا ـ العظمى، مثل فرنسا، مهزومة في الحال وتوزع امبراطوريتهما على ألمانيا واليابان. أما الولايات المتحدة، "قلب الرأسمالية التقليدية" فستهاجم حينئذٍ ألمانيا في محاولة لإنقاذ الامبراطورية البريطانية من الانهيار الكامل. "في غضون ذلك، ينتظر الاتحاد السوفياتي، بفارغ الصبر، الوقت الذي يقوم فيه بدوره، وعندما يتم إنهاك الرأسماليين... سنحرر العالم"...

مع أن أغلبية أخبار الدوائر السوفياتية عن عملية برباروسّا مصدرها وكالة الاستخبارات العسكرية GRU، فإن مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD وابتداءًا من ١٩٤١ مفوضية الشعب لأمن الدولة NKGB التي أنشئت مؤخرًا، تكون كذلك على علم بها. وفي ٣ شباط ـ فبراير ١٩٤١، كان قد تم في الحقيقة فصل قسم الأمن واستخبارات مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD ـ وقديمًا المديرية الموحّدة لأمن الدولة OGPU ـ عن وكالة الاستخبارات العسكرية السوفياتية واتخذت اسم مفوضية الشعب لأمن الدولة NKGB (Narodny Komisariat Gosudars Tennoy Bezopasnoti). وقد قاد هذه المفوضية عضو آخر من مافيا بريا الجيورجية هو "فسفولود نيلولايفيتش مركولوف". وبعد عمله من سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٣١ في تشيكا، ثم في المديرية السياسية الموحّدة لأمن الدولة OGPU، أُلحق، وخلال سبع

سنوات، في خدمة الحزب في جيورجيا، قبل أن يصبح مساعد بريا الأول عام ١٩٣٨. وخلْف ستالينية مركولوف الدوغماتية والفجة تكمن بقايا متحللة لتشيكي مثالي كان قد ضحّى بكل مبدئه تقريبًا ليعيش في الإرهاب الستاليني. لقد كان على اقتناع، مثله مثل ستالين، أنه "عاجلاً أم آجلاً ستقع المواجهة بين الدب الشيوعي وكلب البولدوغ الغربي... إن مثلنا الأعلى الفتي، المعافى والقوي اجتماعيًا، مثل لينين وستالين الأعلى، سينتصر، ذلك ما أعلنه"[١]. لقد كان المؤلف لسيناريو فيلم في "سبيل مجد ستالين"، وفيه يقود البطل والبطلة، المنتصران على الشرور الرأسمالية، الدراسة الجديدة لتعاونهما في توهج مغيب الشمس السوفياتية. أما رجل الدولة الهنغاري "نيقولا نيارادي"، الذي فاوض مركولوف بعد الحرب فيرسم اللوحة التالية: "مفارقة حقيقية: رقة كبيرة وقسوة متوحشة في آنٍ واحد؛ رصين حتى العمق حتى في اللحظة التي يمازح فيها. إنه صبور مثل أيوب، ومع ذلك فهو يدخن ٤٠ أو ٥٠ سيجارة دون توقف خلال يوم العمل... إنه يتمتع بشخصية بحيث أن السفراء الروس يجمدون في حضوره. مرتاب دائمًا، يتكلم بضحكة خجولة على الشفاه. إن مركولوف هو الشخص الذي قاد شخصيًا بعد الحرب، عملية تصفية مليوني استوني وليتواني ومن لتون Lettons دون شفقة أو رحمة. غير أنه، وكوغد يسكب الدمع مدرارًا منشدًا أغاني تنويم الأطفال، يتمتع بعاطفة روسية نموذجية في موضوع الأطفال. وعندما توطدت معرفتي به، عرض أمامي والدمع يملأ عينيه، صورة ابنه في لباس الجندية"[٢].

---

١ - Krasnov N.N., *The Hidden Russia: My Ten Years as a Slave Labourer, Holt,* Rinechart (New york,1960), PP. 67.

٢ - Nyaradi Nicholas, My Ringside Seat in Moscow, Growell (New York,1953), P. 56.

ورغم "ذكائه النادر"، ودائمًا حسب نيارادي، بقي أمينًا في علاقاته بستالين لمبدأ "شمشم، لَحْوِس، وانج بنفسك Ougadat, Ougodit, Outselet".

وداخل مفوضية الشعب لأمن الدولة NKGB التي أنشئت حديثًا، جرى ترفيع فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO إلى مديرية وأصبح يعرف بـ Inostrannoye Upravlenie. (INU) أما المدير الشاب لـ INU، "بأفل ميخائيلوفيتش فيتين"، فقد كان آخر مسؤول لفرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO بعد دكانوزوف عام ١٩٤٠. ويعتبر الأكثر جدارة بين مجموعة من مئتي شاب شيوعي من الجامعة، ووقع عليهم اختيار اللجنة المركزية نهاية عام ١٩٣٨ ليخلفوا ضباط مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD الذين تمت تصفيتهم... ورغم حذره الشديد، كان لديه ميل إلى حب الظهور أقل رضوحًا من مركولوف Merkoulov في رغبته أن يُخضع للتحليل المعلومات المرسلة إلى ستالين. وحدها صورة فيتين، باستثناء صور أسلافه في قيادة فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO، مثل سلوتسكي وشبيجلغلاس ودكانوزوف، أصبحت الصورة معلقة، مع لمحة تقريظية، على أحد جدران صالة الذكرى في المديرية الأولى.

كان فيتين يتلقى تقارير من وكالة الاستخبارات السوفياتية العسكرية GRU ومن وكالات مفوضية الشعب لأمن الدولة NKGB، إنما كان يتمتع وحتى الغزو الألماني في ٢٢ حزيران ــ يونيو ١٩٤١ بنفوذ أقل من نفوذ غوليكوف، مسؤول وكالة "الاستخبارات السوفياتية العسكرية GRU"، فلا هو ولا غوليكوف يتمتعان بما يتمتع به ستالين من قدرة على تقويم التهديد الألماني. أما كاتب سيرته السوفياتي، ديمتري فولكوغونوف فيستنتج أن "ستالين كان يؤمن وحتى آخر لحظة بحدة ذهنه وقدرته على التنبؤ". وهذه الثقة بنفسه أدّت به إلى رفض كل المعلومات الغير متوافقة مع نظريته

في المؤامرة الأنكلو ـ ساكسونية. وتقدّر دراسة مفصّلة نشرت عام ١٩٧٣ أن موسكو تلقت ٨٤ "إنذارًا" متواصلاً عن مشاريع الغزو الألماني. إن عملاً مشابهًا الآن قد يؤدي دون ريب إلى مجموع يفوق المئة. وبعد الحرب، أكّد غوليكوف على أن "الدوائر السرية في الجيش السوفياتي تتصرف بمصادر أمينة ومجرَّبة للحصول على معلومات موثوقة حول سلسلة من البلدان ومن بينها ألمانيا بالذات". والظاهر أنه وضع كل الأخبار المتعلقة بهجوم ألماني في الدرجة الثانية. ويبدو أن فيتين كان أقل ارتيابًا وحتى أنه ادّعى في ما بعد أنه كان قد أعدَّ تقريرًا حول المصادر الصادقة، رفض مركولوف التوقيع عليه والخضوع لستالين. وقد يكون مركولوف قد أضاف: "أن لدينا هناك في الأعلى شخصًا، أي ستالين، يتقن تحليل المعلومات أفضل منّا".

في ٢١ أذار ـ مارس ١٩٤١، وجه غوليكوف تقريرًا حول سلسلة إنذارات الدوائر السرية في ما يتعلق بالمشاريع الألمانية، غير أنه استنتج أنَّ هجومًا كهذا بعيد الاحتمال ما دامت ألمانيا لم تهزم إنكلترا أو لم تعقد السلام معها! "أما الإشاعات والملفات التي تميل للقول إن حربًا ضد الاتحاد السوفياتي واقعة لا محالة في الربيع فهي معلومات مغلوطة مصدرها الدوائر السرية الإنكليزية أو ربما الألمانية"، وقد ادعى في ما بعد المارشال جوكوف، بصفته قائد الأركان، أن ستالين وحده كان على علم بتقارير غوليكوف: "فهو لم يتكلم عنها لأي إنسان ولا حتى لقائد الأركان ومفوض الدفاع، المارشال تيموتشنكو". ولا هذا الأخير كان على علم بالكثير من المعلومات المتعلقة بهجوم ألماني محتمل. وقد أدين غوليكوف من قبل مؤرخين سوفيات مثل فياشسلاف داشيتشيف لأنّه كان قد كتب تقاريره "بهدف وحيد هو إرضاء ستالين". ويبدو مع ذلك أن تقاريره اعتمدت على اعتقاده بقدر اعتمادها على تملقه. لقد تم تعيينه في قيادة وكالة الاستخبارات السوفياتية العسكرية GRU في تموز ـ يوليو ١٩٤٠، رغم النقص

في تجربته في مجال الاستخبارات، إذ إنه كان ستالينيًا مقتنعًا، ومؤمنًا بمؤامرة بريطانية مدبّرة لمواجهة ستالين بهتلر.

لقد عززت محاولات تشرشل لفضح نوايا هتلر أمام ستالين ظنون هذا الأخير في موضوع مؤامرة بريطانية. لقد كان يرتاب بقوة في رئيس الوزراء أكثر من ارتيابه في أي رئيس دولة غربية آخر، إذ إنه احتفظ بذكرى العبقرية السيئة التي نصحت بحملة ضد البلشفية أثناء الحرب الأهلية والتي حاولت عرقلة المحادثات بهدف اتفاق تجاري إنكليزي روسي وقامت بحملة عام ١٩٢٧ داخل مجلس العموم البريطاني لصالح قطع العلاقات الدبلوماسية. ومنذ عودة تشرشل إلى السلطة، كان ستالين على يقين أن هذا يحيك مؤامرة ما جديدة ضد الاتحاد السوفياتي.

ولا ريب في أن أول إنذار جدي عن خطة هجوم ضد الاتحاد السوفياتي كان قد ظهر في رسالة وجهها تشرشل إلى ستالين مؤرخة في ٢٥ حزيران ـ يونيو ١٩٤٠ وسلمها باليد في أول تموز ـ يوليو السفير البريطاني الجديد السيد ستافورد كريبس. ولم يعتمد التحذير حتى الآن على معلومات سرية بل على حكم واضح عن استراتيجية هتلر المقبلة. وقر رأى ستالين في هذه الرسالة البرهان ليس عن مؤامرة ألمانية بل عن مؤامرة بريطانية لإشعال حرب جرمانية ـ سوفياتية. وبناءًا على أمر ستالين، أبلغ مولوتوف شيلنبيرغ Schulenburg، سفير ألمانيا ملاحظة يعلمه فيها بوجهة النظر الإنكليزية. وهكذا نقل ستالين مجموعة التحذيرات الإنكليزية والأميركية، ستالين الذي كان يخشى ولا ريب إدانته بالتواطؤ مع العدو إذا لم يقم بهذه المهمة[1].

١ - Whaley Barton, *Codeword Barbarossa,* Mass. M. I. T Press (Cambridge,1974), PP. 2 -25; Gordosky Gabriel, *Stafford Gipp's Mission to Moscow 1940-1942,* (Cambridge University Press,1984), ch. 2.

ابتداءًا من أيلول ـ سبتمبر ١٩٤٠، حصلت مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD على معلومات في غاية الأهمية عن السياسة البريطانية، عندما أصبح جون كارنكروس Cairncross السكرتير الخاص للورد هانكي Hankey، في حين أنه كان مستشار الدوق لانكستر. لقد كان لهانكي من التجربة مع الحكومة ولجان الوايت هول Whitehall أكثر من أي رجل دولة بريطاني آخر. لقد كان سكرتير لجنة الدفاع الامبراطورية من عام ١٩١٢ حتى عام ١٩٣٨، وسكرتيرًا للحكومة وعضوًا في عدة لجان بين عامَي ١٩١٦ و١٩٣٨. وعندما انفجرت الحرب في أيلول ـ سبتمبر ١٩٣٩ أصبح وزيرًا دون حقيبة في حكومة الحرب برئاسة شامبرلين، وارتبطت به الدوائر السرية، التي كتب عنها تقارير مطوّلة. وعندما خلف تشرشل شامبرلين في أيار ـ مايو ١٩٤٠، فقد هانكي مركزه في وزارة الحرب، التي لم تتألف في البداية إلاّ من خمسة أشخاص، إنما احتفظ بمكانته كوزير بصفته مستشارًا للدوق لانكستر. فتابع استلام كل أوراق الحكومة، وترؤس عدة لجان سرية والإشراف على دوائر الاستخبارات. .

بصفته سكرتيرًا خاصًا لهانكي، كان يمر بين يدي كارنكروي عدد هائل من الملفات لم ينقل منها سوى جزءٍ ضئيلٍ لمفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD. غير أن ديميتري شفتانكو مدير الشؤون البريطانية للمحور في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات، أكد على موقف غورديفسكي بأن كارنكروس كان قد جهّز "أطنانًا من الملفات". ولا ريب في أن الأولى من بينها تشكل ثلث التقرير عن سنتين من "التنبوءات عن الحرب"، والمؤرخ في أيلول ـ سبتمبر ١٩٤٠، وفيه يقدّر هانكي عن حق أن خطط الغزو الألمانية لبريطانيا العظمى ستفشل وتستبدل بحرب تحت البحار.

من بين اللجان التي ترأسها هانكي، كانت اللجنة العلمية الاستشارية، ولا ريب، الأكثر فائدة لمفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD، وقد تألفت من بعض رجال

العلم البريطانيين الأكثر شهرة، عقدت اجتماعها الأول في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٤٠، بهدف تنسيق التقدم العلمي مع المجهود الحربي. وقد راقب كارنكروس Cairneross عن قرب دخول هانكي عالم ملفات وزارة الحرب المصنفة "Top secret". وعندما يضيّق تنظيم جديد ولوجه عالم البرقيات الدبلوماسية، كان يتذمَّرُ شخصيًا مع هانكي، من "المكتب الخارجي Foreign Office" وقد طبقت هذه التدابير في فترات قصيرة جدًا.

لقد كان متوقعًا للمعلومات المأخوذة من ملفات وزارة الحرب والأخبار التي يرسلها كارنكروس وعملاء سوفيات، أن تقنع ستالين بأن تشرشل لا يحضِّر بمكيافلية مؤامرة للإيقاع بينه وبين هتلر، بل كان يعتقد صادقًا بخطورة غزو ألمانيا للاتحاد السوفياتي. وفي ٣ نيسان ـ إبريل، وجه تشرشل رسالة مستعجلة إلى ستالين لإبلاغه عن استعدادات الغزو الألماني: لقد استمدّ معلوماته من حل رموز الرسائل الألمانية، وزعم أن المطروح "خبر مؤكد، مصدره عميل موثوق تمامًا". وقد كتب تشرشل في ما بعد: "إنّ المفروض أن تكون هذه الرسالة غنية بالمعاني وتلفت نظر ستالين". أما كريبس، السفير البريطاني الحانق عن حق من أن يعتبر ستالين الرسالة مجرّد تحريض، فقد أغاظ رئيس الوزارة بعدم تسليمه الرسالة لفيشنسكي Vychinsky، المسؤول عن نقلها إلى ستالين، إلا في ١٩ نيسان ـ إبريل. وكانت ردة ستالين كما توقع كريبس تمامًا وقد حزن هذا في ما بعد على موقف السوفيات: "فإلى جانب ستالين، كان مولوتوف يتجنبني كذلك كما يتجنب الطاعون. كان ستالين يتفادى أيّ علاقة مع تشرشل، خشية لفت نظر الألمان"[1].

---

١ - Churchill Winston S., *The Second World War*, vol. III Cassell (Londres,1950) PP. 319 -323.

كان لدى ستالين ميل لاعتبار كل حذر إزاء غزو ألماني، مهما كان مصدره، على أنه البرهان الإضافي عن مؤامرة بريطانية معيّنة. وفي ١٧ نيسان ـ إبريل، أبلغ المندوب المقيم لوكالة الاستخبارات السوفياتية العسكرية في براغ أن هتلر يحسب للقيام بهجوم خلال النصف الثاني من حزيران ـ يونيو. وقد اعتمد على خبر يقول بأن المهندس المسؤول عن مصانع سكودا Skoda، وهو مصدر كان قد أعطى البرهان عن فعاليته، كان قد استقبل في تشيكوسلوفاكيا ضباطًا ألمان من رتب عالية. أما التقرير الموجه إلى ستالين مع إشارة خاصة عن مصدره، فقد أعيد مع هذه الكلمات باللون الأحمر: "تحريض إنكليزي. قم بإجراء تحقيق! ستالين".

وكان الألمان يحاولون كذلك تعزيز إيمان ستالين بمؤامرة بريطانية سوداء. وقد اعتمدت إحدى الخدع التي تستعملها القيادة العليا لإخفاء الاستعدادات لعملية برباروسّا على تمرير إشاعات الهجوم "على أنها محاولة تشويش بريطانية". وبدت نظرية المؤامرة أكيدة من خلال هرب رودولف هس، بالعروف بأنّه ليوتنان هتلر المجنون، إلى أيكوسيا في ١٠ أيار ـ مايو ١٩٤١. ومن المفترض أن الهارب وقع تحت النفوذ القوي لكارل هوشوفر Karl Haushofer، أستاذ الجيوبوليتيكا الكبير، الذي كان يزيّن منذ عدة سنوات تحالفًا إنكليزيًا ألمانيا ضد الاتحاد السوفياتي.

حائرة من وصول هس غير المتوقع والغريب، لزمت الحكومة البريطانية صمتًا مريبًا ساهم بتغذية الظنون السوفياتية. وظهر ستالين "مقتنعًا بأن إنكلترا تدفع ألمانيا لمهاجمة الاتحاد السوفياتي وأن المفاوضات السرية تجري في لندن على أساس مقترحات هس".

وفي الحقيقة، فإن هذا لم يصرح البتة عن مشروع بارباروسّا: فقد أكد على العكس أن "لا شيء يبرر الإشاعات القائلة بأن هتلر يفكر بهجوم على روسيا في المستقبل".

إن مهمته، كما أعلن، هي من أجل إحلال السلام بيـن بريطانيـا العظمـى وألمانيـا. وقد ارتاب كلّ من الدولتين عن صواب، بصحته العقلية، لكن ستالين لم يحذ حذوهما.

مـع أن نظريـة "المؤامـرة البريطانيـة" لعبت دورًا رئيسيًا فـي عقـل سـتالين حتـى انفجار عملية باربروسًا، فقد اشتبه أكثر فأكثر بمؤامرة ألمانية، إنما دون أن يفكّر على كل حال أن ثمة هجومًـا مفاجئًـا. وعـززت شـكوكه بـالإنذار الغريـب الـذي قدمـه سـرًا الكونت فون در شـولانبرغ Schulenburg، سـفير ألمانيـا. وفـي الأول مـن حزيـران ـ يونيو ١٩٤١، دعا هذا الأخير دكانزوف، بمناسبة مروره في موسكو، للغداء فـي مقـر إقامته. وكان إلى المائدة مدعوان آخران فقط: غوستاف هيلجر، مستشار السـفير وف. ن. بافلوف، مترجم ستالين ومولوتوف. وقد أكّد هيلجر في ما بعـد علـى أن شـولانبرغ أعلم دكـانزوف، فـي هـذه المناسبة، بمشـروع الهجـوم الألمـاني المفـاجئ. إن أكثريـة مؤرخـي الــ Establishment السـوفياتية، إنمـا ليـس كـل المؤرخيـن عمومًـا، مـن عهـد بريجينيف يعارضـون هذه "البدعة الكاذبة".

في عام ١٩٨٨ نشـرت جريـدة سـوفياتية حكايـة عـن هـذا اللقـاء، كتبهـا بعـد ذلـك بعشرين سنة ضابط الـ KGB "إرنست هنري"، وترتكز على حوار مـع بـافلوف. يؤكـد هذا التقرير على فرضية إنذارٍ قدمه شيلانبرغ Schulenburg. وتضيـف مقالـة للمـؤرخ "جورجي كومانيف" عام ١٩٨٩ في البرافدا، بعض الإيضاحات التي تم الحصول عليها بفضل "أنستاز ميكويان". ولعل شيلانبرغ كان قد قال لدكانزوف: "ربما ليس هنـاك مـن أمر يشبه ما هو حاصل في السجلات الدبلوماسية، إنما سأكشف لـك سـر دولتنـا الرقـم واحد... لقد قرر هتلر أن يدخل في حرب ضد الاتحـاد السـوفياتي فـي ٢٢ حزيـران ـ يونيو. ستسألني ولا ريب لماذا أتصرف على هذا النحـو. هـذا لأنتـي قـد ربيـت داخـل عقل بسمارك، الذي كان معارضًا دائمًا لحرب ضد روسيا".

لقد ارتاب دكانوزوف بهذا التحريض، غير أنه نقل الرسالة إلى ستالين الذي أعلن في المكتب السياسيّ Politburo: "وصل التسميم الآن إلى مستوى السفارات"... وقد استنتج إرنست هنري، وله الحق في ذلك ولا ريب، أن "ستالين اعتبر الخبر الذي نقلته السفارة الألمانية مجرد خدعة من هتلر ليفرض عليه تنازلات جديدة". وبما أنه أصبح من الصعب أكثر فأكثر إخفاء تحركات الفرق في الشرق، أشاعت الدوائر السرية الألمانية عمدًا أن هتلر يحضّر لإنذار... مستندًا على عرض للقوة العسكرية مطالبًا فيه بتنازلات جديدة من الاتحاد السوفياتي. وها هو ستالين يقلق من هذا التهديد الهمايوني أكثر بكثير من الخطر الحقيقي لهجوم مفاجئ. أضف إلى هذا أنه لم يكن الوحيد المخدوع: فهناك عدد كبير من رجال الدولة الأجانب ومراسلي الصحافة استسلموا لإشاعات تفيد عن إنذار ألماني محتمل...

إن التحذيرات الأكثر جدية الموجهة إلى الدوائر السرية السوفياتية نقلها سورج ونقلتها الشبكات الألمانية كذلك. فبعد رسالتين يعلن فيهما عن هجوم نهاية أيار - مايو، أشار سورج في ١٩ أيار - مايو إلى "أن تسعة جيوش، تتضمن ١٥٠ فرقة ستتجمع للعمل ضد الاتحاد السوفياتي". وقد أعلن ستالين باستياء: "ليس سورج سوى غائط قام بأعمال تافهة في بيوت الدعارة في اليابان". واكتفت وكالة المخابرات السوفياتية العسكرية بالرد بخشونة: "إننا نشك بصدق معلوماتك". وقد شهد ماكس كلوزن عامل الراديو عند سورج وصول الرسالة. "الأوغاد"، هكذا صرخ الجاسوس، "كيف يمكنهم تجاهل معلوماتي؟"... وراح يجول الغرفة بخطوات كبيرة، ضاغطًا بقوة بيديه على رأسه حتى أن كلوزن ظن أنه على وشك الوقوع بنوبة عصبية. وخلال الشهر التالي، الذي حاول فيه إقناع موسكو بخطر لم يشأ إنسان الإيمان به... أصيب سورج بانهيار عصبي. وقد كانت عشيقته تعتبره حتى الآن رجلاً رزينًا ومحترمًا، إنما وأثناء "حوار

الطرشان هذا"، عاد يومًا نصف سكران، وأجبرها على مضاجعته في مكتبه بعنف حتى أنها غطت وجهها بيديها. ومرة أخرى، فوجئت بحبيبها ممدّدًا على أريكة، وقد خضبّت وجهه الدموع، وباح لها حينئذٍ أنه يعيش "وحيدًا".

وبناءً على المصادر الرسمية المتمثلة بمجمّلي سيرة الشخصيات السوفياتية "كان الرفيق سورج قد أعلن في ١٥ حزيران ـ يونيو، أن الحرب قد تبدأ في ٢٢ منه". ومع ذلك وبعد إلقاء القبض عليه في اليابان، لم يدّعِ أبدًا أنه أعلن تاريخًا محددًا للعدوان. لقد وصل أفضل تنبؤ له حتى العشرين من حزيران ـ يونيو. ودون أن يصرّح لسورج، تخلّى كلوزن عن أوهامه حول الجاسوسية وأصبح مكرهًا، أحد المعجبين بنجاحات هتلر. وفي وقت ما، لم يقم بنقل كل الرسائل: "كنت قد تلقيت من سورج الكثير من الملاحظات التي تعلن الانفجار الوشيك للحرب"، هذا ما أكده كلوزن بعد توقيفه، "غير أني لم أنقل منها سوى عدد بسيط. لا أذكر أني نقلت رسالة تعلن التاريخ المحدد للحرب".

وحسب مؤرخ سوفياتي مقبول من الـ KGB، أنه في مساء ١٦ حزيران ـ يونيو ١٩٤١ وصل إلى موسكو آخر إنذارين جديين عن الهجوم الألماني. ويوضح بأنهما كانا مرسلين من "شبكتين من شبكات استخباراتنا البرلينية" ـ أي شبكتي هاناك وشولز ـ بويسن ولا ريب: "لقد تم إنجاز كل الاستعدادات العسكرية الألمانية لغزو الاتحاد السوفياتي، وقد تبدأ الضربة بين لحظة وأخرى... وستلعب هنغاريا دورًا فعّالاً في الأعمال العدوانية على الجبهات الألمانية. وتم نشر أسطول جوي ألماني مؤلف بمعظمه من طائرات مطاردة في المطارات الهنغارية".

وظُهْر الغد، استدعى ستالين مركولوف وفيتين واستقبلهما وحده في مكتبه. توجه أوّلاً إلى فيتين: "مسؤول الدوائر السرية، غير مجدٍ أن تكرر أمامي التقرير الخاص،

فقد قرأته بانتباه. قل لي من أيّ مصادر تلقيته، أين تشتغل هذه المصادر، وما هي درجة الثقة بها، وكيف تهيأ لها الحصول على معلومات على هذه الدرجة من السرية". وبينما كان فيتين يدلي بجوابه، قام ستالين بمئة دورة في مكتبه، طارحًا أسئلة إضافية بالمناسبة. وعندما أنهى فيتين شروحاته، تابع ستالين ذهابه وإيابه للحظة "ماجًا" غليونه، ثم استدار نحو محدثه: "إسمع جيدًا يا مسؤول الدوائر السرية، ليس هناك من ألماني جدير بالثقة ما عدا "ويلهلم بيك Wihelm pieck"[١] واضح؟" - "نعم، واضح، رفيق ستالين"، أجاب فيتين. وقد فهم هذا الأخير جيدًا أن ستالين يظن أن المصادر البرلينية هي أعضاء في الحزب النازي وضباط في الويرماشت يمارسون تشويشًا مقصودًا. وتمنى عليه ستالين أن يتحقق من معلوماته ويقدم له تقريرًا جديدًا. وقد وضع فيتين طائعًا برقية مفصلة طالبًا من وكالة مفوضية الشعب للداخلية NKVD في برلين "إيضاحات حول بعض النقاط". ولم يكن لدى الوكالة الألمانية الوقت الكافي للرد: كان الهجوم الألماني قد بدأ...

ومن فرنسا أرسل تربّر تحذير الساعة الأخيرة. أما الجنرال سوسلوباروف، الملحق العسكري الروسي لدى حكومة فيشي، الذي نقل تقرير تربّر لوكالة الاستخبارات العسكرية السوفياتية GRU في موسكو، فبدا على العموم متشائمًا في موضوع معلوماته: "ففي كل مرة"، كما يقول تربر، "يبلغه بمعلومات بصدد الاستعدادات الحربية ضد الاتحاد السوفياتي، كان يربت على كتفي بتسامح قائلاً: أيها الهرم الدرويش، سأرسل برقياتك للتو، إنما فقط لكي ترتاح". وعندما أبلغه في ٢١ حزيران - يونيو أن الهجوم الألماني سيبدأ غدًا، أجابه سوسلوباروف: "أنت مخطئ

---

١ - ولهلم بيك (١٩٧٦ - ١٩٦٠)، أحد قادة الحزب الشيوعي الألماني القلائل الذين نجوا من الإرهاب الستاليني، بعد الحرب، أصبح نائب رئيس الحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقية ورئيس الـ RDA (N.D.E).

تمامًا. لقد قابلت الآن بالذات الملحق العسكري الذي وصل من برلين. لقد أكد لي أن ألمانيا لا تستعد للحرب. يمكننا أن نثق به". وفجر الغد، أيقظ مدير الفندق تربّر صارخًا به: "وقعت الواقعة! لقد أصبحت ألمانيا في حرب مع الاتحاد السوفياتي!".

طبعًا لقد رفض ستالين وبطانته عن سوء نية وكذّبوا بقوة نادرة صدق الإنذارات عن هجوم ألماني مفاجئ. بل إن أكثر من رئيس دولة واختصاصي بالمخابرات جرى احتقارهم بالنسبة لنوايا هتلر. وفي ٢٣ أيار ـ مايو ١٩٤١، أي قبل شهر ويوم من الغزو الألماني، أكدت لجنة الاستخبارات المشتركة اللندنية JIC كذلك على أن "نتيجة أي اتفاق مع الاتحاد السوفياتي يقدم فوائد واضحة لألمانيا".

ترتكز ريبة ستالين الشخصية إزاء تشرشل خصوصًا على معلومات وكالات التسلل التابعة للمفوضية الشعبية لأمن الدولة NKGB، وتُظهِر أن الطريقة التي واجهت بها الوايت هول التهديد الألماني ضد روسيا ليس له علاقة بصرخات الإنذار الدرامية التي أطلقها تشرشل. وحتى عندما انضمت الوايت هول على العموم، وفي بداية شهر حزيران ـ يونيو ١٩٤١، إلى فرضية هجوم ألماني، فإن فكرة إنذار ما مرتكز على تهديد بالتدخل تتفوق على فكرة هجوم مفاجئ. وفي ٢١ حزيران ـ يونيو، أي قبل يومين من بداية الغزو، استنتجت لجنة الاستخبارات المشتركة JIC البريطانية أن "هتلر قرر الخلاص من العقبة السوفياتية ومهاجمتها".

رغم كل شيء، تمتعت لجنة الاستخبارات المشتركة، JIC بحدس أقوى مما عند أكثرية المراقبين الأجانب. لقد آمنت كل الأوساط اليابانية، من القيادة العليا، إلى وزارة الشؤون الخارجية إلى السفارة في موسكو، بأن إشاعة هجوم ألماني ضد روسيا تهدف ببساطة إلى إخفاء مشاريع غزو بريطانيا العظمى. وشاءت سخرية القدر أن تُقرأ برقيات أوشيما Oshima ـ السفير في برلين، الواضحة بما فيه الكفاية في أمر التكهن

بالغزو الألماني - بانتباه أكبر في واشطن، حيث حلّت رموزها بنجاح، وليس في طوكيو. على كل حال، وحتى في واشنطن، لم يخف بعض كبار الموظفين دهشتهم عندما انفجرت عملية برباروسا في ٢٢ حزيران - يونيو.

وبشكل غريب جدًا وثق ستالين بهتلر أكثر من ثقته بالجنرالات الألمان، حتى ظنهم منتشين بانتصاراتهم المدهشة في الحرب الخاطفة. وخلال الأيام القليلة السابقة والساعات اللاحقة بعد الهجوم الألماني، أربكت نظرية مؤامرة ثالثة كذلك تقويمه للأمور، وإذ اشتبه بمؤامرة بريطانية لإجباره على مواجهة هتلر، ومؤامرة هتلرية للحصول على تنازلات عَبْرَ تقديم إنذار ما، فكر بفرضية - غير صحيحة كذلك - تحريض نسّقه جنرلات هتلر، المنتشين بانتصاراتهم. وكان، حسب الجنرال فورونوف، يؤمن "أن حربًا بين ألمانيا النازية والاتحاد السوفياتي لن تقع إلا بعد تحريض العسكريين النازيين، وأكثر ما كان يخشى تحريضات كهذه". لقد قام التحريض بدور ممتاز جدًا ضمن الرؤية الستالينية لعالم من المتآمرين. فالجميع على شاكلة الدكتاتور بالذات، لقد كان غوليكوف وبريا وأكثرية ضباط الاستخبارات السوفياتية يرون في التحريض أداة تعود إليها بالضرورة القوى الإمبريالية في مؤامرتها المتواصلة ضد الدولة السوفياتية. فإذا سمح الاتحاد السوفياتي الخضوع لتحريضات خصومه الإمبرياليين، فهو سيمارس لعبتهم ويخسر مؤقتًا الإشراف على سير التاريخ.

وبقدر ما كانت تتصاعف التقارير حول تحركات الفرق الألمانية عشية الغزو، كان ستالين يبدو حائرًا بين ضرورة وضع القوى السوفياتية على أهبة الحرب من جهة، وبين عدم الاستسلام "لتحريضات" الجنرالات الألمان من جهة أخرى. وفي ليل ٢١ - ٢٢ حزيران - يونيو، اتصل هاتفيًا بالجنرال تيولنيف Tioulenev، آمر منطقة موسكو العسكرية، ليأمره برفع حالة تأهب وحدات الدفاع الجوي إلى ٧٥٪. غير أنه صرح

بعد قليل أمام المارشال تيموتشنكو: "إننا نجن من دون أي سبب يذكر". وعندما علم أن جنديًا فارًا من الخدمة أعلن أن الهجوم سيكون غدًا، أمر بإعدامه رميًا بالرصاص على محاولته "نقل معلومات مغلوطة". وفي ٢٢ حزيران ـ يونيو، وقبل نصف ساعة من منتصف الليل وقبل ثلاث ساعات من انفجار عملية بارباروسا، أعطت أخيرًا مفوضية الشعب للدفاع الأمر بوضع القوى المسلحة في حالة تأهب؛ غير أنه لم يتم إخطار بعض الفرق إلاّ بعد بداية الهجوم. وقد ردّ على القادة الذين طلبوا الأمر بإطلاق النار على الفرق الألمانية إذا اجتازت الحدود: "لا تستسلموا للتحريض، ولا تفتحوا النار". وبعد بداية الغزو، اتصل تيموتشانكو تلفونيًا كذلك بالجنرال بولدين، القائد المساعد للمنطقة العسكرية الخاصة الغربية، لإعطائه تعليمات قائلاً له: "لا تبدأ بأيّ عملية ضد الألمان دون إبلاغنا، إن الرفيق ستالين يعارض فتح نيران المدفعية على الألمان". وصاح بولدين على السماعة: "كيف" هل هذا ممكن؟ أن فرقنا تقاتل معزولة، وهناك مدن تحترق، وأشخاص يموتون".

وقد توجب انتظار الساعة السابعة والربع صباحًا لكي تأمر مفوضية الدفاع الفرق السوفياتية بالانتقال للهجوم. وحتى ذلك الحين أصر ستالين على الاعتقاد أن ما يجري ليس حربًا، بل هو "تحريض" يقوم به الجنرالات الألمان. ولم يتم التخلي عن هذا الاعتقاد إلا عند الظهيرة...

لزم ستالين الصمت، وحده مولوتوف تناول الكلام على الراديو معلنًا للشعب السوفياتي أنه الآن في حرب مع ألمانيا. وبعد ثماني ساعات من بداية الأعمال العدوانية، حاول ستالين يائسًا أن يمنع أي "تحريض" من أن يؤدي إلى الحرب. لقد قصف وزارة الخارجية الألمانية بوابل من الرسائل عبر الراديو وحاول الحصول على "وساطة" يابانية لوضع حد "للأزمة". وخلال هذا الوقت، استولى الغازي الألماني على

جميع جسور السكك الحديدية والجسور العادية... لقد هاجم ٦٦ مطارًا، ودمر ألفًا من الطائرات في أرضها وتقدم سريعًا على جبهة من ١٥ كلم.

رغم امتلاكه شبكة جاسوسيَّة فريدة في العالم، تلقى الاتحاد السوفياتي فجر ٢٢ حزيران ـــ يونيو ١٩٤١، أسوأ كارثة في الحرب العالمية الثانية في مجال الاستخبارات. لم تكن المعلومات هي موضوع الخلاف، بل إن تحليلها واستعمالها كانا موضوع الخلاف. لقد أتاح فحص التقارير السرية في الدينهول التخلي، وبفضل نظام اللجان، عن فكرة أن ألمانيا كان لها المصلحة في التفاهم مع الاتحاد السوفياتي، وأكد هذا النظام أن هتلر يحضِّر لهجوم. أما في موسكو، فقد تم إفساد كل تقويم للمعلومات بالتملق المذعور الذي يلخصه القول المشهور: "لَحْوِس، شمشم وانج بنفسك Ougadat, Ougodit, Outselet" غير أن عيوب النظام لا تكفي لتفسير انحراف ستالين، المسؤول الأول شخصيًّا عن تفسير المعلومات. فهناك ثلاث مؤامرات حالت دون رؤية خطر الغزو الألماني الرهيب: المؤامرة البريطانية التي تريد مواجهته مع هتلر، ومؤامرة هتلر التي تُعدُّ لتوجيه إنذار له، والتحريض المزعوم للجنرالات الألمان ورغبتهم في أن يفتح النار على جيوشهم المتقدمة. وتلك مؤامرات وهمية أخفت عنه حقيقة عملية بربار وسّا. وكما سبق أن كتب الكاردينال ريتز في القرن السابع عشر: "إن الأشخاص الأكثر ارتيابًا، هم الذين يستسلمون بسهولة أكبر للفساد"[1].

---

١ ـ أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة، (بيروت،١٩٩١) ص٢٥٣ ـ ٢٨٩.

الطَّريق إلى موسكُو وستالينغرَاد

لقد كانت عملية باربا روسّا أضخم غزو عسكري في التاريخ. وقد أعلن هتلر أن الجيش الألماني La Wehrmacht سينتصر قبل بداية الشتاء. "بضربة قدم على الباب، ينهار كل هذا البناء العفن". وقد ظهر في البداية أنه قد يكون على حق تمامًا؛ فقد كانت فِرَقُهُ تتقدم ٨٠ كلم في اليوم، مكتسحةً كل ما تجده في طريقها، وأسرع بكثير من الحروب الخاطفة التي خاضتها في أوروبا الغربية. وكان على الاتحاد السوفياتي مواجهة الاحتمال الرهيب لهجوم ياباني متزامن في الشرق. وقد أعْلَمَ سورج من طوكيو أن ريبانتروب نصح السفارة الألمانية في اليابان بأن لا توفر جهدًا في إقناع اليابانيين بإلغاء معاهدة الحياد المعقودة بين امبراطورية الشمس المشرقة والاتحاد السوفياتي، وذلك قبل ثلاثة أشهر فقط من انفجار عملية باربا روسّا. وأمرهم قائلاً: "ابذلوا كل جهودكم لحث اليابانيين على الدخول في حرب ضد روسيا... وخير البر عاجله. فهدفنا دائمًا هو مصافحتهم على الخط الحديدي عبر سيبيريا قبل بداية الشتاء". وكانت الآراء متباعدة داخل الحكومة اليابانية والقيادة العليا بين مؤيدي "الحل في الشمال" أي الحرب ضد الاتحاد السوفياتي، ومؤيدي "الحل في الجنوب" أي الحرب ضد الامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة الأميركيّة.

وكان سورج بصدد إعلام موسكو، وخاصة بفضل معلومات أوزاكي Ozaki، أن أنصار "الحل في الجنوب" استطاعوا تغليب وجهة نظرهم. وفي ١٥ آب ـ أغسطس، أشار إلى أنه تم استبعاد فرضية القيام بحرب قبل الشتاء، وذلك بسبب "المجهود الكثيف

الذي قد تفرضه على الاقتصاد الياباني". ولكن ورغم كلمات الشكر المتأخرة التي تلقاها كونه أبلغ، دون طائل، موسكو عن قرب وقوع بارباروسّا، أكد سورج في ما بعد على أن تقاريره المطمئنة أكثر فأكثر، في ما يخص نوايا اليابان، لم تقنع حقيقة القيادة إلاّ في نهاية أيلول ــ سبتمبر. إن رسالته بالراديو التي أوضحت أن "الشرق الأقصى السوفياتي ربما اعتبر بمنأى عن الهجوم الياباني" جنت عليه مديحًا خاصًا. وفي تشرين الأول ـ أكتوبر راح ستالين ينقل نصف أركان حربه من الشرق الأقصى وأرسلهم لمحاربة الألمان في الغرب. وفي آخر رسالة له إلى موسكو، طلب سورج استدعاءه أو الانطلاق إلى ألمانيا نظرًا لزوال خطر هجوم ياباني. ولم يتم نقل الرسالة أبدًا. فقد تم توقيف سورج في ١٨ تشرين الأول ـ أكتوبر؛ وخلال عدة أيام لقي ٣٥ عضوًا من شبكته المصير نفسه. وحسب ضابط الأمن الياباني، الذي كان مكلفًا بمراقبته قبل اعتقاله، فقد أمضى آخر ليلة حرة في أحضان زوجة السفير الألماني....

إن كل الروايات الجاهزة عن المعلومات التي قدمتها شبكة سورج حول نوايا اليابان غداة عملية برباروسّا كانت مبنية على مسلّمة مغلوطة. فلم تكن المعلومات التي جمعها سورج، كما كان يُعتقد عمومًا، وحيدة من نوعها. وقد سمحت عمليات التنصت المتزامنة حول التحويلات التلغرافية اليابانية بإعادة انقطاع معلوماته، وحتى أنه من المحتمل أن يكون التأكيد الحاصل من اعتراض الاتصالات أكسبه أخيرًا ثقة موسكو به قبل توقيفه بثلاثة أسابيع فقط. وبعد اعتقاله، تابعت المراسلات الدبلوماسية اليابانية التي تحتجزها محطات التنصت السوفياتية طمأنة هذه المحطات حول نوايا اليابان. وقد نصت برقية مرسلة من طوكيو إلى سفارتها في برلين في ٢٧ تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩٤١، والتي تَوجَّب نقل نسخة عنها إلى السفارة في موسكو، ونجح الروس بفك رموزها، المعلومات التالية: "قابلوا هتلر وريبانتروب سرًا واشرحوا لهما علاقاتنا

بالولايات المتحدة... قولوا لهتلر بأن الجهود الأساسية اليابانية ستتركز في الجنوب وبأننا ننوي تجنب كل عملية مقررة في الشمال".

إن أكبر النجاحات التي سجلها خلال الحرب محللو الرموز السوفيات كانت ضد الكودات، أي المصطلحات أو الرموز، والشيفرات اليابانية. وفي شباط ـــ فبراير ١٩٤١، تمَّ دمج وحدة الإصغاء إلى التحويلات المسماة Spetsotdel.

مع مديرية خامسة أنشئت حديثًا، كُلِّفت بالشيفرة، من مديريات مفوضية الشعب لأمن الدولة NKGBK ، والتي أصبحت في ما بعد مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD، وداخل هذه المديرية كان هناك شعبة بحث مهمتها تركيز كل جهودها على حل رموز أنظمة الكودات والشيفرات الأجنبية. وقد أصبح الاختصاصي الأول باللغة اليابانية في هذه الشعبة، س. تولستوي، محلل الرموز السوفياتي الأكثر شهرة في الحرب وحامل تنويهين باسم لينين. أما معاونوه الأساسيون فكانوا البروفسور شومسكي والكولونيل جزاريم بالاسانوف والكولونيل كوتلنيكوف وأميركي أطلق عليه اسم كاسباروف. وقد توفي تولستوي بعد وقت قصير من النصر. أما نجاحات مجموعته فسمحت للمديرية الخامسة بأن تفوض نفسها بجزء من العمل الذي تستأثر به عادة وكالة الاستخبارات العسكرية السوفياتية GRU، إذ كان المطروح هذه المرة اتصالات عسكرية يابانية. واعتمدت إحدى مهمات الشعبة الأولى في المديرية الخامسة على مراقبة تجارة الجيش الياباني من كوانغ - تونغ Kouang-Toung بهدف كشف إشارات محتملة عن التحضيرات لهجوم ما على الشرق الأقصى السوفياتي...

بفضل هذه التطمينات التي قدمها سورج والمديرية الخامسة، تمكن ستالين من أن ينقل نحو الغرب نصف الفرق الموجودة بإمرة القيادة في الشرق الأقصى. وخلال شهري تشرين الأول - أكتوبر، وتشرين الثاني - نوفمبر، تمَّ حشد بين ثمانٍ وعشر فرق

محملة بالبنادق وكذلك ١٠٠٠ آلية و ١٠٠٠ طائرة على الجبهة ضد الألمان[1]. وقد وصلت هذه الجيوش في اللحظة الحاسمة من الحرب. وفي الثاني من تشرين الأول ـ أكتوبر، أطلق هتلر عملية تيفون Tuphon، أي الهجوم ضد موسكو، والتي اعتبرها "آخر معركة كبيرة حاسمة في الحرب". وبعد ذلك بيومين، أعلن أمام حشد هائج جُمِع في الساحة الرياضية Sport palast: "لقد تمت هزيمة العدو ولن يتمكن من استعادة قوته أبدًا!" غير أن موسكو لم تسقط. لقد تحول الدفاع السوفياتي إلى حرب مقدسة من أجل آلام روسيا، وأصبح ستالين رمز الوحدة الوطنية بمواجهة غازٍ متوحش. ورغم إخلاء المؤسسات الحكومية والبعثات الدبلوماسية المنقولة إلى كويبيتشف Kouïbytchev على نهر الفولغا في منتصف تشرين الأول ـ أكتوبر، بقي ستالين في الكرملين: "ستالين معنا!" هكذا أصبحت صرخة حشود المدافعين عن موسكو. وقد عبرت قصيدة للشاعر "سوركوف" بعنوان "قَسَم الجندي" بشكل رائع عن المزاج الشعبي: "لقد أخبرني ستالين أن المعركة ستكون قاسية ودموية، غير أن النصر سيكون إلى جانبي. ذلك أن قلبي يشتعل بدموع النسوة والأطفال. وسيدفع هتلر وحشوده ثمن هذه الدموع من دمهم، دم الذئاب. وأنا أطلق النار مصيبًا هدفي، لأنّها تنطلق من قلبي"[2]. ومع ذلك، لم يشك المدافعون عن موسكو ولينينغراد أبدًا في أن الهدف الحقيقي الذي راود ستالين في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٤١ لم يكن إثارة بطولة المقاومة التي يقوم بها الجيش الأحمر، بل محاولة التفاوض حول السلام مع هتلر بواسطة مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD.

---

١ - Erickson John, *The Road to Stalingrad*, Panther Books (London,1985), P. 329.

٢ - Porter Cathy et Jones Mark, *Moscow in Word War Two,* (London,1987), ch.5.

وفي ٧ تشرين الأول ـ أكتوبر، إستدعي جوكوف، الأكثر كفاءة من بين جنرالات الجيش الأحمر، إلى مكتب ستالين في الكرملين. فوجده مع بريا، يتداولان مقتنعين بأن الجيش الأحمر يسير بسرعة نحو الهزيمة... في هذه الحقبة، وبعد إيجوف Iejov، تسلم بريا قيادة كل هذه الامبراطورية التي هي الاستخبارات والأمن السياسي. وفي تموز ـ يوليو ابتلعت مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD مفوضية الشعب لأمن الدولة NKGB التي لم تظهر ثانية كعضو مستقل إلا في نيسان أ إبريل ١٩٤٣. لقد وطّدت الحرب موقع بريا الذي أصبح هكذا أقوى قائد للأمن في تاريخ الاتحاد السوفياتي وبهذه استقر بين الأعضاء الخمسة في لجنة الدولة للدفاع، مع ستالين ومولوتوف وفوروشيلوف مالاتكوف، وهي سلطة القيادة العليا التي وُلدت بعد الهجوم الألماني.

بقي بريا صامتًا بينما كان ستالين يشرح لجوكوف أن الجيش الأحمر ليس قويًا بما يكفي لمقاومة الاختراق الألماني نحو موسكو. ويرى الدكتاتور، أنه من الواجب الآن اقتفاء أثر لينين عندما لم يكن تحت تصرفه في أذار ـ مارس ١٩١٨ أي بديل واقعي، سوى أن يوقّع مع الرايخ الثاني على سلام بريست ـ ليتوفسك المذل. ملتفتًا نحو بريا، كلف ستالين هذا التحرّي عن إمكانيات "سلام برست" آخر مع ألمانيا، حتى ولو كان لقاء ضياع دول البلطيق وبيلاروسيا ومولدافيا وجزء من أوكرانيا. وقد سعى عملاء مفوضية الشعب في الداخلية NKVD الذين اختارهم بريا لدى سفير بلغاريا في موسكو، ستوشنوف، ليكون وسيطًا. وقبل هذا التوسط لدى الألمان، غير أنهم واجهوا في النهاية عدمَ استقبال مثل هذه العروض.

وفي الوقت الذي كان يطرح فيه مصير موسكو، تابع بريا Beria عملية تطهير القيادات العليا. وفي ليل ١٥ ـ ١٦ تشرين الأول ـ أكتوبر، تم إخلاء الجهاز المركزي لمفوضية الشعب التابعة لوزارة الداخلية NKVD إلى كويبيشيف Kouïbytchev،

وخضع كذلك الضباط ذوو الرتب العالية لاستجوابات دون تساهل في أقبية لوبيانكا. وهناك ٣٠٠ ضابط آخرين، لم تتوفر وسيلة لنقلهم، تم إعدامهم بالرصاص هكذا وببساطة، واستمر اتهام الاحياء في كويبيتشيف. وبعد اعتقاله عام ١٩٥٣، اعترف بريا أنهم "ضربوا دون رحمة؛ لقد كانت مذبحة حقيقية". وفي ما عدا الجنرال أ. د. لوكتيونوف Loktionov الذي قاوم ببطولة كل أعمال التعذيب، اعترف الجميع بجرائم وهمية أدانتهم بها مفوضية الشعب في الداخلية NKVD. وحسب الكلمات الخاصة لمؤرخ عسكري سوفياتي، هو جنرال الفرقة نيقولاي بافلانكو، فإن مئات من الاختصاصيين العسكريين، من رتب عالية. كانوا ينتظرون موتهم، وفي الوقت ذاته يقود ضباط عاديون الفرق على الجبهة". وقد تم إعدام بعض كبار الضباط الذين اقتيدوا إلى كويبيتشيف في ٢٨ تشرين الأول ـ أكتوبر. وفي هذا التاريخ بالذات وضع ستالين فجأة حدًا لهذه الاستجوابات. وكان من بين المحظوظين، الذين أطلق سراحهم وأعيد إليهم الاعتبار مع أنهم اعترفوا بجرائم وهمية، ضابطان من أعلى الرتب كانا قد حشرا في سجون NKVD، وتعرضا للتعفن، وهذان الضابطان هما الجنرال "ك. أ. مرتسكوف"، رئيس الأركان العامة السابق، والجنرال "ب. ل. فانكوف"، مفوض التموين السابق.

دون أن يكون السبب، تطابق توقف عملية التطهير داخل القيادة العليا مع انقلاب مصير الجيوش. لم تسقط موسكو. مقتنعًا أنه سيتم سحق الجيش الأحمر قبل نهاية الخريف، تبجح هتلر قائلاً: "لن يكون ثمة حملة في الشتاء".

مفتقرة لتجهيزات خطيرة، تجمدت القوات في مكانها. وحتى في مستشفيات الميدان، مات من البرد الجنود الجرحى والمصابون بحروق. وفي كانون الأول ـ ديسمبر، أطلق جوكوف هجومًا معاكسًا لتخليص موسكو؛ وتقهقر العدو ووجد الجيش

الألماني نفسه ولأول مرة في الحرب في موقع الدفاع. وقد جعل هذا النصر من جوكوف بطلاً شعبيًا. وعلى كل حال، فقد كان هذا مدركًا أن ستالين ينظر إلى شعبيته بسخط. وروى في ما بعد: "كنت من بين القادة العسكريين القلائل الذين لم يتعرضوا للاعتقال، وقد لاحقني هذا التهديد خلال خمس سنوات". واعتقد جوكوف عام ١٩٤٢ أن اعتقال ضابط العمليات التاسع له اللواء ف. ي. غولونتشكفيتش Golontchkevitch، كان إشارة جعلت ستالين يعرف من خلالها أنه ليس بمنأى عن متناول NKVD.

وتشير التقارير السوفياتية حول مجموعات المقاومة السرية في داخل ألمانيا النازية التي يقودها هاروشولز ـ بويسن وأرفيد هارناك، إلى أن المعلومات التي يجمعانها ستساهم بعرقلة الغزو الألماني: "وخلال خريف عام ١٩٤١ بدأ أعضاء المقاومة السرية الابطال تقديم معلومات ثمينة للقيادة العليا السوفياتية. أما العمل الذي يقوم به شولز ـ بويسن في فرع الاستخبار التابع لمركز قيادة اللايفتواف Luftwaffe، واتصالاته الواسعة مع الأوساط العسكرية بما فيها الأبوار Abwer، فقد أتاحت له الحصول على معلومات مهمة للغاية حول الخطط الهتلرية".

وقد اعتقل الغستابو شولز ـ بويس في ٣٠ آب ـ أغسطس وهارناك في ٣ أيلول ـ سبتمبر ١٩٤٢. وعند إعدامهم في برلين في ٢ كانون الأول ـ ديسمبر، فإن أكثر من ثمانين شخصيًا ينتمون إلى شبكتهم تعرضوا للمداهمة. وقد وقعت أعمال التسلل الأكثر أهمية فعلاً في لافتواف Luftwaff، ووزارة الطيران، ووزارة الحرب وفي القيادات العليا العسكرية، وفي الحكومة في برلين، وفي وزارة السياسة العرقية وفي الوزارة الألمانية لرعاية العمل. وقد توصل تقرير قامت به الدوائر السرية والغستابو، ببرودة توتونية تمامًا، إلى أن المتهمين ينقسمون حسب مهنهم إلى:

٢٩٪ جامعيين وطلابًا.

٢١٪ كتابًا وصحافيين وفنانين.

٢٠٪ عسكريين محترفين، وموظفين لدى الدولة والحكومة.

١٧٪ مجندين في القوات العسكرية زمن الحرب.

١٣٪ حرفيين وشغيلة.

إن الكتابات التاريخية السوفياتية حول هذه القضية تبالغ على نحو ظاهر في فائدة هذه المعلومات التي قدمتها شبكتا شولز ـ بويسن وهارناك وذلك من أجل إعطاء قيمة أكبر للمقاومة والشيوعية داخل ألمانيا النازية. بالاختصار، كان لهم مصلحة حقيقية، ولا سيما في تقديراتهم لقوى وطاقات سلاح الجو Luftwaffe، وقد حصلوا على ذلك لقاء مخاطر هائلة، غير أنهم حرموا من القيمة العملياتية والحاسمة التي أتاحت عرقلة الغزو الألماني. ويكشف البوليس السري والدوائر السرية تسعة مجالات توزعت في ما بينها معلومات هاتين الشبكتين الأكثر نفعًا:

١ـ تقرير حول قوة سلاح الطيران الألماني في بداية الحرب مع الاتحاد السوفياتي.

٢ـ معلومات حول الإنتاج الشهري لصناعة الطيران الألماني خلال فترة حزيران ـ يونيو تموز ـ يوليو ١٩٤١.

٣ـ معلومات عن حالة المخزون من المحروقات في ألمانيا.

٤ـ معلومات تتعلق بمشروع الهجوم الألماني على مايكوبا (القوقاس).

٥ـ تقارير حول وضع مراكز القيادة الألمانية.

٦ـ معطيات حول إنتاج أطقم الطائرات في الأراضي المحتلة.

٧ـ تقارير حول إنتاج وتخزين مواد الحرب الكيميائية في ألمانيا

٨ ـ تقارير عن مصادرة قاموس شيفرة روسي قرب بتسامو Petsamo (قد يكون المقصود هنا القاموس ذاته الذي أخذته من الفنلنديين الـ OSS، أي دائرة الاستخبارات الأميركية خلال الحرب).

٩ـ تقرير حول الخسائر التي مني بها المظليون الألمان في كردانيا Créte".

بجمعهما بين المقاومة السياسية والجاسوسية، سبب شولز ـ بويسن وهارناك الدمار لمشاريعهما. فقد جعل شولز ـ بويسن وزوجته ليبرتا Libertas في خطر بإحيائهما سهرات مناقشة في بيتهما مع أعضاء في المقاومة السرية ضد النازية ومتواطئين آخرين محتملين. ولم يكن من النادر أن يشاهد ببذلة ضابط في سلاح الطيران، المسدس الآلي في يده حارسًا في الليل مجموعات صغيرة من شبان المقاومة يعلقون إعلانات معادية للنازية على جدران برلين. وخلال المعرض المعادي للسوفيات والمسمى "الجنّة السوفياتية" التي أقامته السلطات في لوسغارتن Lusgarten في برلين عام ١٩٤٢، نظم حملة إعلانات منافسة تحت هذا الشعار:

ـ معرض "الجنة النازية".

ـ حرب ـ جوع ـ أكاذيب ـ غستابو.

ـ كم من الوقت أيضًا؟

وقد كتب مع هارناك ووزّعا كذلك رسائل هجاء امتدحهم عليها السوفيات في ما بعد باعتبارها "أمثلة رائعة عن الدعاية المعادية للهتلرية".

أما الدبلوماسي رودولف فون شليها فتعرض لمخاطر كبيرة أقل بكثير. وخلال، كما وقبل الحرب بقي بعيدًا إلى حد ما عن مجموعتي شولز ـ بويسن وهارناك. ومع

ذلك، وبما أن عمليات الراديو لوكالة الاستخبارات السوفياتية العسكرية كانت نادرة GRU في برلين فقد كان عليه البقاء مجهولاً زمنًا طويلاً؛ وأخيرًا أدّى إلقاء القبض على عامل في بروكسل، كان قد نقل العديد من رسائله، إلى سقوطه. وبعد بداية عملية برباروسّا، لم يظهر استعدادًا، لمتابعة التجسس لصالح الـ GRU. أما "إيلس ستوب" واسطة اتصاله، والتي تعاني من مرض زهري، فقد عرفت صعوبات متزايدة في سبيل الحصول على معلومات منه. وفي تشرين الأول - أكتوبر ١٩٤٢، أنزلت وكالة الاستخبارات العسكرية السوفياتية GRU بالمظلة في بروسيا الشرقية عميلاً هو هنريك كوينان Heinrichkoenen، ابن نائب قديم للحزب الشيوعي الألماني.

قصد كوينان برلين للاتصال بفون شليها عن طريق ستوب؛ وقد نقل بالتعاون معه جهاز راديو مخصصًا للرسائل المحوّلة إلى موسكو وكذلك للاستقبال موضحًا صراحة أن ألمانيًا كان قد قبض ٦,٥٠٠ دولار من وكالة الاستخبارات السوفياتية العسكرية GRU عام ١٩٣٨ - وبالتأكيد من أجل ابتزازه في حال لاحظ تحفظات ما. وهناك تقرير من دوائر الأمن الألمانية يستنتج عن حق أن مهمة كوينان كانت "البرهان الواضح عن الأهمية التي تنظر بها موسكو إلى عمل شليها". وفي أيلول - سبتمبر اعتقل الغستابو إيلس ستوب. أما كوينان، الذي أراد الاتصال بها بعد شهر، فوقع هو الآخر في الفخ.

لقد كانت مجموعات شولز - بويسن وهارناك السرية تشكل جزءًا من شبكة واسعة ضمن وكالة الاستخبارات السوفياتية العسكرية، وبروابط رخوة جدًا، تمتد في أنحاء أوروبا الغربية والوسطى. وقد سميت الأبوير Abwehr (وكالة الاستخبارات التابعة لرئاسة الأركان الألمانية) هذه الشبكة باسم رمزي هو "الجوقة الحمراء Rote Kapelle"، وكان "الموسيقيون" هم عمال الراديو المكلفين إرسال رسائل مرمَّزة إلى

موسكو؛ وكان "قائد الأوركسترا" هو ليوبولد تربّر، والمعروف داخل المنظمة باسم حركي هو "القائد الأكبر". وقد صرح تربر في وقت متأخر جدًا أن أحد "موسيقييه" في بروكسيل كان قد نقل إلى المركز في موسكو رسالة من مجموعة شولز ـ بويسن، مؤرخة في ١٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤١، محذرًا السوفيات من قرب وقوع العملية "الزرقاء" التي قررها هتلر، والصدمة الاستراتيجية التي جرت أخيرًا إلى كارثة ستالينغراد بعد ذلك بسنة كاملة: "الخطة III، الهدف القوقاز، مبرمجة أساسًا في تشرين الثاني ـ نوفمبر، برسم التنفيذ عام ١٩٤٢. يكتمل تموضع الفرق في الأول من أيار ـ مايو... والتفاصيل آتية".

على أيّ حال، يستحيل التوفيق بين رواية تربّر وتقدير الاستخبارات الألمانية للأضرار الناجمة عن أهم برقية لمجموعة شولز ـ بويسن... وفي ١٢ أيار ـ مايو ١٩٤٢، ومرة أخرى حسب المذكرات التي حررها تربّر، وصل من موسكو أحد سعاة بريده مع "كل المعلومات المفيدة حول العناصر الكبرى للهجوم". وهنا أيضًا لا تتوافق ذكريات تربّر مع الاستشهادات السوفياتية. وقد صدر أول خبر أساسي حول العملية "الزرقاء"... خطط تفصّل المرحلة الأولى من الهجوم، خطط وُجِدت داخل طائرة ألمانية تحطمت وراء الخطوط السوفياتية في ١٩ حزيران ـ يونيو ١٩٤٢. وفي ٢٦ حزيران ـ يونيو، أعلن ستالين أنه لزم الصمت المطبق إزاء العملية "الزرقاء" هذه، وأنّب رئاسة أركان دوائر الاستخبارات علىالسهولة الواضحة التي استسلموا بها لمحاولة تشويش كهذه[١] . وبعد يومين، بدأ الهجوم الألماني باختراق سريع للغاية على جبهة واسعة، ابتداءًا من كورسك Koursk، حتى شمال دونتز؛ وقد أحيا هذا التقدم ثقة

---

١ - Erickson, *Road to Stalingrad*, PP. 483-485.

هتلر بالنصر الموعود على روسيا. نصر كان قد أفلت منه عام ١٩٤١، إنما سيكون بنظره كاملاً قبل نهاية ١٩٤٢.

لقد تمت تدريجيًا تصفية "الجوقة الحمراء" الموزّعة في كل أوروبا المحتلة خلال عام ١٩٤٢ كلما كانت محطات التوجيه الإشاعي تطرد "الموسيقيين". لقد اعتقل تربّر بالذات في الخامس من كانون الأول - ديسمبر في باريس، بينما كان بين يدي طبيب الأسنان. وقال ضابط دائرة استخبارات رئاسة الأركان الألمانية Abwehr الذي اعتقله: "لقد سيطر عليه الاضطراب لحظة، ثم قال بألمانية صحيحة "قمتم بعمل جيد"." وبعد قبوله التعاون مع الغستابو، أصبح عميلاً مزدوجًا وربما مثلّثًا، مقدمًا معلومات مزيفة لموسكو، ولعله قام بتمرير تحذيرات صادقة ضمنها. أمر مدهش، ها هو يتمكّن من الهرب من مكان احتجازه في أيلول ١٩٤٣ ويختفي حتى نهاية الحرب.

وأخيرًا، كانت الشبكة السوفياتية الأشد تأثيرًا في الحرب العالمية الثانية، صاحبة مصادر المعلومات داخل ألمانيا، هي "الحمر الثلاثة Rote Drei" المتمركزة في سويسرا، والمسماة على هذا النحو بسبب العدد المفترض لاختصاصييها بالبرق اللاسلكي Radioté Télégraphistes.

كان "ألكسندر رادو" الإسم الحركي "دورا"، يقود هذه الشبكة. أما "رودولف روسلر"، الإسم الحركي "لوسي"، فكان أفضل عملائه، وهو ضابط سويسري في الدوائر السرية، ومن أصل ألماني، كان ينقل معلوماته إلى رئيسه بواسطة مجموعة - جزئية يقودها "راشيل دوبندورفر Duebendorfer"، واسمه الحركي "سيسي"، وصمام أمان Coupe-Circuit أو وسيط، هو "كريستيان شنيدر"، واسمه الحركي "تايلور". وقد ترأس روسلر أربعة مصادر في ألمانيا هم: "ورثر" و"تيدي" و"أنّا" و"أولغا". مع أنه لا يمكن التأكد من هوية أي واحد منهم، فإن دراسة لـ CIA استنتجت في ما بعد، أن

مخبري روسلر الأربعة قد يكونون اللواء "هانس أوستر" قائد أركـان حرب فـي دائـرة استخبارات رئاسة الأركان الألمانية Abwehr؛ والأميرال "كاناريس"، الذي شُنق مع معلمه لمشاركته بالاعتداء بقنبلة على هتلر في تموز ـ يوليو ١٩٤٤؛ و"هانس برند جيزفيوس Hans Bernd Gisevius"، وهذا الآخر هو ضابط في الأبوير، وخدم في حقبة ما كنائب لقنصل ألمانيا في زيورخ؛ وقائد المعارضة المدني ضد هتلر، "كارل جوردلر" الذي أعدم بعد الاعتداء بالقنبلة؛ والكولونيل "فريتز بوتزل"، آمر مكتب تقويم المعلومات لمجموعة جيوش الجنوب ـ الشرق في حامية أثينا.

لقد كان السر الذي يحيط "بعشيرة لويس" مصدرًا للكثير من الأساطير، وخاصة تلك الأسطورة التي تقول إن هذه العشيرة كانت في الحقيقة الغطاء الذي استخدمته المخابرات البريطانية لإمداد الروس بمعلومات حساسة جدًا ناتجة عن فك رموز الكودات الألمانية، وذلك بإخفاء مصدرها[1]. ومع أن المخابرات البريطانية لم تستخدم روسلر وسيطًا. فربما فعلت سويسرا ذلك. وهذه المصادر التي تقول عنها هذه المخابرات إنها تابعة لها فمن المفترض عمليًا أن تكون مصادر للاستخبارات السويسرية التي تنقل معلومات للروس عبر قناة روسلر. ويبدو أن بعض هذه المصادر أيضًا وصل إلى الغرب بواسطة الكولونيل كاريل سيدلاك، ممثل حكومة المنفى التشيكية في سويسرا. وقد تحققت بشكل أساسي دوافع روسلر الشخصية. وعلى هذا النحو أعلم "رادو" موسكو في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤٣: "أن سيسي يعلن أن مجموعة لوسي لن تعمل إذا لم يتم دفع الأجور". وثمة من يؤكد غالبًا على أن روسلر كان قد أرسل معلومات إلى الروس حتى قبل الغزو الألماني. وتبيّن رسائل رادو

---

١ ـ Read Antony et Fisher David, *Operation Lucy,* Hodder and Stoughton (London,1980

المنقولة إلى موسكو أن اتصاله الأول مع سويسرا لم يحصل في الواقع قبل أيلول ـ سبتمبر ١٩٤٢.

ورغم أن شبكة وكالة المخابرات العسكرية السوفياتية هذه كانت مؤلفة من عملاء شجعان، تعددت وسائلهم، فإن التأثير الخطير لمعلوماتهم على العمليات العسكرية السوفياتية لم يظهر إلا في معركة ستالينغراد. فَتَحْتَ تأثير صدمة عملية بارباروسّا فقدت الستافكا Stavka، وهي نوع من مركز قيادة كبير وقيادة عليا كذلك، أنشئت لمواجهة الغزو، عدة مرات إثر الغزاة. ولم تتمكن المخابرات العسكرية من استشراف الانعطاف المفاجئ في الجنوب الذي سمح للقوات البرية الألمانية Wehrmacht بالإستيلاء على كييف في أيلول ـ سبتمبر ١٩٤١، أما زخم الهجوم على موسكو في تشرين الأول ـ سبتمبر ففاجأها تمامًا. ومن جديد لم تتمكن الستافكا من التنبؤ، صيف ١٩٤٢، بالضربة القادمة. مقتنعين بأن التهديد الألماني الرئيسي سيركّز على معاودة الهجوم على العاصمة، فسَّر ستالين والستافكا خطأ القوة الحقيقية للهجوم الألماني نحو الجنوب. وعلى مدى تقدم القوات البرية Wehrmacht باتجاه ستالينغراد والقوقاس تدافعت القوات السوفياتية، عاجزة عن التنبؤ أين سيضرب العدو".

وأخيرًا عندما حاصر الجيش الأحمر الجيوش العدوة في ستالينغراد خلال تشرين الثاني ـ نوفمبر، ظن أنه أوقع في الفخ ٨٥,٠٠٠ إلى ٩٠,٠٠٠ جندي؛ وفي الحقيقة قد حاصر ثلاثة أضعاف هذا العدد[١]. وقد أعلمت الستافكا على نحو سيء كذلك بخطط الهجوم التي ينفذها الألمان لاختراق الحصار وتحرير فرقهم في ستالينغراد. ولم يعلم الجيش الأحمر أن ست فرق مدرَّعة كان قد تم سحبها من فرنسا لنشرها في الشرق

١ - Erickson, *Road to Stalingrad*, P. 693.

إلا عندما تحطم سلاحه الخاص بالفرسان. ويشهد نصر ستالينغراد الكبير الذي رسّخه استسلام الجيوش الألمانية في نهاية كانون الثاني - يناير وبداية شباط - فبراير ١٩٤٣، على النوعية الممتازة للعمل الذي نفذته قيادة أركان الجيش الأحمر، وعلى طاقته على ارتجال وتعديل خططه بصورة غير متوقعة وعلى شجاعة الجنود السوفيات. غير أنه تم تحقيق هذا النصر رغمًا عن دور المخابرات العملياتية السوفياتية وليس بفضلها[1].

---

١ - أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ - ١٩٩١، ص ٢٩٤ - ٣٠٣.

النشَاط الاستخبَاراتي في خلال الحَرب الألمانيَّة الروسيَّة

خلال "الحرب الوطنية الكبرى ١٩٤١ ـ ١٩٤٥". وخصوصًا السنتين الأولى والثانية منها، كان استخبار مفوضية الشعب للداخلية NKVD مفوضية الشعب لأمن الدولة NKGB عن حلفاء الاتحاد السوفياتي أفضل من استخبارهما عن ألمانيا النازية. فالعميل الذي زوّدها أساسًا بأفضل الملاحظات حول السياسة البريطانية كان علىالأرجح جون كرنكروس، الذي احتل منصب سكرتير لورد هانكي الخاص حتى أذار ـ مارس ١٩٤٢. وفي تموز ـ يوليو ١٩٤١، اقتضى أن يترك هانكي وظيفته كحاكم دوقية لانكستر، ليصبح في موقع أقل حظوة، أي وزيرًا للبريد، غير أنه احتفظ لنفسه بحق الوصول إلى ملفات وزارة الحرب وكذلك ولوج مقر رئاسة عدة لجان مهمة... وقد أودع كرنكروس مفوضية الشعب للداخلية NKVD "أطنانًا من الملفات" خلال الشهور التسعة الأولى من "الحرب الوطنية الكبرى". لقد ترأس هانكي اللجنة الإنكليزية السوفياتية التي نظمت حملة التموين والمواد الأولية للاتحاد السوفياتي حتى تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٤١. مع ذلك، وبخصوص معارضة هانكي لتشرشل، سلم كرنكروس المركز في موسكو تقريرًا مبالغًا فيه علىالأرجح. لقد كان اللورد هانكي باختصار الوزير الأكثر انتقادًا لرئيس الحكومة، ولم يتردد بالقول في أوساطه الخاصة أن "لا أمل في شفاء هذه الوزارة المباركة بنعم ـ نعم مع هز الرؤوس". في بداية العام ١٩٤٢، أعد مذكرة حول الاتجاه الاستراتيجي للحرب الجارية بقيادة هتلر تحت عنوان

"قرار اتهام". ومن بين ما استتكره، والتي نقلت دون ريب إلى مفوضية الشعب للداخلية NKVD عبر كرنكروس، كان الموافقة على أفضلية التموين الممنوح لروسيا". وعندما أقاله تشرشل من وظائفه في آذار - مارس ١٩٤٢. قال هانكي: "في فترة ما شعرت بعدم رضى عميق عن سير الحرب". "عدم الرضى العميق" لدى هانكي كان عمليًا آخر خبر عن وزارة الحرب البريطانية نقله كرنكروس. لقد أصبح له في الحقيقة هدفًا جديدًا: اختراق البليتشلاي بارك Bletchley Park، الوكالة التي تعترض الاتصالات خلال الحرب.

كانت بريطانيا العظمى تعطى الأولوية لعمليات التجسس السوفياتية على الأراضي الأجنبية، وكان ذلك منذ تأسيس فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO والمديرية الرابعة، أي سلف وكالة المخابرات السوفياتية العسكرية GRU؛ بالمقابل أولت الولايات المتحدة هذه العمليات اهتمامًا ثانويًا عشية الحرب العالمية الثانية. أما المديرية الرابعة، المكلفة بأكثرية العمليات الأميركية خلال الثلاثينيات فاهتمت بهذه البلاد ليس من أجل ما تمثلها بذاتها، وإنما كقاعدة انطلاق لمشاريع موجهة ضد اليابان وألمانيا، الهدفَين المفضلَين وقتها لدى مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD. عام ١٩٣٨، تلقت المديرية الرابعة بالذات ضربة غير منتظرة ذات نتائج خطيرة وذلك بعد ارتداد مراسلها الرئيسي الأميركي ويتكر شامبرز Whittaker Chambers. وخوفًا من قتله على يدي NKVD ومجرمي المديرية الرابعة، وكونه غير مهيأ لمجابهة الملاحقات القانونية بإظهار ماضيه الجاسوسي، انغمس شامبرز في المقاومة السرية. وظهر في العام التالي ككاتب، وفي ما بعد كناشر، يعمل لصالح مجلة التايم Time. مستنكرًا بدون دهشة الاتفاق الجرماني السوفياتي وافق على رواية حكايته إلى أودولف ــ برل. في ٢ أيلول - سبتمبر غداة بدء الأعمال الحربية، كان برل مساعد سكرتير الدولة

ومستشار الرئيس في شؤون الأمن الداخلي. وقد طمأن شمبرز أن اعترافاته ستصل مباشرة إلى الرئيس، وأنه لن يعاقب كونه قبل التعاون؛ ولم يعده مع ذلك بالحصانة ضد الملاحقات القانونية. بعد لقائهما، وضع برل تقريرًا من أربع صفحات، بعنوان هو "عميل تجسس سري"، وفيه نقع على أسماء الجْرهيس وهاري دكستر وايت وأسماء جواسيس آخرين سوفيات كثر، كان شمبرز مراسلهم. لم يهتم روزفلت بهذا الأمر. ويبدو ببساطة أنه ركن إلى فكرة أن شبكات التجسس المتسللة إلى إدارته أمر غير معقول. وبشكل مدهش كذلك، وببساطة تامة وضع برل تقريره الخاص جانبًا. وعام ١٩٤١ فقط فَتَح تحقيقًا حول هيس عند ذكره لاتهامات شامبرز ضد مسؤول هيس القديم دين أشزون Dean Acheson. وقد ردَّ الإثنان هذه الاتهامات فورًا. ولم يباشر برل أي عمل آخر؛ وحتى أنه لم يرسل إلى مكتب البحث الفدرالي، أي شرطة الولايات المتحدة الفدرالية FBI، تقريرًا عن حديثه مع شامبرز. إن مكتب البحث الفدرالي هو الذي طلب أخيرًا ذلك عام ١٩٤٣. ومن بين الأشخاص الآخرين الذين لفتوا روزفلت إلى حكاية شامبرز السفير ويليام بيليت Bullitt، والقائد العمالي دافيد دو بانسكي والصحفي والتر وانشل؛ رفض الرئيس مرة أخرى هذه الاتهامات.

وفي نهاية المطاف، استمع مكتب البحث الفدرالي عام ١٩٤٢ إلى شامبرز بعد أن عرَّف عنه رفيق قديم في المقاومة السرية الشيوعية على أنه عميل سابق سوفياتي يعرف "أمورًا لا يمكنكم الحصول عليها مهما كان الجهد المبذول خلال سنة". وربما لأنه كان يخشى الملاحقات القانونية، ظهر شامبرز متحفظًا أكثر مما كان عليه في لقائه مع برل قبل ذلك بثلاث سنوات؛ لقد ألحَّ أكثر على نشاطاته في الحركة السرية الشيوعية أكثر من إلحاحه على تورّطه في الجاسوسيّة. وقد تخلّص مدير مكتب البحث الفدرالي بوقاحة من التقرير المؤلف من ثماني صفحات والمرفوع إليه قائلاً إنّ

المطروح هنا سلسلة من "الإشاعات والفرضيات أو الاستنتاجات". ولم يحصل أي شيء في السنوات الثلاث اللاحقة. ومن كل الأفراد الذين عرّف عنهم شامبرز، وحده المدعو بيترز Peters كان هدف تحقيق سطحي في مكتب البحث الفدرالي FBI الذي قال عنه إنه: وجه مهم في الحزب الشيوعي الأميركي، مع ذلك فقد كان معروفًا لدى دوائرنا.

بعد تخلّي شامبرز عام ١٩٣٨، وقعت شبكات الدائرة الرابعة الرئيسية في واشنطن بيد مندوب مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD المقيم في نيويورك، غايك بادالوفيتش أوفاكيميان. والذي لقبه في ما بعد مكتب البحث الفدرالي FBI "المحتال الأرمني"... كانت الولايات المتحدة قد أصبحت هدفًا رئيسيًا للجاسوسية السوفياتية (لقد أصبحت نهائيًا في المركز الأول مع نهاية الحرب العالمية الثانية). عام ١٩٣٨، لم تكن مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD قد فهمت بعد بأية خفة تعالج الإدارة الأميركية مسألة الجاسوسية الحمراء على أرضها. فهرب شامبرز وكان خوفه المحتمل من تحقيق يقوم به مكتب البحث الفدرالي FBI سببًا جزئيًا ولا ريب في انهيار عمليات NKVD في واشنطن. لقد توقف بعض العملاء فجأة عن تقديم المعلومات، ومنهم الأقدم عهدًا، هاري دكستر وايت، موظف الخزانة. أما زوجته التي لم تكن تشاركه ميوله الشوعية فجعلته بعدها يتخلّى عن نشاطاته الجاسوسية.

أما الرجل الذي سعى أكثر لإحياء شبكة استخبارات NKVD في واشنطن فهو ناتان غريغوري سيلفر ماستر - مع الإشارة هنا إلى وجوب عدم الخلط بينه وبين صديقه غريغوري سيلفر مان - موظف من أصل يهودي أوكراني، عمره أربعون سنة، يعمل في "إدارة الزراعة Farm Security Administration"، وفيما أُلحق بمكتب الاقتصاد الحربي، وكونه غير مستعد عاطفيًا لتقبّل الواقع القاسي لروسيا الستالينية،

احتفظ سيلفر مايستر بمثاليته الصافية عن حلم ثوري. وكونه يعاني من ربو مزمن يجعله يلهث غالبًا، آمن بثبات أن: "أيامي أصبحت معدودة، وعندما تحين ساعة الموت، أريد أن أشعر على الأقل بأني ساهمت ولو قليلاً في بناء حياة لائقة للأجيال القادمة". إن سيلفر مايستر هو الذي استدرج هاري دكستر وايت، من كثرة ما تودد إليه لتقديم معلومات، بعد بداية الحرب بقليل. وعند الهجوم على برل هاربر، كان قد جمع حوله مجموعة من ستة موظفين حكوميين يعملون في الوقت ذاته لحساب الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD. لم يلتحق وايت بالمجموعة، فقد كان يقدم معلوماته مباشرة إلى سيلفر مايستر الذي كان يعتبره خجولاً وغير مقدِّر "إنَّ بإمكان يده اليمنى معرفة ما تصنعه يده اليسرى". وبهدف تهدئة مخاوف وايت، وبشكل غير مباشر، وطمأنة زوجة هذا الأخير، كان سيلفر مايستر يقول له بأن المواد التي يسلمها تصل لشخص واحد من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأميركي. وكان سيلفر مايستر يعلم جيدًا أن وايت ليس مغفلاً غير أنه كان يفضل أن لا يفكر بهذا الأمر. وكان يخفي في العلية السجادة "البخارية" الثمينة التي قدمها له بويل قبل الحرب. وبما أنه الذراع اليمنى لهنري مورجونتو Morgenthau، سكرتير الخزانة، كان وايت يدخل ليس فقط على أكثرية الملفات السرية للوزارة بل وكذلك على المعلومات السرية المتبادلة مع عدة فروع حكومية أخرى.

وابتداءً من عام ١٩٤١، أصبحت مراسلة مجموعة شيلفر مايستر إمرأة في الثالثة والثلاثين من عمرها، إنها إليزابيت بانتلي، المجازة من معهد فاسار Vassar والمقيمة في نيويورك. فبعد إقامتها سنة واحدة في إيطاليا موسوليني، أصبحت معادية جدًا للفاشية والتحقت بالحزب الشيوعي الأميركي عام ١٩٣٥. وعام ١٩٣٨، إقتنعت بقطع كل صلة لها بالحزب والالتحاق بالقوى المناهضة للثورة والعمل لحساب الهيئة الشعبية

للعمل الداخلي NKVD. أما ضابط الـ NKVD المتعامل مع بانتلي جاكوب غولوس Jacob Golos، وهو أيضًا يهودي من أوكرانيا، والذي يعرفه عملاؤه بالاسم المستعار "تيمي Timmy" فاخترق قواعد منظمته وفتنها. وقد جعلت بانتلي في ما بعد من آخر أيام حبها رواية غنية بالصور السلبية المستعارة من "ميلز وبووم Mills et Boom". لقد حدث المشهد في خضم عاصفة ثلجية. "لامست يده يدي، نهضت محدقة به، وفجأة وجدت نفسي بين ذراعيه، وقد عانقت شفتاي شفتيه. وسكن الزمان والمكان". ثم شعرت الآنسة بانتلي أنها "مأخوذة بنشوة لا بداية ولا نهاية لها". وبعد ليل طويل، "أخذت مكانها في سيارة غولو، يدها في يد حبيبها، وذهلت بأروع شروق شمس شاهدته في حياتها"... دون الالتفات إلى شروق الشمس، شرح لها غولو قواعد "الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD" الأمنية التي انتهكتها لتوه: "ليس من المسموح لنا إقامة صلات صداقة، وخاصة الوقوع في شراك الحب. ليس لنا الحق أنت وأنا حسب الانضباط الشيوعي، بأن نحس بما أحسً به كل واحد نحو الآخر".

شجعها مَثَلَ غولو السيء، تزوجت بانتلي بمرح المشاعر والجاسوسية بطريقة أرعبت المركز في موسكو. وفي كل عيد ميلاد كانت تشتري بنقود NKVD هدايا تختارها بعناية فائقة، ابتداءًا من قنينة الويسكي حتى الملابس الداخلية النسائية، وتوزعها على العملاء الذين عملت مراسلة لهم. وبعد وفاة غولو ١٩٤٣، وعندما حاول المراقب الجديد أن يفرض عليها إجراءات أمنية أكثر دقة، تذكرت إليزابيت بانتلي بحنين "الزمن الطيب العتيق، وأيام عملنا سوية رفاقًا نشيطين"...

إن مظاهر الإهمال التي مارسها بعض عملاء الشبكة ترتبط بعلاقة السيدة بانتلي بالمسؤول الأول جو أو جوزف جيليوس، الموظف في مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS، والمجند عام ١٩٤٢، والذي كان مثل الكثير من العملاء "غير قادر على

ممارسة إجراءات المقاومة السرية": "فهو المرتبك دائمًا أمام صعوبات كانت تغرقنا، دوريًا، في الاضطراب وتسلّينا كذلك. ولا أنسى أبدًا حين تلقى الأمر بإحراق ملفاته أو إخفائها في التواليت فنفذ كلا الأمرين. لقد حشا التواليت بكتلة من الأوراق المشتعلة، وبالتأكيد اشتعل المقعد كذلك. وبحيرة تأمل المالك الأضرار ثم ترك المسكن أخيرًا مدمدمًا "لا أفهم فعلاً كيف حصل ذلك".

بناء على عدم الاهتمام العام الذي يسيطر على واشنطن إزاء الجاسوسية السوفياتية، فإن تقصيرات كهذه في الانضباط حملت في النهاية القليل من المخاطر. وقد تزايد بانتظام الربح الذي كانت تجنيه إليزابيت بانتلي بانتظام من سفرها مرتين في السنة، إلى العاصمة الاتحادية؛ كان المطروح في البداية خلاصات بسيطة لملفات سرية مطبوعة على الآلة الكاتبة، والأكثر أهمية من بينها كان يتم تصويره كاملاً. وسرعان ما أصبحت موسكو متلهفة أكثر فأكثر. وهكذا كان أعضاء المجموعة ينقلون حصادهم مباشرة إلى بيت سيلفر مايستر في واشنطن، ٥/٥٥، شارع رقم ٣٥، حيث يصورها ليلاً مع زوجته على الميكروفيلم. وبهذه الطريقة، قدمت مجموعة سيلفر مايستر ثلاث أو أربع لفّات من الـ Microfilms يتضمن كل واحد منها في المتوسط خمسة وثلاثين سحبًا Tirage كانا يظهِّرانها بنفسهما. ومنذ ربيع ١٩٤٣، كانت بانتلي تعود إلى نيويورك كل خمسة عشر يومًا مع أربعين فليمًا غير محمّضة مخبأة في محفظتها؛ ويتكفل مختبر مركز الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD بالباقي. وكانت ترفق كل بكرة بلائحة مفصّلة بالملفات المصورة وذلك لاستخدامها عندما تكون النسخات السلبية غير مقروءة. هذا ما كان يحصل بالفعل، كانت NKVD تفضل إمداد فرقة سيلفر مايستر بتعليمات من عندها وذلك لتجنيبهم لفت الانتباه إلى عمليات شراء عديدة لمادة هي على العموم نادرة زمن الحرب تلك. إنما كانت حاجتها المزمنة تحول

دون ذلك، فقد سلمتهما أحيانًا أفلامًا رديئة، ضعيفة الحساسية، وهذا ما جعل مهمتهما صعبة للغاية. "كيف يأملون منا القيام بعملنا في حين أنهم غير قادرين على تسليمنا أفلامًا جيدة"؟ سأل سيلفر مايستر بانتلي... "هل هناك مشكلة مع قانون الإيجار الجاهز الموقع بين الحكومة الأميركية والاتحاد السوفياتي؟"

مع العلم أنه كان على روسيا أن تطلب مساعدة من الأميركيين لتتمكن من تنفيذ عملياتها الجاسوسية في الولايات المتحدة، كان إنجاز سيلفر مايستر الساخر أقل ابتكارًا مما يظهر، ذلك أنه بمناسبة لقاء بين رئيس البعثة العسكرية الأميركية في موسكو عام ١٩٤٤، احتج مدير مكتب البحث الفدرالي INO بافل فيتين ومعاونه أندريه غزور على كل معلومة قد "تتمكن من إمدادهم بها حول أجهزة تصوير وتحميض الأفلام السرية مع عدة نقلها إلخ".

بالرغم من الصعوبات التقنية، جمعت إليزابيت بانتلي خلال أسفارها النصف الشهرية إلى واشنطن ما أسمته، دون القليل من التواضع، "كمية خرافية" من المعلومات. وفي آذار - مارس ١٩٤٤، بدأت كذلك باستخدام مبعوثة تتصل بمجموعة ثانية من ثمانية موظفين حكوميين يقيمون في العاصمة الاتحادية؛ أما فيكتور برلو فكان في تلك الحقبة خبيرًا بالإحصاء في وزارة اقتصاد الحرب. وفي ما بعد، عندما كان على بانتلي تقديم عرض للعدالة، عرّفت كذلك عن أحد عشرة موظفًا آخرين لا ينتمون لا إلى شبكة سيلفر مايستر ولا إلى شبكة برلو. وكان هؤلاء الموظفون قد نقلوا كميات أساسية من الأرشيفات المسحوبة من الملفات الحكومية. وقد قدّرت أن "المصدر الأكثر ثراءًا" يجب أن يكون البنتاغون. وحسب رأيها القاصر، يبدو أن "كل المعطيات الخيالية المرتبطة بحسابات إنتاج صناعة الطيران، وبالرسوم التخطيطية التي تفصّل توزيع الطائرات حسب كل منطقة

من المعركة وحسب بلد أجنبي وخصائصها وكذلك بآخر التطورات السرية تمامًا في الكثير من المجالات" مرت عبر أيدي الشبكة.

لا ريب في أن الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD كانت راضية خصوصًا عن هذا الاختراق لجماعة الاستخبارات الأميركية. وقد اعترفت إليزابيت بانتلي عن سبعة أعضاء من مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS (سلف CIA) عملوا كذلك لحساب NKVD. وقد كشفت الاتصالات السوفياتية المحتجزة ثم المحلولة أكثر من ذلك بكثير. وأهم هؤلاء العملاء قد يكون دانكين شابلن لي Dunkean Chaplin Lee، حفيد الجنرال لي الذائع الصيت في حرب الانفصال، خريج معهد رودز في أكسفورد والذي أصبح محاميًا لامعًا نيويوركيًا في مكتب ويليام ج. دونوفان. وبعد مدّة قصيرة، أي عام ١٩٤٢، أصبح دونوفان مديرًا لمكتب الخدمات الاستراتيجية OSS، وجعل من "لي" مساعده الشخصي. أما غولوس Golos، وبما أنه كان عليه الانتظار "فعلّق أهمية كبيرة على المعلومات التي يقدمها لي". وهناك على العموم عدم تناسب مذهل بين ما يعرفه مكتب الخدمات الاستراتيجي OSS عن الـ NKVD وما تعرفه هذه عنه.

كان الاختراق السوفياتي لقلب مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS ولإدارة روزفلت من الأهمية بحيث أنه نجح عمليًا بإفشال ضربة هائلة كان قد وجهها دونوفان ضد مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD. وفي الحقيقة، فإن دونوفان كان قد اشترى في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤٤ قاموس شيفرة، وهو كتاب مؤلف من ١,٥٠٠ صفحة مُكَرْبته جزئيًا، وقع بين أيدي الفنلنديين. وبما أن الكتاب يعود للهيئة المذكورة أي الـ NKVD، فقد أصبح الإنذار بين يدي واشنطن؛ وقد عاش كل العملاء السوفيات المزروعين في العاصمة في الخوف من كشفهم. وبعد الشهادة التي أدلت بها إليزابيت بانتلي، فإن لوكلن كيري Lauchlin Curie، عضو أمانة روزفلت وعضو

مجموعة سيلفر مايستر، دخل يومًا غاضبًا إلى بيت آخر، هو جورج سيلفر مان، "وقد ضاق نَفَسُهُ، وقال له بأن الأميركيين على وشك اختراق الكود السوفياتي". ووصل الخبر بسرعة إلى بانتلي... وإذا كان الأمر لا يتوقف عليه وحده، فمن المحتمل أنه لم يكن بوسع دونوفان المجازفة وتعريض مخططه للخطر بكشفه أمام سكرتير الدولة إدوارد ستتينيوس Stettinius. غير أن عدة أشخاص آخرين ولربما كان من بينهم عميل أو أكثر من الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD متسللين إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS تصرفوا على أساس علمهم بالأمر. وقد اعترض ستتينيوس لدى الرئيس أن هناك بعض السادة "لا يقرؤون بريد حلفائهم"، ووافق روزفلت على ذلك. تلقى دونوفان، بغضب شديد، أمر إعادة قاموس الشيفرة إلى الروس إنما حرص على التنكر لدوافعه، مُطَمْئِنًا فيتين إلى أنه كان "قد تبنّى القرار الوحيد الممكن بالنسبة لحليف شرعي راضيًا بهذا الأمر بمجرد عرضه عليه": "قد يرغب الجنرال دونوفان في أن يعرف الجنرال فيتين أننا لم ندرس هذه المادة؛ وبالتالي، لا يمكننا تقدير أهميتها. غير أن الجنرال تصرف مفترضًا أن الموضوع هو من الأهمية بمكان بالنسبة للحكومة الروسية"...

على هذا النحو كانت الأمور تجري. فقد بعث فيتين بكلمات الشكر الحارة بمناسبة هذه القضية الحسّاسة. وبناءًا على التماسه، سُلِّم كتاب الكود المحروق للسفير السوفياتي في واشنطن، أندريه غروميكو، ولم يحدّث أي شخص في السفارة عن وجوده. ومن الواضح أنّ فيتين لم يكن مخدوعًا لا من ناحية تقديم دونوفان لمشاعره النبيلة ولا من حركته كمتعاون صادق، غير أنه تأثر بسذاجة روزفلت وستتينيوس. وقد غيرت NKGB/NKVD قاموس شيفرتها في أيار ـ مايو ١٩٤٥. غير أن دونوفان كان قد أخذ نسخة من القاموس المرتجع، ومنذ ١٩٤٨، استخدمه الأميركيون لفك رموز بعض

الاتصالات السوفياتية المحتجزة من زمن الحرب. وبالعودة إلى الماضي، فقد كان لهذه الحلول المتأخرة أهمية عظيمة في التعرّف على عملاء سوفيات عملوا في سرية تامة. إنما لا بدّ من أن ترى، أنه لو جرى إخفاء قاموس الشيفرة الواقع بين يدي دونوفان تمامًا، لازدادت أهميته كثيرًا في أعمال التنصت الأميركية.

إن أكثرية العملاء الذين عاشوا خلال الحرب مثل السمك في ماء واشنطن انتموا إلى شبكة سيلفر مايستر وبرلّر، غير أن عددًا منهم عمل بشكل إفرادي. وكان من بين هؤلاء ألْجر هيس Alger Hiss، واسمه الحركي "أليس Ales". ويبدو أن صداقته مع ويتاكير شامبرز Whittaker Chambers عرضته بشكل خاص للخطر بعد ارتداد هذا الأخير عام ١٩٣٨... ومنذ صيف ١٩٣٩حتى أيار ـ مايو ١٩٤٤، استُخدم هيس كمساعد لستانلي ك. هورنبك Stanle K. Hornbeck، مستشار قسم الشرق الأقصى في مديرية الدولة. "وقد روى هورنباك في ما بعد، أن ألْجر تمتع بثقتي الكاملة وكان يرى كل ما أراه". ولا ريب في أن هيس سلم الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD أكثرية الملفات التي كانت تحت تصرفه. عام ١٩٤٢، وعلى أثر الادعاءات الموجهة ضده، حقق معه مكتب البحث الفدرالي FBI باختصار، إنما بعد تأكيد هيس على "أن هناك حكومة واحدة أريد قلبها، هي حكومة هتلر"، لم يتخذ المكتب المذكور أي إجراء لاحق. وكانت NKVD تفضل بالتأكيد توجيه وايت مثل هيس، أي بشكل فردي. إنما وبعد الخطة التي سببها ارتداد شامبرز، لم يشأ وايت التعامل مع أي شخص آخر غير سيلفر مايستر. أما المشرف على هيس خلال الحرب فكان العميل الأساسي اللاشرعي السوفياتي الموجود على أراضي الولايات المتحدة، إنه "إسحاق عبدولو فيتش أخمروف"، المولود في باكو في السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر. وفي أميركا استخدم على التوالي الأسماء المستعارة التالية: بل غرانك، ميخائيل غرين، ميخائيل

أدامك. وعند لقائه أول مرة بميخائيل سترايت، وهو أميركي مجاز من كمبردج، حاول بلانت تجنيده. كان ذلك في مطعم في واشنطن حيث "نهض وابتسم لي بحرارة، وبودّ... وشد على يدي بقوة وبعاطفة... كان أسمرًا، قصيرًا وسيمًا شفتاه سميكتان، أما الضحكة فجاهزة دائمًا للالتماع. كانت إنكليزيته جيدة وتصرفاته لطيفة وهادئة. ويقدّر غالبًا حياته في أميركا"[1]. وقد سبب أخمروف بلبلة نتيجة نقله إلى إدارة الأمن Direction S، وهي مصلحة غير الشرعيين في مديرية تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO وبزواجه من هيلن لويري Helen Lowry إبنة أخ زعيم الحزب الشيوعي الأميركي، أيرل براودر Earl Browder ـ وهي مخالفة للقواعد القاسية في الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD التي نجا منها غولو ـ. لم يشك أخمروف في أن الحرب ستؤدي إلى ثورة تقتفي أثره. فقد صرح في لقاء له مع سترايت عام ١٩٣٩: "إن عيني غرين (Akhmerev) الداكنتين تلمعان... وسيرحب بالجنود السوفيات، في فنلندا، على أنهم محرّرون.. هكذا عبَّر عن نفسه. فالثورة، مهنة الشّرَف، قد تسري، كحريق هائل، عبر ألمانيا وفرنسا. "إن الأيام الكبرى تقترب! هذا ما قاله"[2].

كان أحمروف يتمتع بناحية أقسى من ذلك بكثير. بعد موت غولوس عام ١٩٤٣، أصبح بدوره المشرف على إليزابيت بانتلي، وسمّى عندها نفسه "بيل"، ومارس عليها فورًا ضغوطًا قوية لتتخلى له عن الإشراف المباشر على شبكة سيلفر مايستر. "وخلال ليالٍ طويلة من المعارك المنهكة معه، كتبت بانتلي في ما بعد، كنت أجرُّ أقدامي حتى منزلي وأنهار على سريري، خائرة القوى عاجزة حتى عن نزع ثيابي". لقد كانت مرتعبة ومتأثرة كذلك بالسرعة التي يكتسب بها أحمروف ثقة سيلفر مايستر منذ لقائهما

١- Staight Michael, After Long Silence, Collins (London,1983), P. 129.

٢- Straight, *After Long Silence*, P. 143.

الأول: "كان بيل أخمروف على مزاج مرح جدًا، كان يتحول تماما ليفتن غريغ (سيلفر مايستر) ويصرّ على أن نطلب قائمة الطعام الأغلى ثمنًا، المزدانة تمامًا بالخمر، ويهنّئه على العمل الرائع الذي أنجزه، ويجعله يسمع أنه أحد أركان الاتحاد السوفياتي. كنت أرمقه بعين ساخرة متذكرة بيل الحقيقي المتربص تحت هذا الطلاء الرفاقي... وإذا واصل رؤية غريغ، قد ينجح دون أدنى ريب في إفساده"...

عند بداية عمله في إدارة الأمن التابعة للمديرية العامة الأولى PDG في الـ KGB حضر غورديافسكي اجتماعًا ترأسه أخمروف في لوبيانكا. كان قد تجاوز الستين سنة، وقد غزا الشيب شعره. لم يلمّح إلى هيس باختصار. وكان الموضوع الذي تناوله بشكل أساسي يتحدث عن الرجل الذي يعتبره الأهم من بين كل الجواسيس السوفيات في الولايات المتحدة أثناء الحرب: إنه هاري هوبكنز Harry Hopkins، مستشار الرئيس روزفلت الأكثر قربًا ونفوذًا. وقد اغتنم غورديفسكي ليناقش مثل هوبكنز مع عدة ضباط في إدارة الأمن واختصاصيين أميركيين من المديرية العامة الأولى PDG في KGB. وتوافق الجميع على أنه كان عنصرًا ذا أهمية نادرة. مع ذلك، بقدر ما كان يوطّد معرفته بالمستشار الرئاسي، توصل غورديفسكي شيئًا فشيئًا إلى استنتاج أن هوبكنز كان بالأحرى عميلاً دون وعي منه وليس مخبرًا فاعلاً دون ذمة. ويقول باحثون[1]: إن هذا التفسير لعلاقات هوبكنز مع KGB يتوافق بشكل أفضل مع ما نعرفه عن مهمته في الغرب. وبحدود معلوماتنا، لم يكشف هوبكنز لأحد عن لقاءاته غير المقصودة مع أخمروف، والتي بقيت مجهولة وغير مشكوك فيها في الغرب حتى كشفها غورديفسكي. كان يعرف كيف يحتفظ بالسر، وهذا أحد الأسباب التي جعلت

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتية، ص٣١٢.

روزفلت يختاره مؤتمنًا على أسراره. وكانت تقول والدته عنه: "لم أتمكن من فهم هاري. فهو لم يكن يحدثني أبدًا عما كان يفكر به فعلاً"[1]. وحتى أن ابنه روبير لم يتوصل مطلقًا إلى انتزاع كلمة واحدة منه حول دورات المؤتمرات الكبرى المتلاحقة أثناء الحرب. ولتقريبه، قال أخمروف بأنه كان مكلفًا من ستالين تسليمه رسائل شخصية وحميمة. كان يطري كبرياءه، متقنًا خداعه مثلما كان قد خدع سيلفر ماستر، وذلك بجعله يعتقد أنه يتمتع بدور فريد في هذه الحقبة الحرجة من تطور العلاقات السوفياتية الأميركية. إن سذاجة هوبكنز وجهله بالهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD، قد يكون مردّها لسوء تقدير موقع أخمروف. ومن المفترض أنه اعتبر هذا الأخير وسيطًا رسميًا بسيطًا وأن ستالين المرتاب بالمؤسسة الدبلوماسية التقليدية، ارتيابًا مشتركًا مع هوبكنز، أرسل إليه سرًا. ومن المؤكد أن هوبكنز كان يبدي إعجابًا نادرًا بستالين وثقة واسعة ممزوجة بفهم نشيط في ما يخص المستقبل "إذا حصل له مكروه ما". وبتحريض من أخمروف شعر باعتزاز خفي من جرّاء فكرة أنه يتمتع بثقة أقوى زعيمين في العالم.

عند ترؤس أخمروف المؤتمر في إدارة الأمن أو في ما بعد خلال مناقشات الكواليس لم يتوصل غورديفسكي لكشف متى وكيف التقى الجاسوس العجوز لأول مرة هوبكنز. ومن الواضح أنهما سبق وتعارفا قبل سفر هوبكنز الأول إلى الاتحاد السوفياتي خلال صيف ١٩٤١، بعد حوالي شهر من الغزو الألماني. ووصل إلى إنكلترا في ١٦ تموز ـ يوليو ١٩٤١، وأجرى، بصفته موفد روزفلت، محادثات مع تشرشل وحكومة الحرب التي يرأسها. وفي ٢٥ أيار ـ مايو، أبرق إلى الرئيس يقول:

---

١ - Sherwood Robert E., *Roosevelt and Hopkins, An Intimate History,* Grosset and Dunlap (New-York,1950), P. 17.

"ها آنذا أسأل نفسي إذا كنتم تفكرون هل من المهم والنافع بالنسبة لي التوجه إلى موسكو.... أشعر أننا يجب أن نحاول جاهدين لكي نتأكد من أن الروس سيحافظون على جبهتهم حتى وإن هزموا في المعركة القادمة". أما سفيرا القوتين العظيمتين في لندن إيفان مايسكي Ivan Maïsky وجون. ج. وينانت Winant فاعترفا علنًا في ما بعد أنهما ألحّا عليه بالتوجه إلى موسكو. وهذا ما فعله أخمروف. وقد كتب السفير الأميركي في موسكو لورانس ستينهاردت "بأن الاستقبال الذي لقيه هاري هوبكنز من الحكومة الأميركية يشير بوضوح إلى أن هذه الحكومة تعلّق أهمية قصوى على هذه الرحلة". ليس هناك أبدًا من مفوض غربي مطلق الصلاحية لقي هذا الاستقبال.

ففي روسيا، كتب هوبكنز: "صافحت من الأيدي أكثر مما صافحت من قبل. وقد حصل لي عدة مرات أن ضحكت في سري، متسائلاً إذا لم يكن من الواجب الالتجاء إلى المطبخ. مع ذلك لم يتح لي تقبيل الأطفال". فقد أُحتُفي به في ملجأ مضاد للطيران وضعته بتصرفه السلطات السوفياتية، وهناك وجد مستغربًا الشمبانيا والكافيار والشوكولا والسجائر، فتذمر ستنهاردت بأنه لم يلق المعاملة نفسها. وخلال أحاديثه اليومية، طبع ستالين في ذهن هوبكنز إيمانًا لا يتزعزع بقدرته كقائد روسي وبإدارة البلد على المقاومة: "لم يكرر في أية مرة. فقد تكلم بوضوح وبقوة، كأنه يعرف ماذا تضرب فرقه. وتمنى لي بسرعة إقامة سعيدة في روسيا. وشد على يدي باختصار، بثبات ولطف. كان يبتسم بحرارة. لم يكن ثمة من كلمة نافلة، أو حركة أو عاطفة... فهو لا يحاول التوصل ببراعة إلى اكتساب رضاك. يظهر أنه لا يتمتع بأي شك. وهو يؤكد أن روسيا ستقاوم هجومات الجيش الألماني. ويعتبر ببساطة أنه لا يخامرك الشك في ذلك أيضًا". لم يعجب هوبكنز لا بالمبدأ ولا بممارسة الدولة الشيوعية ذات الحزب الواحد، إنما، حسب أول سيرة ذاتية له، "وبمرور السنين أصبح صديقًا

مخلصًا لا بل مثيرًا لروسيا، ومعجبًا متحمسًا للمساهمة الواسعة للشعب الروسي في صنع النصر".

كان الهدف الأساسي لمهمة هوبكنز في تموز ـ يوليو ١٩٤١ هو تقدير حاجات الاتحاد السوفياتي المباشر وعلى المدى الطويل من التجهيزات الحربية. لقد استنتج بسرعة، وخاصة بعد محادثاته مع ستالين، أن وزارة الدولة والبنتاغون وكذلك البريطانيين أساؤوا وبشكل خطير تقدير الطاقة العسكرية السوفياتية الكامنة. ومن وجهة نظر الروس، تتمثل القيمة الرئيسية للمستشار الأميركي في استعداده لإقناع روزفلت بأن المساعدة الممنوحة للسوفيات تستحق الاهتمام. وقد أعلن روزفلت أمام ابنه أليوت: "أعرف مدى ثقة تشرشل بقدرة الروس على متابعة الحرب". لقد فرقع بأصابعه مشيرًا إلى الصفر..." أما هاري هوبكنز فثقته أكبر. وهو قادر تمامًا على إقناعي"[1] ، وقد أرضى هوبكنز كذلك الروس بالإصرار على منح هذه المساعدة دون شروط. وقد حاول الملحق العسكري الأميركي، إيفان يتون Ivan Yeaton إقناعه بالمطالبة بالتمتع بالحق بإرسال مراقبين عسكريين إلى الجبهة كتعويض على إرسال الأسلحة". أما السفير ستينهاردت فروى في ما بعد لصحافي أميركي "أنه رآهما يومًا يتقاذفان الحجج بضربات القبضات على طاولة الغداء، في حين كانت الصحون تتراقص وتتحطم". ألقى السفير نظره على المشهد من على عتبة الغرفة وعاد إلى الوراء بسرعة، ذلك أنه لا يريد إهانة الموفد الشخصي للرئيس بالوقوف مع الملحق العسكري والدفاع عنه. وحسب يتون فإن ما أغاظ هوبكنز أكثر، هو تعليقاته على ستالين: "عندما أشك بنزاهة وطُرق ستالين، فمن غير الجائز الاحتمال أكثر من ذلك" وأجاب بحدة: "لا أرغب في مناقشة الموضوع أكثر من ذلك".

---

١ - Roosevelt Elliot, *As He saw It*, Duelle, Sloan and Pearl (New-York,1946), P. 22.

أدرك ستالين جيدًا أن دعم هوبكنز غير المشروط ذو أهمية حاسمة في تطوير السياسة الأميركية نحو الاتحاد السوفياتي. ودون هذا الدعم، سيكون من الصعوبة بمكان على روزفلت إعطاء وعد بمساعدة عسكرية مباشرة. وقد أرسى التعهد المتخذ صيف ١٩٤١ أسس سياسة التعاون مع السوفيات أثناء الحرب.

بدعمه ستالين والمجهود الحربي السوفياتي، يكون هوبكنز قد تصرف تحت وطأة الاعتقاد التالي: "كان من المحتوم الحيلولة دون نصر نازي، وهذا ليس بفضل تعهد سري في سبيل الشيوعية.. إما لأن أخمروف أقنعه، دون أدنى ريب بالرفيق ستالين وذلك عبر رسائله الشخصية".. وقد كانت إحدى أمنيات الرفيق السكرتير العام هي طلب تبديل الرسميين "المعادين" للسوفيات والذين يشكلون عقبة أمام التعاون السوفياتي الأميركي. وهكذا حصل هوبكنز على ذهاب يتون وحل مكانه في العاصمة الروسية الرجل الذي كان يتون قد خلفه، أي الكولونيل فيليب ر. فايمونفيل Faymonille، والذي يقدره السوفيات أكثر بكثير من غيره، والذي سرعان ما تلقى الإشارة بتسريع المساعدة الأميركية. لقد كان ساذجًا بقدر ما كان مقربًا من السوفيات. عند بداية تكليفه في هذه العاصمة، عام ١٩٣٣، تصنع شخصية مريبة "من أجل اتصاله الأغلى ثمنًا مع موسكو" بينما هو في الواقع نقيب في الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD، كما عُلِمَ في ما بعد، فقد نقل إلى الروس ملفات سرية عن بعض الجيوش الأوروبية ولم يتفهم حتى عناصر الحصانة للسفارة. وعندما عارضت الاستخبارات العسكرية وبحجج قيّمة إعادة تعيين فايمونفيل في موسكو، أجاب هوبكنز: "من الأفضل لكم تحضير أوراقه لأنه سينطلق". وقام هوبكنز بما هو ضروري لإبعاد رينهاردت، بحجة أنه لا يحوز على ثقة ستالين. وسعى جاهدًا لإقناع روزفلت بإبعاد نافذٍ آخر لستالين، هو لوي و. أندرسون Loy. W. Henderson، عن منصبه كمسؤول المكتب السوفياتي في مديرية

الدولة Département d'Etat، هذا رغم معارضة رئيسه الإداري، سكرتير الدولة كوردل هيل. وعندما التقى ستالين هوبكنز مرة ثانية، في طهران عام ١٩٤٣، قصده لمصافحته بحرارة. وفي مناسبة أخرى، أكّد ستالين على أن هوبكنز كان الأميركي الأول الذي تكلّم معه "من كل قلبه". وعلى كل حال، لم يجافِ هوبكنز ما اعتقد أنه مصالح أميركية. ومجمل القول أن سياسته تجاه الاتحاد السوفياتي ارتكزت على تقويم ثاقب لطاقة الجيش الأحمر، رغم هزائمه في البداية، رافقه اعتقاد ساذج بإمكانية صداقة دائمة مع ستالين عززته كذلك زيارته إلى موسكو عام ١٩٤١ واتصالاته بأخمروف. وقد صرحت اللجنة الرئاسية، برئاسة هوبكنز، والمولجة أمر البروتوكول السوفياتي، في آب ـ أغسطس ١٩٤٣ بما يلي: "منذ أن أصبح الاتحاد السوفياتي العامل الحاسم في الحرب، اقتضى أن يستفيد من كل الدعم الضروري. ويجب بذل كل الجهود لكسب صداقته. أكثر من ذلك، ولأنه سيسيطر ولا ريب على أوروبا بعد اندحارها أمام النازية، فإنه من المهم جدًا تنمية، لا بل المحافظة على أشد أواصر الصداقة معه".

مع أنه لم يكن هناك أي هوبكنز في حاشية تشرشل، فإن الاختراق السوفياتي في بريطانيا العظمى كان على الأقل على نفس الدرجة من الوضوح في الولايات المتحدة. والأكثر حظًا من بين هؤلاء العملاء السريين كان الخمسة الكبار المسجلون في كمبردج وقد اخترق أربعة منهم: "بورجيس"، "بلانت"، "فيلبي" و"كرنكروس"، الدوائر السرية البريطانية. وكان أول المخترقين "غاي بورجيس Guy Burgess"، وقد توفرت فرصة الاختراق عام ١٩٣٨ مع إحداث دائرة المخابرات السرية SIS لفرع مخصص بالضربات العتيقة هو دائرة "التدمير .Destruction D". فالضربات، الموصوفة على سبيل التلطيف على أنها طريقة "فتك بالأعداء بوسائل مختلفة عن العمليات العسكرية"،

لا يجب اللجوء إليها زمن السلم. وحتى دخول بريطانيا في الحرب، كانت مهمـة شعبة D ببساطة هي "تفحص كل الإمكانيات الممكنة". وقد اعتمدت إحدى هذه الإمكانيات على بث محطات راديو باتجاه ألمانيا وانطلاقًا من محطات غير مشروعة واقعة خارج المملكة المتحدة.

إن التجربة التي كان بورجيس قد اكتسبها من BBC، وعلاقاته الدولية التي استغلها بعناية، واتصالاته بدائرة المخابرات السرية SIS، جعلت منه المرشح الجاهز للشعبة الجديدة. فخلال أكثر من سنة مارس بورجيس، مستخدمًا سحره الهائل، دور الرئيس المساعد للاستخبارات السياسية "الشعبة I" الخاصة بدائرة الاستخبارات السرية SIS، "دافيد فوتمان" الذي كان قد قام بأول محادثة عبر الهاتف اللاسلكي عام ١٩٣٧. وقد أصبح كذلك مفيدًا لفوتمان باستخدامه كمرحِّل بينه وبين صديقه القليل الجانبية "إدواردو بيفيقر"، اللوطي والذي منح "غروورونوي ريس Grorонwy" "الإحساس بكل أنواع الفساد". وقد رأس بفيقر من نيسان ـ إبريل ١٩٣٨ حتى أيار ـ مايو ١٩٤٠ مكتب "إدوار دالاديه"، رئيس الوزارة الفرنسية. وخلال عام ١٩٣٨، قام بورجيس بعدة زيارات لباريس كمبعوث لآل روتشيلد، وهم أول مستخدميه بعد تخرجه من كامبردج. وحسب الرواية التي وضعها في ما بعد، فقد سلَّم رسائل سرية "من قبل بفيقر" إلى أمين سر وزرة الخارجية البريطانية، اللورد "هاليفاكس"، وكذلك إلى عدة شخصيات في الوايت هول، ووزارة الحرب البريطانية. بعد تخليه عام ١٩٥١، وضع رواية شديدة المبالغة عن مهنته قبل الحرب؛ أما في الحقيقة فهو لم يكن في هذه المرحلة إلاَّ مراسلاً سريًا بين قادة الحكومات الفرنسية والبريطانية، حاملاً آراء وطني غامض مرغوب (دالاديه) إلى بائع خردوات قروي جاهل (شامبرلين). ومع أنه لا يوضح ذلك، فقد قام بورجيس كذلك بوظيفة ساعٍ لدى الهيئة الشعبية

للعمل الداخلي NKVD. وكون مقر NKVD في لندن كان، موقتًا، عاجزًا من التأثير، فقد حمل إلى باريس بعض المعلومات التي يتسقطها بعض العملاء السوفيات في إنكلترا.

وفي كانون الثاني - يناير عام ١٩٣٩ وجد بورجيس وظيفة في شعبة D بمساعدة فوتمان. عاملاً، في الظاهر، في لجنة البث الإذاعي المختلطة. أنتج بورجيس أسطوانات باللغة الألمانية تتضمن خليطًا دعائيًا ومنوعات غنائية وألحانًا شعبية جاهزة للبث نحو ألمانيا في الوقت المناسب. وكان مسؤول شعبة التدمير D هو الكومندان، الذي أصبح لواءً في ما بعد، "لورانس غران Lawrence Grand" الشخصية المغمورة، الطويل القامة، والضعيف، الأنيق، ذو الشارب الأسود والقرنفلة المزروعة دائمًا على صدره والذي تماهى بالاسم المستعار "D" مفتقرًا لتجربة "الإجراءات الفعالة" التي تتمتع بها الـ NKVD للتأثير على الحكومات الأجنبية وعلى الرأي العام، وجاهل "بمسائل التوريط". تمتع غران، وحسب فيلبي الذي خدم وبشجاعة تحت إمرته في ما بعد، بفكر "حلّق بحرية وبرشاقة فوق كل مسؤولياته المريبة، ولم يتراجع بمواجهة أية فكرة جريئة، منكرة أم مجنونة". وقد اقتضى أن تدرس الـ NKVD وبعناية خاصة التفاصيل الكثيرة التي ينقلها بورجيس حول بداية "الإجراءات الفعّالة" البريطانية. غير أنه انهار كذلك أمام بعض مشاريع هذه الشعبة. وهذا هو أحد مؤلفي المذكرات، من ذوي الصفة الرسمية، يكتب في تاريخ المخابرات البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية معبرًا عن دهشته التي شاركته بها الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD، حين قراءته لخطة تقوم على شَنّ هجوم "يستهدف تدمير خط سيغفريد في الجنوب وذلك باستخدام لاجئينْ من اليسار الألماني أحدهما أصم تمامًا والآخر ضرير".

ومنذ البداية كانت أعظم مـأثرتين لبورجيس خـلال السنتين اللتيـن أمضاهمـا فـي دائرة المخابرات السرية SIS هو تسهيل دخول فيلبي إلى حرم البيت. فقد أمضـى هذا الأخير الأشهر التسعة الأولى من الحرب كمراسل لجريـدة التـايم Times قـرب مركـز قيادة الجيش البريطاني في أرّاس Arras. وفي حزيران - يونيـو ١٩٤٠، قبيـل هزيمـة فرنسا وإخلاء جيب دنكرك، عاد إلـى لنـدن واستغل اتصالاتـه للحصـول علـى مركـز إحدى الدوائر السرية. وكان أول حوار له، رتّبه صديق مشترك، هو مع "فرانك بيرش Frank Birch"، وهو أستاذ قديم فـي كمبردج، خدم كمحلـل لـلرموز، كمـا فعل خـلال الحرب الأولى، وتجنيد أشخاص لحسـاب الكـودا الحكوميـة GC ومدرسـة الشيفرة CS (GC & CS: المدرسة الحكومية للكودا والشيفرة في بريطانيـا العظمـى)، وهـي وكالـة للتنصت على المراسـلات، مركـز قيادتهـا فـي بلتشـلاي بـارك Bletchley Park. وقـد رفض بيرش أخيرًا ترشيحه "لسبب أغضبه وهو أنَّ هذا الترشيح لا يقـدم لـه مـا يكفـي من المال للتخلص من وضعه"، وهذه الحجة ليست مقنعة أبدًا؛ فالأساتذة الشباب الذيـن جندهم بيرش كانوا يتقاضون ٦٠٠ ليرة سنويًا، وهو المبلغ الذي لوحظ أن فيلبي قبضه في ما بعد عندمـا استخدمته دائـرة المخـابرات السـرية SIS، وهـي لـف MI-5، دائـرة الأمـن البريطانيـة. والأقـرب للمنطـق هـو أن بـيرش رأى ببسـاطة أنـه لا يسـتجيب لمقتضيات حـل الرمـوز. وبحـزن شـديد، راح ينتظـر نقلـه إلـى الجيش بعد خضوعـه لامتحان طبي.

في هذه المرحلة الصعبة من عمل فيلبي هبّ بورجيس لنجدة صديقـه. فقد دُعـي إلى حوار بخصوص "عمل حربي"، لصالح دائرة المخابرات السرية SIS، عمليًا. وقـد قـامت بـالحوار السيدة "مـارجوري ماكسـز Majorie Maxse"، وهـي إمـرأة فـي سـن متوسط وجذابة جدًا "أثارت مشاعره إلى حد بعيد. وناقشا آفاق أعمال سياسية لا بدّ من

القيام بها ضد الألمان في أوروبا". وبعد عدة أيام، وبمناسبة حوار آخر، رافق بورجيس السيدة ماكسز: "مطمئنًا لوجود غاي Guy، رحت أتظاهر بالدهشة، ذاكرًا بعض الأسماء بوقاحة محسوبة كما يحصل في مثل هذا النوع من اللقاءات. ومن وقت لآخر، كان محدثّاي يتبادلان نظرة ما؛ وكان غاي يوافق هازًا رأسه بوقار. وقد ظهر أنني أضيّع وقتي دون نتيجة ذلك أن قرارًا ما كان قد اتّخذ".

بعد قضاء عطلة نهاية الأسبوع في السكر مع صديقه، حضر فيلبي نهار الإثنين صباحًا وبشكل رسمي إلى مكتب بورجيس. في مقر قيادة شعبة D الواقعة في شارع كاكستون Caxton. كان بورجيس يحمل الإسم الرمزي DU؛ وأطلق اسم DUD على فيلبي. وقد ارتكز أول عمل لهذا الأخير على وضع خطة مفصلة لإنشاء وكالات للشعبة؛ والمقصود بذلك تجهيز مدرسة حقيقية للتدريب، تتخذ مواقعها في قاعة بريكوندونبيري Brichendonbury قرب هرتفورد. وقد عيّن بورجيس وفيلبي مدربين فيها.

أما الضابط المشرف على بورجيس وفيلبي والثلاثة الآخرين، أي الخمسة الكبار في الهيئة الشعبية للعمل الداخلي / مفوضية الشعب الخاصة بأمن الدولة NKGB/NKVD فكان، من سنة ١٩٤٠ حتى ١٩٤٤، "أناتولي بوريز" و"فيتش غورسكي" المعروف بـ"أناتولي غروموف"، والذي يناديه عملاؤه باسم "هنري". وحصلت لقاءاته الأولى مع بورجيس وفيلبي على مقعد في كيزنتغتون غاردن Kensington Gardens، غير بعيد من السفارة السوفياتية. وكان غورسكي من وزن آخر غير مالي ودوتش ولا شرعيّي الثلاثينات الآخرين. ولد عام ١٩٠٧، عُيِّن في لندن في مركز متواضع كعامل فني في السفارة السوفياتية دون وضع دبلوماسي. أما التطهير الذي استأصل كل مقر NKVD اللندني عامي ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ فأتاح له فرصة

القيام ببعض المهمات البسيطة في المخابرات وإنجاز مهمته. استُدعي إلى موسكو عام ١٩٣٩ لإكمال تدريبه، وتلقى ترقية وعاد إلى لندن كضابط في NKVD، عاملاً بغطاء دبلوماسي. وقد أخفى غورسكي مع ذلك سرًا أثيمًا يمكن أن يدمر انطلاق مهنته. وبناءًا على طلبات واستجوابات الـ NKVD، كان يكتب دائمًا أن والده كان مدرّسًا في منطقة كراسنويارسك Krasnoïarsk. عام ١٩٥٣، وبينما كان على أهبة أن يصبح رئيس القسم الأميركي في المركز، كشف تحقيق جديد أنّ المدرّس المزعوم كان في الحقيقة ضابطًا في البوليس القيصري وعلى هذا فقد أبعد عن مهماته. وقد وصفه أحد عملائه في زمن الحرب أنه "رجل صغير القامة، مُشحم، تجاوز الثلاثين، شعره أشقر مسرَّح إلى الوراء، ويضع نظارتين لم تتمكنا من إخفاء عينين ثاقبتين وباردتين". لقد كان قاسيًا، فعّالاً، عديم الظرف، يرتدي ثيابًا أنيقة ويعطي الانطباع "برخاوة ممتلئة". وقد أعلن بلانت Blunt في ما بعد أنه وجد هنري "عريضًا" وكريهًا. وعندما كشف غورسكي في آب - أغسطس ١٩٤٠، وبالرغم من القواعد المعمول بها في الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD، أن بورجيس وبلانت يتقاسمان منزل فيكتور روتشيلد اللندني في شارع بانتنك، حاول إقناع بلانت ترك مسكنه. إنما وإزاء رفض بلانت الإذعان لذلك، أقلع عن إصراره.

خلال إقامتهما في بريكندونبيري، لم يحصل لا فيلبي ولا بورجيس على أسرار ما على درجة من الأهمية لنقلها إلى غورسكي. "لم يكن لدينا ما نقوم به"، كتب فيلبي في ما بعد، "ما عدا الحديث مع القائد ومساعدته على تحرير تقارير نرسلها للقيادة، التي نادرًا ما تتفضل بالإجابة عليها". خلال صيف عام ١٩٤٠، ضُمَّت شعبة التدمير D إلى منظمة جديدة هي العمليات الخاصة التنفيذية (بالإنكليزية SOE Special Operations Executive) والتي أراد منها تشرشل أن "تحرق أوروبا" باستخدام خيالي للحرب

المدمّرة. ومع أن بورجيس لا تنقصه المخيلة، فإن وقاحته لم تعجب أبدًا رؤساءه الجدد. ولكنه كان يتذمر باحتقار ففُصِل، ووقع "ضحية" مكيدة بيروقراطية". وقد يفي فيلبي في العمليات الخاصة التنفيذية SOE التي أرسلته لتعليم المجندين في مدرسة بوليو Beaulieu للتنشئة في هامبفير Hampshire. وقد كان عليه أن يكتب، بخصوص هذه النقطة، أن SOE تفرض على عملائها "توجيهًا سياسيًا لكي يكون لديهم، وفي ما يخص أماكن عملياتهم، فكرة عامة عما يدور في رأس الحكومة البريطانية بالنسبة للمستقبل". وقد تذرّع فيلبي بشتى الأعذار للتوجه إلى لندن، حيث كان يضاعف لقاءاته مع الزعيم المقبل لحزب العمال، هيغ غتسكل Hugh Gaitskell، والذي كان حينها مسؤول مكتب وزير الاقتصاد الحربي عن حزب العمال هيغ دالتون، وكانت SOE تخضع لهذه الوزارة، وحسب فيلبي، فإن دالتون كان "مستعدًا دائمًا لاستقبالك مع ويسكي بالصودا".

وكونهما قد تسلّلا عبر التصور المشوّه لاعتقادات فيلبي وعبر واقع أن النوايا البريطانية تقوم بنظره على التآمر، فإن كل كلام قاله هذان الشخصان يرن في أذنه على أنه ضد الاتحاد السوفياتي:

"لقد ظهر غالبًا أن إنكلترا أرادت ببساطة العودة إلى ما قبل الوضع الراهن Statu Quo Ante، أي العودة إلى أوروبا الخاضعة طوعًا إلى بريطانيا العظمى وفرنسا بواسطة حكومات رجعية قوية بما فيه الكفاية لتبسط النظام على شعوبها والمحافظة هكذا على النطاق الصحي حول الاتحاد السوفياتي". وعندما علم بفرار هيس إلى انكلترا في ١١ أيار ـ مايو ١٩٤١، استنتج فيلبي، زورًا أن في ذلك البرهان عن مؤامرة مدلهمة بين المتوافقين مع المقامات الرفيعة والإدارة النازية. وعام ١٩٩٠ كذلك، فإن لجنة أمن الدولة KGB لوّحت بأحد تقاريرها مؤكّدة

على أن هيس "كان يحمل معه اقتراحات سلام من الفوهرر وكذلك خطة غزو للاتحاد السوفياتي".

مرسلة إلى موسكو بتكليف من غورسكي، فإن هذه النظرات المغرضة حول مشاريع وزارة الحرب البريطانية Whitehall بخصوص ما بعد الحرب استخدمت، إذا اقتضى ذلك، لتعزيز النظريات الستالينية السائدة منذ زمن طويل حول دسائس الإنكليز المزعومة. وتعد هذه المساهمة في تعزيز حذر موسكو من نوايا لندن من أفضل الأمور التي قام بها فيلبي خلال الحرب.

بعد ٢٢ حزيران ـ يونيو ١٩٤١، يوم انفجار عملية برباروسّا، حاول فيلبي، بتحريض أكيد من غورسكي، بإلحاح "ترك شجرات الغار في بوليو"؛ فقد وجد أخيرًا موقعًا أقرب إلى مركز جماعة الاستخبارات البريطانية. وقد أُقترِح عليه العمل في شعبة الـ V، أي شعبة التجسس المضاد، من إدارة المخابرات السرية SIS والتي اهتم قسمها الفرعي الإيبيري بالمؤهلات التي اكتسبها عندما كان صحافيًا مراسلاً خلال الحرب الإسبانية الأهلية. أما انطلاقه من العمليات الخاصة التنفيذية SOE فلم تحرم، ومن هذا الواقع بالذات، الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD من مخبرين داخل هذه الدائرة. ومن المحتمل جدًا أن عميله المجهول الأساسي داخل العمليات الخاصة التنفيذية SOE أصبح إذن الرفيق القديم في مدرسة ماكلين Maclean ومعاصرة في كمبردج، "جيمس كلوغمان" والذي انتقل، بعد إعلان الحرب، من دور مخرب الخلايا الموهوب لحساب NKVD ومن العلنية الحزبية إلى دور العميل السري النشيط. لقد دخل كلوغمان إلى القسم اليوغوسلافي من SOE (المخابرات البريطانية) في القاهرة، في شباط ـ فبراير ١٩٤٢ وتوصل إلى رتبة القائد. وخلال كل مدّة تعيينه في القاهرة، سمح له ذكاؤه وسحره وكونه يتكلم بطلاقة العربية ـ الكرواتية، بممارسة تأثير متفاوت

من موقعه. وعلى حد قول مسؤوله "بازيل دافيدسون" فإن "بإمكانه أن يتناول بأريحية كل المواضيع تقريبًا، غير أنه كان يفضل الكلام بالسياسة تحديدًا".

دخلت اجتماعات التعليمات التي يحضرها الضباط الحلفاء الذين عليهم النزول بالمظلات فوق يوغوسلافيا ضمن صلاحياته. وكان يشير دائمًا أمامهم إلى فضائل أنصار تيتو الشيوعيين ورذائل تشينتنيكس Tchentniks ميهايلوفيتش Mhaïlovitch الملكيين ومصرحًا أمام مجموعة من الضباط الكنديين: "ينبغي أن تروا أن هذه الحرب أصبحت أكثر من حرب ضد شيء ما، ضد الفاشية. لقد أصبحت حربًا من أجل شيء ما، من أجل شيء ما أعظم: من أجل التحرر الوطني، من أجل تحرر الشعوب، من أجل التحرر من الاستعمار".

ومن نيسان ـ إبريل حتى آب ـ أغسطس ١٩٤٥، قام غولكمان في يوغوسلافيا بمهمة عسكرية مستعجلة بالقرب من قوات تيتو. وكستاليني وفيّ، كان عليه في ما بعد أن يبتلع الكثير من هذه الكلمات التي كان قد نطق بها خلال الحرب. وعندما اختلف تيتو مع ستالين عام ١٩٤٨، وضع كتابًا في نقده.

هناك عميل سوفياتي آخر تسلّل إلى العمليات الخاصة التنفيذية SOE في الحقبة ذاتها ويستحق الذكر. ففي نيسان ـ إبريل ١٩٤٣، اكتشفت دائرة الأمن البريطانية MI-5 أن دوغلاس سبرينغهال Douglas Springhall، زعيم منظمة الحزب الشيوعي في بريطانيا، والذي كان ينفذ بالمناسبة مهمات بسيطة لصالح الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD، حصل على معلومات سرية بواسطة أوزموند أورن Osmond Uren الضابط الإسكتلندي الشاب في رئاسة الأركان والتابع إلى القسم الهنغاري من وكالة SOE، في مركز قيادة هذه الوكالة في لندن. وقد حكم على سبرينغهال بالسجن سبع سنوات لحيازته على أسرار خاصة بوزارة الطيران، وهذا ما لم يتوافق تمامًا مع الحقيقة. وقد

حكم كذلك على أورن بالسجن سبع سنوات. وقد صرح في ما بعد هازئًا أنه لو كان في كامبردج وليس في جامعة أدنبرغ لتمكن من الخروج.

بعد تركه SOE، بدأ فيلبي، في كانون الأول - ديسمبر ١٩٤١، عمله في القسم V التابع لدائرة المخابرات السرية SIS. ورغم أن هذه الدائرة تقع في شارع سان ألبان، وليس كما تمنى في البرودواي بولدنغز Broadway Buldings ـ مركز قيادة SIS في لندن - فقد ضمت ملفات دائرة المخابرات السرية البريطانية SIS. وبدون تأخير اهتم بصداقة موظف الأرشيف بيل وودفيلد Bill Woodfield، والذي يحب مثله مشروب الـ"جين". غير مرتاح لمطالعة الملفات حول إسبانيا والبرتغال، علم فيلبي "بقائمتين من المصادر" ترد فيها كل التفاصيل عن عملاء دائرة المخابرات السرية البريطانية SIS العاملين قبل الحرب ضد الأهداف السوفياتية. وقد نقل هذه المعلومات بأمانة إلى غورسكي.

إن المعلومات الأهم التي تلقتها الشعبة الفرعية الإيبرية التابعة للقسم V هي دون منازع اتصالات "الأبوير": دائرة استخبارات رئاسة الأركان الألمانية "Abwehr"؛ ونتيجة حصرها ثم حل رموزها عام ١٩٤٢، قدّمتْ هذه المعلومات "صورة واضحة جدًا" عن عمليات التجسس الألمانية الحاصلة في إسبانيا والبرتغال. ومن بين هذه، والتي لفتت بأكثريتها انتباه فيلبي، كانت هناك رسالة تتكلم عن زيارة سيقوم بها إلى إسبانيا قائد الأبوير ويلهلم كاناريس شخصيًا، وعن تفاصيل خط سير هذه الرحلة. كان على كاناريس بشكل خاص أن يقضي ليلة في فندق صغير يقع بين مدريد وسفيل Seville. وقد أوحي فيلبي أن العمليات الخاصة التنفيذية البريطانية SOE ستحاول قتله. وافق فليكس كويجيل Cowgil مسؤول القسم V على هذا الاقتراح ونقله إلى مدير دائرة المخابرات البريطانية السرية SIS السير ستيوارت مانزي. وبعد عدة أيام، اطلع

كويجيل فيلبي، على الجواب. وقد ورد في مذكرات هذا الأخير أن مانزي قد يكون كتب: "لا أريد أن يصاب الأميرال بأي سوء". وقد اعتقد المرتاب فيلبي أن هذا الإيعاز يشهد مرة أخرى على وجود خطة محادثات سرية مع ألمانيا النازية. ولم يخطر في باله أن مانزي يأمل بالتوصل إلى رد كاناريس، المناهض لهتلر، ويجب إعدامه على خيانته قبل شهر تقريبًا من يوم النصر بالإضافة إلى أن مانزي أكد في ما بعد أمام فيلبي: "لقد فكرت باستمرار أنه قد يكون باستطاعتنا القيام بشيء ما مع الأميرال".

وقبل عدة أشهر من وفاته، اعترف فيلبي، بأن غورسكي اهتم خصوصًا بالمعلومات المتعلقة بمشاريع بريطانيا، غير الموجودة، عن سلام منفصل من ألمانيا النازية والتدابير المرصودة لتحويل هذه الحرب إلى حرب ضد الاتحاد السوفياتي. وقد كلّف غورسكي فيلبي، أن ينقل له ليس فقط المساعي المبذولة في هذا الاتجاه، بل أن يستخدم كل ما بوسعه لإجهاضها. وقد فسَّر العميل السوفياتي هذا الطلب على أنه يجب أن يطبق بالأحرى على الاتصالات البريطانية مع المعادين للنازية وليس مع النازيين. وكان ستالين يخشى إسقاط هتلر من قبل أعداء النازية الذين قد يعقدون السلام مع الحلفاء الغربيين ويلتحقون بهم لمهاجمة الاتحاد السوفياتي. إن مشيئة أعداء النازية في مفاوضة الغرب كان لها في نظره سيئة إضافية وهي إيجاد منافس بديل فعلاً للهيئة (هيئة التحرير الوطني الفرنسية) مقابل ألمانيا حرة تكفلها موسكو ويريد أن يراها تحكم ألمانيا ما بعد الحرب. وقد أكد ضباط متقاعدون، من دائرة الأمن البريطانية MI-5 على أنه من بين المعلومات التي قدمها فيلبي، إلى غورسكي، تتدرج لائحة من متطرفين كاثوليك ألمان كانت قد سلمت إلى الإنكليز من قبل هارب كاثوليكي من الأبوير؛ وقد سجلته الهيئة للعمل الداخلي NKVD لتصفيته بعد الحرب.

وخلال مدّة تكليفه في سانت ألبان، كان فيلبي يقصد مرة في الأسبوع مركـز قيـادة دائرة المخابرات البريطانية السرية SIS في برودواي بولدنغ، لزيارة أكبر عـدد ممكـن من الضباط الكبار... كان ينخرط كذلك طوعًا في خدمات الليل فـي برودواي مـرة أو مرتين في الشهر... "تجربة ذات فوائد، إذ ترد كل ليلة برقيات من كل أنحـاء العـالم، ملقية أضواء جديدة على عمليات الدائرة". وهناك ملف، يمكن أن يحصل عليه ضـابط النوبة الليلية، كان غورسكي يهتم به بشكل خاص ويتضمن الاتصال المتبادل بين وزير الحـرب والبعثـة العسكرية البريطانيـة فـي موسـكو بواسـطة الاسـتخبارات السـرية البريطانية SIS.

وفي عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٣ وسّع كويجيل Cowgill مجال مسؤوليات فيلبي ملحقًـا به منطقتي أفريقيا الشمالية وإيطاليا. وأخيرًا جعل منه معاونه "في كل المسائل المتعلقـة بالمخابرات". وهكذا أحس فيلبي بثقـة متزايدة حـول مستقبله فـي دائـرة الاستخبارات السرية البريطانية SIS.

في عام ١٩٤٣، انتقلت الشعبة V إلى شارع ريدر في لندن علـى مسـافة دقيقتيـن سيرًا على الأقدام من مقر قيادة الأمـن البريطانيـة MI-5 الموجـود فـي شـارع القديـس جايمس، وعلى مسافة ١٥ دقيقة من برودواي بولدنغ. وقـد كـان لفيلبـي دائمًـا الفرصـة المناسبة للاتصال بها. وفي بداية عام ١٩٤٤ وإثر اكتشاف قضيتي تجسـس سـوفياتيين عوقب عليها المتهمان "دوغلاس سبرينغهال" و"أوزموند أورن" بالسجن، أنشـأت دائـرة الاستخبارات السرية SIS القسـم IX الجديـد "لدراسـة كـل التقـارير القديمـة التـي علـى علاقة بالنشاطات السوفياتية والشيوعية". وفـي البدايـة كلّـف بقيـادة هـذه الشـعبة، التـي أنشئت لتعزيز عمليـات الهروب، جـاك كيري Jack Currie، الضـابط المفصـول مـن دائرة الأمن البريطانية MI-5 والذي يقترب من التقاعد. "وبنهاية عام ١٩٤٤"، وحسـب

فيلبي، "لم يكن المطروح في الدائرة إدارة المدير في تنمية الشعبة، فلا ملاك ولا مصادر. ويقتضي أن يعود المركز لكويجيل، لكن عليّ أن أناور للحصول عليه". وقد أبلغه المركز في موسكو عن طريق غورسكي: "عليّ القيام بأي شيء، القيام بالمستحيل للحصول على تعييني على رأس الشعبة IX... لقد فهموا تمامًا أن ذلك يعني أن على كويجل أن ينسحب". وبمناورة تقليدية بيروقراطية هي طعنة في الظهر، فبموازرة العدو اللدود لكويجل أي فالانتين فيفيان، المدير المساعد لدائرة الاستخبارات السرية البريطانية SIS، تخلى فيلبي عن منصبه واستقال كويجيل. وكما كتب في ما بعد، روبير سيسيل أحد زملائه فقد "تخلص بهذه الضربة الوحيدة من أحد المعادين للشيوعية الأوفياء وتأكد له أن كل الجهد المقبول بعد الحرب لمناهضة الجاسوسية الشيوعية سيعرف به الكرملين. وقد سجل تاريخ الجاسوسية القليل من الأعمال الرائعة المشابهة، إذ كان هناك من أعمال رائعة في هذا المجال".

من وجهة نظر KGB جعل هذا "العمل الرائع" المستغل إلى أقصى الحدود غداة الحرب، من فيلبي، الأكثر بروزًا من بين الخمسة الكبار Magnificent Five. وباستثناء هذا الأخير، فإن من قُدِّرت خدماتهم خلال الحرب أكثر من غيرها هما بلانت وكارنكروس. ويشير الملف الأول من بين ملفات العمليات حول بلانت ـ المغلفات السميكة الكرتونية السمراء النائمة في أرشيفات الـ KGB ـ إلى أنه احتاج إلى سنتين تقريبًا من الجهد للتسلل إلى دائرة الأمن البريطانية MI-5. وفي نهاية عام ١٩٣٨، متغلبًا على الاشمئزاز الذي أصابه في ماربورو Marborough بسبب هيئة الضباط المدرسين، ها هو ينخرط بالخدمة العسكرية. وكما أقرَّ بذلك شخصيًا في ما بعد، فقد "استخدم، أو بالأحرى استغلّ العلاقات التي كان قد نسجها أخوه كريستوفر مع الجيش البري وذلك ليحاول إقناع وزارة الحرب لنقله إلى احتياطي الضباط السريع. ولم ينجح

في ذلك. وقد قام بالمحاولة نفسها عشية الحرب العالمية الثانية. وبسبب الارتباك الذي يلف وزارة الحرب، تلقى جوابين إثنين من ساعي البريد ذاته: رسالة موافقة ورسالة رفض. مزق الثانية، وفي تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٣٩، راح يتلقى دروسًا في مانلي مانور من أعمال هامبشاير خاصة بمبادئ الاستخبارات العسكرية. بعد ذلك بعدة أيام، طرد من الصف واستدعي إلى وزارة الحرب بعد أن أشار تقرير صادر عن دائرة الأمن البريطانية MI-5 إلى علاقاته السابقة بالشيوعيين. وخلال حوار له مع المدير المعاون للاستخبارات العسكرية الذي كان يكره MI-5، أعطى تبريرًا شافيًا وعاد إلى مانلي مانور لمتابعة تحصيله. وتخرَّج برتبة كابتن في شرطة أمن الميدان وأرسل إلى فرنسا مع الحملة العسكرية البريطانية، وكان على رأس شعبة من إثني عشر رجلاً. وحسب شهادة واحد من بينهم، فقد كان لديه الكثير من السحر الفاتر، غير أنه كان ضابطًا يائسًا".

وخلال إقامته في فرنسا، كتب بلانت إلى أصدقائه في لندن؛ وكان يتذمر من أن عمله ليس له أي معنى وهو يلتمس مركزًا له في دائرة الاستخبارات السرية البريطانية SIS أو في دائرة الأمن البريطانية MI-5. وقد سنحت له الفرصة مع مأساة دنكرك وإخلاء الحملة العسكرية البريطانية في حزيران ـ يونيو ١٩٤٠. وقد أواه فيكتور روتشيلد، صديق بلانت الذي كان يعمل حينها في الـ MI-5، في مسكنه الواقع في شارع بانتنك Bentinck المتصل بشارع أكسفورد وقدمه إلى غاي ليدّل Guy Liddel، مدير الفرع B المضاد للجاسوسية في MI-5. وقد جنّده ليدّل رغم الاعتراضات التي قدمتها MI-5 قبل ذلك بتسعة أشهر. وخلال عدة اشهر، كُلِّف بلانت مراقبة سفارات البلاد المحيادة، وخاصة تلك التي كانت مهيأة لتكون أهدافًا لدوائر التجسس المعادية. وبرهن عن مهارته في تأخير البريد الدبلوماسي ما يكفي من الوقت لمعاينة مضمونه.

وقد وجد روبير سيسيل أن بلانت "بارد مثل الخيار ومفتون علنا بالموقف". وقد توصل بلانت ببراعة إلى اكتساب رضى رؤسائه، مما حدا بديك وايت، "المدير العام اللاحق لـ MI-5 و SIS معًا، أن يذكّر في ما بعد بأن بلانت "كان يمارس عملية إغراء حقيقية على الشخصيات المهمة ليتأكد من أنهم يحبونه جيدًا. وبما أني كنت أهتم بهذه المهارة، فقد اعتاد أن يجلس إلى جانبي في المطعم بهدف الثرثرة. لقد خاننا جميعًا. كان رجلاً شديد السحر والكياسة، أحببت التحدث إليه من كل قلبي. لن تستطيع أن تتخيل أن يكون المرء مغدورًا ممن عمل معه جنبًا إلى جنب، أو على الأقل أن تمروا بالتجربة ذاتها"

إن ملفات بلانت المحفوظة في أرشيفات KGB تعطي فكرة عن الأثر الذي خيَّم على المركز مع تسلله إلى دائرة المخابرات MI-5. وخلال السنة الأولى فقط، تزايد حجم المعلومات التي نقلها بلانت إلى غورسكي إلى درجة أصبحت معها MI-5 أحد العملاء الأكثر عطاء في تاريخ KGB. وتبيِّن ملاحظات غورسكي المرفقة بهذه الملفات بأنه قلق من جراء رؤيته يعمل بهذه الصلابة من أن يصيبه الضنى من جراء سهر الليالي التي كان يحييها في تصوير ملفات MI-5، ومن جراء الإزعاج الدائم الناجم عن التوتر المتراكم بسبب الحياة المزدوجة. ومع ذلك، قلّما لاحظ زملاء بلانت عليه علامات تعب كهذه أو توترًا. صحيح أن القسم الأكبر من هذا الاضطراب كان ينجم عن السخط الذي يشعر به أمام ضابطه المسؤول والذي كان لا يرتاح إليه أبدًا. إضافة إلى ذلك، فإن رفض بلانت للمال كان يثير فيتين، مسؤول إدارة تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO السوفياتية. مع بداية عام ١٩٤١، عاد فيتين إلى هذا الموضوع، وسبب ذلك دون ريب هو إعطاء INO وسيلة ضغط في حال تبين يومًا ما أن بلانت ليس سوى عدو متمرد. وفي صيف العام ذاته، تمكن غورسكي من إقناع عميله بقبول ٢٠٠ جنيه استرليني. وبعد ذلك، قبض هذا ثلاث أو أربع مرات في السنة

أموالاً بلغت قيمتها ما بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ جنيه. وتتضمن ملفات بلانت في KGB كلمات الشكر والإيصالات عن كل دفعة في ملفاتها الأصلية.

وفي ما هو يتقدم بقراءة ملفات بلانت، أصاب الذهول غورديفسكي من ورود هذه الملاحظة دوريًا، كل ٥٠ صفحة تقريبًا الواقعة بين صيف أو خريف ١٩٤١ ونهاية الحرب: "تبعث قيادة الأركان العامة بتقديرها العالي وتطلب تقديم تحياتها للعميل". إن مثل هذه الملاحظات المحفوظة في ملف أي عميل كانت غير عادية حسب تجربة غورديفسكي. إن التهاني التي كان يعبِّر عنها المركز والأركان العامة دوريًا استمرت تعزز عند بلانت الشعور بأهميته. إن ملفات بلانت في الـ KGB تشكل بوضوح مساهماته الأساسية الثلاث. فهي تقدم أولاً كما قال غورديفسكي ذلك لنفسه "كل التفاصيل المتيسرة والتي يمكن تخيلها" حول دائرة الأمن البريطانية MI-5، بما في ذلك حول عملائها، ووصل الأمر به إلى الاطلاع على ملفات هي حتمًا ليست من مسؤوليات الشعبة B. ومن المؤكد أن بلانت كان يمضي العديد من الليالي في ممارسة التصوير. ثانيًا كان بلانت يبلِّغ ثمرة مراقبته الخاصة للسفارات المحايدة. ثالثًا لقد نقل معلومات مميزة حول تسلسل معارك الجيوش الألمانية وعملياتها، وبمرور الزمن، نجح في وضع اليد على كل عناصر "نظام التسميم"، وقد سلَّم الإنكليز عبره معلومات خاطئة للألمان بواسطة عملاء "تابعين" لدائرة استخبارات رئاسة الأركان الألمانية Abwehr. أما مصدر توثيقه حول نسق المعركة الألمانية فكان تلميذه القديم "ليو لونغ".

عندما تخرّج لونغ من كلية الثالوث عام ١٩٣٨ حاملاً دبلومه، كانت الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD في بريطانيا في اضطراب فعلي. وكان المركز في لندن في وضع ميؤوس منه تمامًا. ولم ترسل موسكو أي توجيه واضح حول مستقبل لونغ، الذي أمضى السنة الجامعية ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ يمارس التعليم في فرانكفورت بهدف

التعرف إلى ألمانيا النازية عن قرب. ومع بداية العمليات الحربية التحق بفوج مشاة أكسفورد وبوكس Bucks الخفيف، غير أنه استخدم معرفته بالألمانية لتعيينه برتبة ملازم، في جهاز المخابرات، وفي كانون الأوّل ـ ديسمبر عام ١٩٤٠ في MI-14 التابعة لوزارة الحربية، والتي تجمع وتحلّل المعلومات حول تنظيم الجيش الألماني. وهنا دخل بسهولة إلى المعلومات "الحساسة جدًا Ultras" الصادرة عن الفك الناجح على يدي بلتشلي بارك، في أيار ـ مايو عام ١٩٤٠، لمؤشر سلاح الطيران الألماني الخاص بجهاز الشيفرة "إنيغما". وعندما تم اختراق نظام "إنيغما" الخاص بالجيش الألماني في عام ١٩٤٢، اطلع لونغ كذلك على عمليات فك الرموز هذه. ومع بداية عام ١٩٤١، أعاد صلته مع بلونت؛ وكما قال عن ذلك في ما بعد "فإن بلونت بدأ بالحديث من حيث انتهينا" وطلب منه جمع أية معلومات قد تكون نافعة للسوفيات". وقد اعتادا على اللقاء كل أسبوع عند الغداء في حانة بورتمان سكوير أو سناك بار ريْنر في شارع جرمان. وكان لونغ يمد خفية من تحت الطاولة ما وصفه لاحقًا بأنه "نوع من نسخة مكثفة عن تقدير أسبوعي وضعته الشعبة. ولم يحاول بلونت ابتزازي بالتهديد أو تخجيلي إذ إننا نتقاسم في العمق الالتزام ذاته بالقضية الشيوعية".

إن ملف ليو لونغ المحفوظ في الـ KGB يفك لغزًا أغرق دوائر المخابرات الغربية، وكذلك العديد من المؤلفين المتخصصين في القضايا الجاسوسية، في الحيرة منذ ارتداد موظف الشيفرة السوفياتي إيغور غوزانكو عام ١٩٤٥ في أوتاوا. إن أهم تحقيق نقله غوزانكو وكان له الأثر الكبير على عمليات وكالة الاستخبارات العسكرية السوفياتية GRU، ارتبط بوجود شبكة من العملاء السوفيات في كندا ووجود تجسس نووي. غير أنه كشف كذلك عن وجود عميلين للـ GRU حملا الاسم الرمزي ذاته وهو :إللي Elli". وكان الأول منهما هو السيد كي ويلشر Kay Willsher، الكاتب

المساعد في محكمة "هاي" البريطانية والذي صدر بحقه حكم بالسجن ثلاث سنوات في أذار ـ مارس عام ١٩٤٦ لمخالفته قانون الأسرار الرسمية. ولم يكن غوزانكو على علم بهوية "إللي" الآخر، الذي يعمل في بريطانيا كما قال. ومع ذلك فقد قدم سلسلة من الشارات الناقصة والمشوّشة والمحرّفة أحيانًا. وفي ما بعد، اضطر بيتر رايت لأن يتذكر: "كان يقول أن هناك جاسوسًا في "الخمسة الخاصة بـ MI" (التي تكتب MI-5 وهو رمز دائرة الأمن البريطانية). وقد علم ذلك من صديق هو ليوبينوف، كان قد عمل إلى جانبه في صالة الشيفرة ذاتها التابعة للـGRU في موسكو عام ١٩٤٢... هناك شيء ما روسي في قضية إلّلي، قال غوزانكو، إما في محيطه وإما لأنه زار روسيا أو كونه يتقن الروسية. كان إلّلي جاسوسًا أساسيًا، ذلك لأنه كان باستطاعته إخفاء أرشيفات الـMI-5 في الملفات الخاصة بالروس في لندن... ويقول غوزانكو كذلك إنّه عندما كانت تصل برقيات إلّلي إلى موسكو، كان هناك إمرأة حاضرة دائمًا في صالة الشيفرة تقرأ أولاً الحل وتحمله إذا اقتضى الأمر مباشرة إلى ستالين". وعند الاستجواب الأول بعد ذلك بعدة سنوات، عدّل غوزانكو بعض تفاصيل شهادته الأولى فـ"خمسة الـ MI" أصبحت ببساطة "MI". غير أن العميل كان في هذا الوقت غارقًا في السكر؛ وقد جعلت ذاكرته المضطربة أكثر فأكثر توضيح قصة "إلّلي" الآخر أمرًا صعبًا.

أما إلّلي الآخر فكان هدفًا للعديد من المواصفات المغلوطة، فقد ظُنّ أنه روجر هولّيس وكيم فيلبي على سبيل المثال. عمليًا، فإن إلّلي كان ليو لونغ نفسه. وقد ظهر اسم الكودا هذا بأحرف كبيرة على الغلاف المقوّى لملفه في عمليات الـ KGB ـ ملف رقيق بشكل استثنائي ـ . وبالتوافق مع الطرق المرعية الإجراء في الـ KGB، كان على بلونت أن يحرّر تقريرًا بعد كل لقاء من لقاءاته مع لونغ، غير أنه كان متعبًا إلى

حد بعيد على العموم أو مشغولاً بوضع هذا التقرير. ومع أنه رقيق، يوضح هذا الملف بعض التفاصيل الغامضة من تقرير غوزانكو؛ أما ما بقي غامضًا منه فناجم عن ذاكرة المرتد السوفياتي المختلة، وربما كذلك ذاكرة رايت، وعن معرفته الجزئية بالقضية. فهو يتذكر أولاً أن لونغ كان على اتصال مع وكالة الاستخبارات العسكرية السوفياتية GRU عام ١٩٤٣، بينما كان حينها عميلاً للـNKGB/NKVD[1] يشرف عليه بلونت. ولشدّ ما كان يزعجه هذا التطفل؛ وعلى هذا فقد تمنى على بلونت أن يسأل موسكو باسمه وذلك لكي يعرف لحساب مَنْ عليه أن يعمل. نقل غورسكي الرسالة فأجابه المركز: "لحسابنا". وقد وافقت الـ GRU على التخلي عن اتصالاتها المقبلة مع بلونت. في هذه الظروف التقى غورسكي لونغ لأول وآخر مرّة، مثبتًا له أن الـ GRU لن تلح عليه بعد الآن. إن واقع وصول معلومات لونغ إلى المركز بشكل تقارير كتبها بلونت يفسّر حيرة غوارنكو. إن بلونت وليس لونغ هو "الذي كان لديه الإمكانية في إخفاء ملفات الروس في لندن من أرشيفات الـ MI-5. إن التعبير "خمسة الـ MI" يمكن أن تعني ببساطة MI-5، أي الرجوع إلى بلونت، المشرف على لونغ. غير أن هذا التعبير قد يكون كذلك تركيبة من MI، حيث عمل لونغ، ومن "الخمسة"، مثل غورديفسكي قراءة مستندات ملف لونغ المفصّلة جدًا عن نسق المعركة الألماني، تساءل: "هل كان البريطانيون يتصرفون فعلاً بمثل هذه المصادر الإنسانية العجيبة؟" وقد اطّلع كذلك على المستندات العائدة لاعتراض الاتصالات وأدرك أن عمليات الإصغاء مثلث المصدر الرئيسي لاستعلام لونغ.

---

١ - NKVD: الهيئة الشعبية للعمل الداخلي. NKGB: مفوضية الشعب لأمن الدولة.

من أجل الكشف على المعلومات "الفائقة الحساسية Ultra"، لم تحوّل موسكو مباشرة على عملائها. فبعد الغزو الألماني بعدة أيام تقريبًا، راحت لندن تمدّها رسميًا ببعض هذه المعلومات بشكل مموّه. وهذا ستيوارت مانزي، مدير دائرة المخابرات السرية والذي كان يرأس مدرسة الكودا والشيفرة الحكومية ينبه تشرشل من الخطر الناجم عن نقل المعلومات الصادرة عن عمليات فك "الإنيغما" مهما كان شكل هذا النقل وذلك نظرًا للخطر الذي تمثله أنظمة الشيفرة السوفياتية. وحسب الرأي السائد في البلتشلي بارك Bletchely Park.

"أن تقول للروس إنني قرأت إنيغما، يعني ذلك أن نقول للألمان كذلك"[١]. وحوالي شهر تموز ـ يوليو من عام ١٩٤١، كانت ULTRA قد كشفت أن الألمان فكّكوا رموز بعض الاتصالات البحرية السوفياتية، وكذلك بعض إشارات الفرقة السابعة عشرة الجوية المتمركزة في منطقة لينينغراد. وابتداءًا من الرابع والعشرين من حزيران ـ يونيو، استبعد تشرشل اعتراضات مانزي وأمره بنقل معلومات "سرية جدًا" مموهة إلى الروس عن طريق البعثة العسكرية البريطانية في موسكو و"ذلك لتفادي أية مخاطرة". وابتداءًا من هذا اليوم، أصبح أي تقرير مهم عن التنصت ومفيد للجبهة الشرقية يصل إلى يده. وكان رئيس الوزراء يكتب بسرعة على الهامش: "هل تم نقل هذا إلى جو؟" وكان يتم تمويه المصدر الحقيقي لهذه المعلومات المرسلة إلى ستالين بصيغ من نوع "مصدر موثوق في برلين" أو "مصدر فائق الثقة" أو "ضابط من وزارة الحرب الألمانية". أما تحديد هوية الوحدات والتفاصيل الأخرى والتي قد تكون سمحت للروس أن يستوعبوا أنّ كل ذلك ناجم عن عمليات التنصت فكان يتم بثها بتأنٍ. وفي ١١ تموز ـ يوليو عام ١٩٤٢ مثلاً حلت البلتشلي بارك التحويل التالي:

---

١ - Calvocoressi Peter, *Top secret Ultra*, Cassell (Londres,1980), P. 94.

"١ـ ينتظر ضغط متصاعد للعدو على جبهة الجيش الثاني. من المستحب تثبيت الجزء الأكبر من القوى العدوة في مكانها آخذين بالاعتبار أن عمليات الجيش في الشرق هي كلٌ واحدٌ.

"٢ـ إن مهمة مجموعة جيوش فون وِش Von Weichs مع مساعدة الجيش الثاني الهنغاري لها، هي الاستيلاء على جبهة دونتس Donets بين مصب نهر بوتيدان ومصب نهر فورونيج، وكذلك رأس جسر فورونيج والوضع الحالي على خط أولشواتكا ـ أوزرك ـ بورك ـ محطة كوتيش (إلى الشرق من دروسكوفو)".

بعد يومين تم نقل هذه البرقية إلى موسكو عبر البعثة العسكرية البريطانية بالصيغة التالية: "لإعلام قيادة الأركان الروسية. إن لوحتنا الإجمالية، ذات المصادر المتنوعة تقدم إشارة واضحة إلى أن الألمان والهنغاريين ينوون تثبيت الروس على جبهة ليفني ـ فورونيج ـ سفوبودا، بينما ستتقدم قوى مؤلّلة إلى الجنوب الشرقي بين نهري الدون والدونتز".

وخلال صيف عام ١٩٤١، وصل إلى موسكو ضابط استخبارات من سلاح الجو البريطاني حاملاً عناصر كودات تكتيكية خاصة بسلاح الجو الألماني Luftwaffe، والإمدادات البحرية وشارات الدلالات؛ وتلقى كبديل عنها موادًا مماثلة. بعد ذلك بمدّة قصيرة قَدِم ضابط آخر من الاستخبارات العسكرية وأودع ملفات متعلقة بأنظمة الراديو الخاصة بالجيوش البرية الألمانية؛ وشرح من ناحية ثانية كيفية اختراق المراسيل الألمانية المكتوبة والمشفَّرة. شكره الروس وسلموه بعض الملفات التي وقعت بين أيديهم، لكن لا شيء يتعلق بعمليات التنصت. وراحت وزارة الحرب البريطانية تتهاون أكثر فأكثر في شأن تبادل المعلومات هذا الوحيد الجانب. وحتى بداية عام ١٩٤٢، لم يُرِد السوفيات ظاهريًا أن يقتسموا مع حلفائهم سوى تفاصيل تقنية حول

فرق العدو المأسورة. وحسب رأي البلتشلي بارك، فهم لم ينتفعوا كثيرًا من المعلومات التي نُقِلت إليهم. "وعند وقوع المعركة المؤلّلة الكبرى عام ١٩٤٢، كتب في ما بعد أحد محلّلي الرموز ": "بينما كنا قد أنذرناهم بأنهم أرسلوا رجالاً وتجهيزات لإقامة فخ عملاق ألماني، فمن الصعب الاعتقاد بأنهم أخذوا التحذيرات بعين الاعتبار. ولو أنهم أخذوها على محمل الجدّ... لتمكنوا من تفادي الخسائر الرهيبة".

وابتداءًا من صيف عام ١٩٤٢، قلّص الإنكليز إلى حد بعيد إمداداتهم من المعلومات المرتكزة على عمليات فك رموز "الإنيغما". إنما بقيت هناك استثناءات حول بعض المواضيع الخاصة. وفي كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٤٢، وفي الفترة الحرجة من معركة ستالينغراد، تلقى الروس معلومات، وعلى الأرجح كان قد سبق وقدمها فيلبي وبونت، حول طريقة اختراق شيفرات دائرة استخبارات رئاسة الأركان الألمانية المكتوبة، على أمل دفعهم لمبادلتهم بمعلومات أخرى لديهم. ولكن لم يصل أي شيء من هذا.

وفي الحقبة ذاتها تمامًا، أي في صيف ١٩٤٢، وبينما كانت المعلومات المسلّمة إلى السوفيات تتجه نحو التقلص، باشر جون كارنكروس في نقل معلومات مباشرة. وبعد عدة أشهر من وضع حدّ لعمله كأمين سر خاص للورد هانكي في آذار ـ مارس عام ١٩٤٢، نجح حيث كان قد فشل فيلبي قبل ذلك بسنتين: لقد دخل وكالة اعتراض التحويلات أي الـGC & CS، والتي كان مركزها في بلتشلي بارك خلال الحرب. أما غورسكي، المشرف عليه والذي يعرفه حق المعرفة كما كان عرفه الخمسة الكبار، إنما باسمه المستعار "هنري" فأمدّه بالمال الضروري لشراء سيارة رخيصة. وكان يقودها بنفسه لينقل إلى لندن في عطلة نهاية الأسبوع المعلومات التي يكون قد اختلسها. ومع أنه أمضى أقل من سنة في مدرسة الكودات والشيفرة الحكومية في

بريطانيا GC & CS، فإن مدّته هذه في البلتشلي بارك تطابقت من جهة مع انقلاب في الموقف على الجبهة الشرقية، ومن جهة أخرى مع المدّة التي بدأ فيها ستالين والستافكا أخيرًا في إدراج المعلومات القيمة التي بين أيديهم حسب مسار العمليات وفي خدمتها. وقد ارتكزت مهمة كارنكروس الرئيسية على تحليل عمليات الاعتراض "الحساسة جدًا" المنفذة على تحويلات سلاح الجو الألماني. وقد اعتقد كارنكروس نفسه أن الأوقات العصيبة من سنواته الخمس عشرة في الجاسوسية لحساب السوفيات قد أثمرت قبل معركة كورسك في تموز – يوليو عام ١٩٤٣، عندما وجد الجيش الأحمر نفسه بمواجهة عملية سيتاديل Citadelle، أي آخر هجوم ألماني كبير على الجبهة الشرقية. وفي الثلاثين من نيسان - إبريل، أعلم البريطانيون حلفاءهم عن قرب حدوث هجوم ألماني على منحدر كورسك؛ وسلموهم كذلك بعض التقويمات التي وضعتها المخابرات الألمانية عن القوات السوفياتية المتمركزة في هذه المنطقة. وقد صدرت هذه المعلومات عن عمليات اعتراض "الإنيغما".

وقد قام كارنكروس بما هو أفضل من ذلك. إذ أرسل إلى موسكو النصوص ذاتها للمراسيل المحتجزة وكذلك التحقيقات حول الوحدات وتفاصيل تُسقَط عادة من الروايات الرسمية المنقحة التي تأذن أحيانًا بتسليمها وزارة الحرب البريطانية.

وقد حدَّدت سلسلة من هذه المراسيل القيِّمة جدًا بالنسبة للـ N.K.V.D. بدقة وضع أسراب سلاح الجو الألماني عشية المعركة. وخوفًا من عدم بدء الهجوم الألماني في العاشر من أيار - مايو، بينما لن يبدأ إلاّ في الخامس من تموز – يوليو، نفذت قاذفات القنابل السوفياتية هجومًا وقائيًا، أُعِدَّ بسرية تامّة، فجر السادس من أيّار – مايو ضدّ ستّة عشر مطارًا ألمانيًا اختيرت بمساعدة معلومات كارنكروس؛ وكانت هذه المطارات منتشرة على مسافة ١,٢٠٠ كلم ابتداءًا من سمولانسكي حتى بحر آزوف. وقد تم

تدمير الكثير من الآليات الألمانية في أرضها. وقد أطلقت هجمات جوية أخرى في السابع والثامن من أيار ـ مايو مفتقدة في كل الأحوال عنصر المفاجأة وما يترتب عليه. وشكلت هذه الغارات الثلاث الضخمة أخيرًا أهم عمليات سلاح الطيران السوفياتي خلال "الحرب الوطنية الكبرى". فقد نفّذ الطيران الأحمر ١٤٠٠ مهمة ودمّر أكثر من ٥٠٠ طائرة ألمانية، وكانت حصيلة الخسائر السوفياتية ١٢٢ قطعة. وقد نقل غورسكي تهانٍ خاصة من موسكو إلى كارنكروس... ومع ذلك، وابتداءً من هذه المرحلة بالذات، لم يعد بإمكان كارنكروس تحمّل المجهود الهائل الذي رضي به خلال أشهر طويلة. وعشية معركة كورسك، ورغم دعوات غورسكي الملحة، انتهى به الأمر بأن ترك مدرسة الكودا والشيفرة الحكومية البريطانية وارتضى بمركز في دائرة الاستخبارات السرية SIS، أولاً في المكتب الألماني التابع للشعبة ٧، ثم في الشعبة الأولى، أي الاستخبارات السياسية.

كلّف الجيش الأحمر عمليًا ٤٠ ٪ من فرقه المقاتلة والقسم الأكبر من آلياته الدفاع عن منحدر كورسك. إن عملية تحطيم هذه القوى السوفياتية مثلت آخر فرصة لهتلر لاستعادة المبادرة بعد كارثة ستالينغراد؛ إذ إنّ السوفيات كانوا قد انتصروا في ستالينغراد رغم هفوات الاستخبارات العسكرية؛ أما في كورسك، فقد ساهمت المعلومات الصحيحة بصورة رئيسية بانتصارهم. وفي الثامن من نيسان ـ إبريل عام ١٩٤٣، أرسل القائد الأعلى المساعد المارشال جوكوف إلى ستالين ملفًا، متوقعًا عن حق مناورة ألمانية على شكل كماشة من الشمال والجنوب ضد منحدر كورسك، معزّزة بهجوم من الغرب وذلك من أجل فصل مجموعتي الجيوش السوفياتية المدافعة عن المنحدر. ومع هذه الفترة، أصبح ستالين والمجلس الأعلى العسكري السوفياتي Stafka أقل اطّلاعًا بكثير على تاريخ الهجوم. وكان هتلر ذاته يغير فكرته باستمرار،

وقد أجّل الهجوم من ٣ أيار ـ مايو، التاريخ الأول الذي اعتمده الفوهرر، إلى ١٢ حزيران ـ يونيو، ثم إلى ٣ تموز ـ يوليو، وأخيرًا إلى الخامس منه... ومع أن المعلومات "الفائقة الحساسية ULtra"، تلك المنقولة عبر البعثة البريطانية في موسكو وتلك التي سلمها عملاء الـ NKVD في انكلترا، كانت قد لعبت دورًا أساسيًا في نصر كورسك، فقد تم إحراز هذا النصر بفضل التحسينات التي لحقت منذ ستالينغراد بالمخابرات العسكرية السوفياتية، إن كان من ناحية الجمع أو التقويم.

وكان قد جرى التأكيد على أن المعلومات الأكثر أهمية، التي تصرف بها ستالين والمجلس العسكري السوفياتي الأعلى قبل وبعد معركة كورسك، صدرت عن شبكة لوسي في سويسرا. ولا شك في أن لوسي ـ رودولف روسلر ـ كان قد قدم معلومات ذات قيمة استراتيجية عالية حتى تاريخ توقيفه في ربيع عام ١٩٤٤. وقد أرسل المقر العام لوكالة الاستخبارات العسكرية السوفياتية GRU في ٢٢ شباط ـ فبراير عام ١٩٤٣ رسالة الراديو التالية: "بلغوا لوسي تحياتنا على عمله. فقد كانت آخر خبرية مهمة وثمينة". وكانت الـGRU مهتمّة كذلك بطمأنينة المرتزق روسلر، الذي لم يكشف باستمرار عن هويته الحقيقية، بخصوص ما يطلبه من المال. وقد أبرقت له ما يلي: "رجاءً إبلاغ لوسي باسمنا أننا سندفع لمجموعته دون تأخير وفقًا لطلباته. فنحن مستعدون لمكافأته بسخاء على معلوماته". إنما من الواضح الآن أن "لوسي" لم يعطِ الخبر المفتاح حول كورسكي. وفي نهاية نيسان ـ إبريل، اهتمت الـ GRU كذلك بهوية "لوسي" وبحقيقة معلوماته؛ وفي ٢٣ نيسان ـ إبريل، أعلمت رادو، رئيس Rote Drei، باتصالها مباشرة بأحد مرؤوسيه في محاولة فاشلة للوصول إلى أهدافها؛ وفي ٢٣ حزيران ـ يونيو، آخذة بالاعتبار الكثافة الهائلة للقوات السوفياتية، أوحت الـ GRU أن عملية السيتاديل أُلغيت...

إن تحول الاستخبارات العسكرية السوفياتية، الحاصل في ربيع عام ١٩٤٣ ناجم عن عوامل عدة منها، تطوير عمليات الإصغاء. ومنذ بدء الأعمال العدوانية، عملت شعبة البحث في قيادة فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO ومحللو الرموز في الـ GRU بلا توانٍ لاختراق أسرار جهاز شيفرة "إنيغما". وقد شكلت هذه مهمة على درجة كبيرة من التعقيد. فقد كانت القوات البرية وسلاح الجو وكذلك عدة قطاعات ألمانية تستخدم الآلة "إنيغما" لتعميم شيفراتها الخاصة، واستخدمت مفاتيح عدة لأهداف مختلفة وعلى شتى مسارح العمليات. وابتداءًا من عام ١٩٤١، لم يكن هناك أقل من ٥٠ مفتاحًا قيد الاستخدام في الوقت ذاته، تتغير أو يُعاد تركيبها يوميًا. وحتى عندما كانت تتعطّل آلات الشيفرة كان لا بدّ من اكتشاف مفاتيح فورًا عندما يقتضي الأمر استخدام معلومات في الجبهة. وقد كان نجاح فرق بلتشلي، القائم على عمل البولونيين السابق، أكبر إنجاز على الأرجح في الحرب في مجال المخابرات: فقد تم اختراق كل أنواع "الإنيغما" تمامًا وكذلك الطرق المكتشفة للسيطرة على عمليات التغيير اليومية للمفاتيح. أعلم كارنكروس الهيئة الشعبية للعمل الداخلي (NKVD) بهذا الاكتشاف، وقام كل من لونغ وبلونت وفيلبي بالشيء نفسه. وقد توصلت الـNKVD لحيازة بعض آلات "الإنيغما" ومواد شيفرات ألمانية، في كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٤١ على وجه الاحتمال، ذلك أن الجيش الألماني الثاني كان قد فقد آلات منها.

غير أن الجهد الأكبر تم بذله في ستالينغراد، فقد كانت القوى الألمانية المحاصرة في هذه المدينة تملك ٢٦ آلة منها علىالأقل، وبدا من المستحيل تدميرها كلها في ظل ما قد يطرأ من تطورات مفاجئة في وضع المعركة. وفي حالة واحدة على الأقل، استمر مقر عام ألماني ببث المراسيل حتى اجتاحته الفرق السوفياتية. وهناك عدد آخر من آلات "الإنغيما" قد يكون تم وضع اليد عليها بعد تدمير الفرق الألمانية الست خارج

المدينة. وما هو شبه مؤكد أن بعض أجهزة ضبط تعيير المفاتيح وقعت كذلك بين يـدي الجيش الأحمر. ولا بدّ من أنه كـان مـن بيـن الــ ٩١,٠٠٠ جنـدي ألمـاني المستسلمين، مستخدمون في الشيفرة لم يتمكنـوا مـن مقاومـة دعـوات سـجانيهم الملحـة فـي مسـاعدة عمليات الإصغاء السوفياتية.

وفي السابع عشر من كانون الثاني - يناير ١٩٤٣، وحتى قبل استعادة سـتالينغراد، استنتج فرع الاتصالات التابع لقيـادة القـوات البريـة العليـا الألمانيـة وعـن "يقيـن"، بـأن الروس قد حللوا رموز مراسيل "الإنيغما"، وبناءً عليه أدخل هذا الفرع تطويـرات عـدة لضمان أمن الشيفرة. وقد كان السوفيات غير قادرين، على كل حال، على فهـم حركـة سير عمليات إرسال "الإنيغما" على قاعدة منتظمة كيفما كانت هذه القاعدة. وقـد أتـاحت بعض الآلات المحتجزة والمفاتيح وبعض عمليات الإرســال، وباسـتعادة للمـاضي، حـل بعض المراسيل التي تم اعتراضها. وكان هنـاك أخيـرًا آلات "إنيغمـا" أقـل تعقيـدًا ممـا جعلها سريعة المنال من جراء أعمـال السَيْر السـوفياتية. إنمـا وبـالرغم مـن الصفـات المتفوقة لمحلليهـم، فـإن الهيئـة الشـعبية للعمـل الداخلـي NKVD ووكالـة الاسـتخبارات العسـكرية السـوفياتية GRU كانتـا لا تملكـان هـذه التكنولوجيـات ذات الطـراز الأخــير والأساسية جدًا لفهم المعلومات "الفائقة الحساسية Ultra" الصادرة على البلتشلي بـارك. ويبدو أنه لم يكن هناك مكافئ سوفياتي "للقنابل" الإلكترونية الشـديدة القـوة المنتجـة فـي البلتشي بارك عام ١٩٤٠ "لتحطيم" الإنيغما ولا "جبار Colossus"، أي أول حاسـبة فـي العـالم، صنعـت عـام ١٩٤٣ لفـك رمـوز مراسـيل "جايمشـريبر Grheimachreiber" (تحويلات الراديو المرتكزة على نبذبات سـريعة لمبرقـة كاتبـة Téléseripteur مشّفرة ومحلولة تلقائيًا، والتي قدمت خلال السنتين الأخيرتين مـن الحـرب معلومـات عملياتيـة أفضل من سيْر "الإنيغما").

إن مظاهر التقدم الرئيسية في مجال عمليات الإصغاء السوفياتية ربيع عام ١٩٤٣ تم تسجيلها خصوصًا بالتوجه الإشعاعي، وبتحليل تنقلهـا، وفـي الكتابـات المشفَّرة ذات المسـتوى المدنـي، وذلـك أكـثر مـن تسـجيلها علـى نوبـات مباشـرة "للإنيغمـا" و"للجايمشريبر". وقد تكبدت عمليـات الإصغـاء العسـكرية الميدانيـة خسـائر فادحـة فـي الملاكات المتخصصة في المرحلة الأولى من الحرب. ومنذ نهاية عام ١٩٤٢، استخدم المجلس العسكري السوفياتي الأعلـى أعدادًا كبيرة مـن أجهـزة الراديـو المعدَّة بشكل خاص لهذا الأمر؛ وقد وصف مؤرخ عسكري سوفياتي هـذا الإجـراء علـى أنـه قفـزة نوعية في تطور المعركة اللاسلكية ـ الإلكترونيـة فـي الجيـش الأحمـر". والمؤرخـون السوفيات المتأثرون بـالمحرّم التقليـدي الـذي نقـل عمليـات الإصغـاء فكـان لديهـم ميـل للمبالغة في تقدير دورها فـي عمليـات التسـميم والتشـويش اللاسـلكي. وكـان كـل فـوج مجهزًا بثمانية عشر إلى عشرين مستقبل لاسلكي من أجل عمليات الاعـتراض وأربعـة أجهزة للتوجيه الإشاعي. وقد باشرت هذه الأفواج بالعمل مع نهاية معركة سـتالينغراد؛ وقد تمكنت كذلك من التدخل بفعالية في كورسك. وكشف تقرير للجيـش المـدرّع الأول احتجزته القوات البرية الألمانية أن عمليات الإصغاء السوفياتية هـذه كـانت قـد حـددت مواقع مراكز القيادات ووحدات البانزرز من الفيلق الثاني، والفيلقين السادس والحـادي عشر وذلك قبل الهجوم. وحصل الشيء نفسـه بالنسبة للمقـر العـام للفيلـق السـابع مـن فرقة بانزرز، ومن الفيلق الثالث عشر والجيش الثاني.

بقيت عمليات الإصغاء هذه بعيدة عن أن تكون متكاملة. حينئذٍ أطلق فيلق بانزرز السادس والأربعون في شمال منحدر كورسك والفيلق الثـامن والأربعـون فـي الجنـوب هجمات مفاجئة عند بدء الهجوم الألمـاني. غير أن ضبـاط عمليـات الإرسـال التـابعين للقوات البرية الألمانية لم يشكّوا في أن عمليات الإصغاء كانت قد لعبت دورًا حاسمًا

في النصر السوفياتي، واتهموا الانضباط السيء لمجموعات اللاسلكي الألمانية ليفسروا جزءًا من فشل عملية السيتاديل. من ناحيتها، لم تكن عمليات الإرسال السوفياتية أكثر ضمانًا من مثيلتها في القوات البرية الألمانية. وقد أصبحت عمليات التنصت أهم مصادر معلومات الفريقين خلال معركة كورسك.

ترافقت عمليات التنصت السوفياتية مع أشكال أخرى في جمع المعلومات المألوفة في السنوات الأخيرة. إن الاستكشاف الجوي الذي احتل المكانة الثانية على الجبهة الغربية، سجل نجاحات متنامية في صفوف سلاح الجو السوفياتي. فقد قام بحوالي ٦ آلاف طلعة استكشاف قبل المعركة؛ ونفذت وحدات المشاة في الجبهة المركزية ووحدات جبهة فورونيج مئة وخمس طلعات استكشاف بالقوة و١٢,٥٠٠ غارة ليلية و١,٥٠٠ كمين في الأشهر الثلاثة التي سبقت الهجوم الألماني. أما الـ ١٨٧ جندي أسير خلال هذه العمليات والفارين المحتجزين ليل الرابع من تموز فقد قدموا الدليل الأخير على أنه تم تحديد الهجوم عند فجر الغد. وفي كورسك، تم تشغيل نظام أكثر مرونة للحصول على معلومات حديثة تمامًا وتقديمها لقيادات الجبهة. ومن الآن فصاعدًا، اهتمت دوائر استخبارات الجبهة بالمعلومات التكتيكية، بينما اهتمت وكالة المخابرات العسكرية السوفياتية بالمعلومات الاستراتيجية.

دشنت كورسك هجوم الجيش الأحمر المتواصل الذي انتهى باستسلام برلين أمام المارشال جوكوف في أيار - مايو عام ١٩٤٥. وبقوات أكبر بأربع مرات من القوات البرية الألمانية، وبعدد هائل من الفرق الأميركية والإنكليزية المنخرطة في المعركة وبتفوق جوي متسارع، أظهر الجيش الأحمر ورغم خسائره الفادحة، أن ما من قوة بإمكانها إيقافه. إن المعلومات العملياتية التي أسهمت خلال سنتين بهذا الزحف المظفر كانت من مسؤولية المجلس العسكري السوفياتي الأعلى Stavka ووكالة المخابرات

العسكرية السوفياتية GRU والقيادات الميدانية. وأما الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD فقامت مع ذلك بدورها؛ وتقدر دراسة سوفياتية حديثة مجموع جيوشها بـ ٥٣ فرقة و ٢٨ لواءًا "باستثناء الفرق الميدانية والوحدات الأخرى المستقلة"، إذن ليس أقل من ٤٥٠ ألف رجل. وقد استخدم الكثير منها كمفارز تقييد، مفارز تعمل على مشاغلة العدو لحشد قواته في مكان معين، وضرب ما وراء خطوط العدو وذلك لـزرع الفوضى وكذلك لمعاقبة القوميات "المشبوهة". وقد تم إبعاد عدة أقليات إثنية: التشتشين، الأنغوش، تتار الكريمة، الكاراتشاي، البلقار، الكالموك وألمان الفولغا، وأبيدت جماعات منها على يد الـ NKVD، وقد رغب ستالين كذلك بنقل الأوكرانيين، غير أن أعدادهم الضخمة أوهنت عزيمته.

وبمفارزها من الأنصار ساهمت الـ NKVD بتقدم الجيش الأحمر إلى الأمام. وكان على رأس إدارة أنصار الـ NKVD اللواء باقل أناتوليفيتش سودوبلاتوف. وأصبح بعد الحرب رئيس السبتسبيرو Spetsburo التي نفذت عمليات اغتيال في الخارج. ورغم سمعته الخطيرة، فإن المنشق نيقولاي خوخلوف يقول عنه بـأن "هيئته وأساليبه الدمثة وكلامه الهادئ والحازم خير تعبير عن الرجل المهم والذكي. ويعرف قيمة هذه البساطة المدروسة ويمارسها مَن اختبرها"[1]. أما معاون سودوبلاتوف، اللواء ليونيد ألكسندر روفيتش إتانغان، فكان قد قاد عمليات الأنصار وراء خطوط الجنرال فرانكو خلال الحرب الأهلية باسم مستعار هو الجنرال كوتوف. وكان معروفًا داخل الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD، ولـه صورة في قاعة الشرف في المديرية الأولى العامة، على أنه منظم مصرع تروتسكي.

---

١ - Khokhlov Nikolai y., *In the Name of Conscience*, Frederick Muller (London,1960), PP. 30.

وقد حجبت الفوضى الإدارية التي سادت في هذه المرحلة والخرافات المنتشرة في ذلك الحين دور الأنصار في جمع المعلومات وفي عمليات التخريب.

ويُروى أن بطلاً من الأنصار هو نيقولاي كوزنتسوف، الموجود رسمه في صالة الشرف التابعة للمديرية الأولى "PDG" من الـ KGB، العامل خلف الخطوط الألمانية، كان قد نجح بالتسلل حتى إلى مكتب إريش كوش Erich Koch مفوض الرايخ الأعلى في أوكرانيا، متنكرًا بزي ضابط في القوات البرية الألمانية؛ وربما حصل ذلك في نيسان ـ إبريل عام ١٩٤٣. وكان على وشك قتل كوش، كما تقول الرواية، وعندما راح صاحب المقام الألماني يتكلم عن عملية السيتاديل، الهجوم الألماني المرتقب وعلى منحدر كورسك، عَدَل كوزنتسوف عن قتل كوش ونقل على وجه السرعة إلى رؤسائه ما سمعه. ربما تكون هذه الرواية غير مُخْتَلَقَة بأكملها، إنما وكما لاحظ تيموتي ميلّيغان، لم يكن قد حزم أمره بعد. وتبين دراسة سوفياتية حديثة عدة أخطاء في العمليات التي قام بها الأنصار: قلة التجربة، نقص في تدريب دوريات الاستكشاف، ملفات الأحوال الشخصية الناقصة، النقص في أجهزة الإرسال اللاسلكية وأخيرًا تنسيق سيء بين الأنصار ونشاط المخابرات على الجبهة. وهناك أمر صادر عن القيادة العليا، مؤرخ في ١٩ نيسان ـ إبريل عام ١٩٤٣ "حول تطوير عمل المخابرات في مفارز الأنصار: يدعو لتأهيل أفضل للقادة على يد اختصاصيي الهيئة الشعبية للعمل الدخلي NKVD ووكالة المخابرات العسكرية السوفياتية GRU.

كان أول هجوم على مستوى الأنصار وبالتنسيق مع الجيش الأحمر هو "ضرب السكك الحديدية" المخصصة لتدمير الخطوط الحديدية الألمانية أثناء معركة كورسك. وقد أُنزلت بالمظلات كميات كبيرة من المتفجرات للأنصار. وكان ذلك شبه نجاح؛ إذا

إنّه لم يجرِ تدمير خطوط الاتصال بشكل كـامل[1]. ويقدّر تقييمٌ سوفياتي أن أحد أكبر نجاحاتهم هو الذي أحرزه لواء الأنصار الحادي عشر قبل وبعد الهجـوم والـذي وضـع حدًا لـ ٨٨٠ يومًا من حصار لينينغراد في كانون الثاني - ينـاير عـام ١٩٤٤. فقد نقل هذا اللـواء تقـارير كاملـة حـول كل تحركـات الفرق الألمانيـة علـى الطـرق والسـكك الحديدية: "ففي بداية الهجوم... عرف مرشدو اللـواء عدد الوحدات ووضعهـا وكذلك أسماء قياداتهم؛ وأبلغوا عن أماكن القيادات والفرق الأولية العدوة، وعن مواقع قيـادات الجيش الثالث والجيش الثامن، وكذلك عن الحيثيات الجغرافيـة لأربعـة مطـارت. وبعـد المباشـرة بـالهجوم السـوفياتي، قـاد المرشـدون غالبًـا الوحـدات المتقدمـة إلـى أجنحـة وخطوط العدو الخلفية..".

وقد أحيطت دائرة استخبارات الأركان الألمانية بالأعداد الهائلة للأنصـار. وخـلال صيف ١٩٤٤، كـانت الجاسوسـية المضـادة الألمانيـة قـد تحققـت مـن وجـود ٢٠,٠٠٠ عميل سوفياتي وقدّرت أنه سيزداد عددهم بمعدل ١٠,٠٠٠ كل ثلاثة أشهر... أمـا مَن كان أمر اكتشافهم أصعب من غيرهم فهم الـ Besprisorniki، وهم صبيان دُرِّبـوا علـى الاستكشاف والتخريب، وقد أدهشت شجاعتهم حتى القوات البرية الألمانية. وعلى هذا النحو يصف تقرير أرسلته وحدة ألمانية مراهقًا تم أسـره بينمـا كـان يسـجل ملاحظـات حول تحركات الفرق. أما الاستجواب الذي تعرض له فلم يجبره علـى قـول الحقيقـة. أخيرًا، أُجبِر على مشاهدة إعدام سبعة مساجين بالغين، ثم أُبلِغ أنه قد حان دوره، وحين سدّد عليه الرامي، قيل له إنه سيُعفى عنه لو اعترف بالحقيقة: "ضحك الصبـي بوقاحـة

١ - Erickson John, *The Road to Berlin,* Weidenfeld and Nicolson (London,1983), PP. 114-115.

وقال إنه سيُقتل حتى ولو تكلَّم. وعندما وعده المستجوب بأنه سينجو بنفسه إذا صرّح باسم رئيسه، أجاب الصبي: "أعلم أنني مقتول في الحالتين. سأقول لكم الحقيقة الآن: لقد كذبت عليكم ست مرات وسأكذب السابعة!".. ولم يورد التقرير شيئاً عن مصيره. فقد تم إعدامه ولا ريب[1]...

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٢٩٤ ـ ٣٢٧.

التعاون والاختراق بين الحلفاء

باختراقها جماعة المخابرات الأنكلو ـ أميركية خلال "الحرب الوطنية الكبرى" دخلت الـNKGB/NKVD رسميًا في علاقة ـ وهذا نادر في تاريخ الـ KGB ويدعو للسخرية! ـ مع بعض قطاعات هذه الجماعة. وفي آب ـ أغسطس عام ١٩٤١، وصل الكولونيل، الذي أصبح في ما بعد عميدًا، "غ. أ. هيل"، واسمه الحركي كان "دال"، إلى موسكو ليرأس فريق الاتصال التابع لـ"تنفيذ العمليات الخاصة البريطانية SOE" المسمى "بعثة الـ SAM"[1]. أمّا هيل، زميله في الـSOE، فمثّل بعد فيلبي، خيارًا شاذًا. "فقد كان أحد الإنكليز النادرين الذين يعيشون ليضعوا الحجارة في الطواحين... وُهِب "كرش" هائل، فقد كان يشبه ملك السوغلو Soglow برأس أصلع هو بمثابة تاج". وقبل عشر سنوات على الأقل، كان قد نشر رواية طنّانة تصف محاولاته لمساعدة كل النظام البلشفي الجديد، ثم محاولاته لتخريبه. غير أنه كان غير مؤهل للعمل مع الـNKVD زمن الحرب، وقد مضت مدّة قبل أن يأمر بفحص أمني لصالة مؤتمر "بعثة الـSAM". وقد كتب فيلبي بخبث أن هذه قد "كشفت عمليات هروب عديدة". أما الشريك السوفياتي لهيل، أي الكولونيل، وقد أصبح جنرالاً، "أ. ب. أوسيبوف"، الإختصاصي بحرب التخريب في الـ NKVD، فكان على الأقل في نظر الغربيين، يشبه بشكل مضطرب "بوريس كارلوف". فبعد فترة تعاون في البداية بطيئة جدًا، أذِن أوسيبوف لهيل بأن

---

١ - Smith Bradley F., *The Shadow Warriors*, André Deutsch (London,1983), P. 324.

يرافق وحدة من الـNKVD خلف الخطوط الألمانية في شباط ـ فبراير وأذار ـ مارس من عام ١٩٤٢ وذلك لدراسة تكتيكات الأنصار السوفيات. وقد أعلن هيل في ما بعد أنه ساعد أوسيبوف بعد عودته إلى موسكو في وضع كتاب سوفياتي رسمي حول حرب الأنصار. ولا بدّ من أن نكون على حذر من إعلانه هذا: فقد سبق له أن أكّد في كتابه على أنه كان قد أسس "شعبة بلشفية مضادة ـ للجاسوسية" عام ١٩١٨. وقد أثر كثيرًا بمغامراته خلف خطوط الألمان إلى درجة أنه فكر بإنزال عملاء من الـNKVD خلف الخطوط العدوة في الغرب وفي الشرق الأوسط. وخلال صيف عام ١٩٤٢، توجه إلى اسطنبول والقاهرة لمناقشة مهمات مشتركة بين NKVD/SOE. ثم طار إلى لندن، يرافقه عنصر من الـNKVD تريد الـSOE إسقاطه في بلجيكا. إنما ومع مرور الأيام، بَرَد حماسه. وكتب في يومياته: "اللعنة للشيطان، لست مسرورًا على الإطلاق بهذا العمل". وقد رفض مركزا الـSOE في لندن والقاهرة إعتراضه على العمليات المشتركة انطلاقًا من تركيا. وإذا صدّقنا أرشيفات الـSOE، فإن "عددًا صغيرًا" فقط من عناصر الـNKVD تم إنزاله في أوروبا الغربية، وأكثريتهم عام ١٩٤٣[١]. وقد تم تأخير عمليات الإسقاط نظرًا للأحوال الجوية السيئة والصعوبات العملياتية. إحتجت الـNKVD، وداخلتها الريبة. فقد زودتها الـSOE بمعطيات حول المتفجرات غير أنها لم تتلق عمليًا شيئًا بالمقابل.

بُعيْد وصول هيل إلى موسكو، تمركزت بعثة الـNKVD في لندن وعلى رأسها "إيفان أندريافيتش تشتشاييف"؛ وكان عليه العمل كضابط ومستشار سوفياتي لدى الحكومات المتحالفة المنفية. كان رجلاً قويًا، صلبًا، قديرًا، محبوبًا، وهناك شيء نادر

---

١ - Smith, *Shadow Warriors*, PP. 335-336.

عند عنصر من الـNKVD وهو أنه لم يكن يشرب سوى الماء. وفي البداية، جمع بين مهماته كرجل اتصال وكسفير مقيم. وعلى كل حال فقد أجبرت الأهمية المتصاعدة للشبكة المركز على استعجال ضابط من أعلى الرتب هو "قسطنطين ميخائيلوفيتش كوكين" لقيادة المقر بغطاء دبلوماسي. إستفاد كوكين من الهالة المظفّرة المحيطة "بالكبار الخمسة". إن صورته معروضة في صالة الشرف في المديرية الأولى حيث يعتبر أحد ضباط المخابرات في الأربعينات والخمسينات. وعند مباشرة كوكين عمله، راح تشيتشاييف يفكر مليًا بأمر حكومات المنفى في لندن. أما الجنرال "فرانتيزك مورافيك Moravec" رئيس دوائر مخابرات الحكومة التشيكية في المنفى، فرأى في تشيتشاييف في البداية إنسانًا وَدُودًا وحليمًا، و"بعد ستالينغراد اختفت بسماته. وبقدر ما كان الوضع، العسكري يتفاقم، كان موقف تشيتشاييف يتغير جذريًا. فبينما كان حتى الآن يشكرني بحرارة على كل ما أسلمه إياه يوميًا، ها هوذا وقد أصبح فظًا لجوجًا وحتى متوعدًا". فطلب الدخول مباشرة إلى الدوائر السرية التشيكية، متذرعًا بأنهم أرسلوا معلومات غير صحيحة فَطُلِبَتْ من مورافك معلومات لم يكن بإمكانه الحصول عليها، وراح يجمع كذلك ملاحظات حول منفيي هذا البلد ويضع لوائح بالأشخاص "غير الموثوق بهم". وعندما أراد أن ينتزع منه معلومات حول الدوائر السرية البريطانية وحول "إدوار بنس Benès" رئيس المخابرات في المنفى، قطع فرانتيزك اتصاله به[١].

ورغم النجاح المحدود الذي أصابه التعاون بين SOF والـNKGB/NKVD فقد تحمّس الجنرال دونوفان، رئيس "مكتب الخدمات الاستراتيجية الأميركية OSS" لفكرة

١ - Moravec Frantisek, *Master of Spies*, Bodley Head (London,1975), PP. 233-234.

التعاون على المستوى الواسع مع الروس. حصل ذلك بُعيْد أول مؤتمر للثلاثة الكبار: روزفلت، ستالين، تشرشل، في طهران. وفي عيد الميلاد عام ١٩٤٣، ناقش هذا الموضوع دونوفان و"إيفريل هاريمان"، سفير أميركا في موسكو، مع "مولوتوف"، مفوض الشؤون الخارجية. بعد ذلك بيومين، التقى دونوفان بـ"فيتين"، رئيس "فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO" وبـ"أوسيبوف"، خبير الـNKVD في الحرب التخريبية. وحسب الرواية الأميركية، "أصغى فيتين باهتمام بالغ" إلى عرض زميله، ثم سأله "حول كل الوسائل المستخدمة" في الغرب ليتسلل العملاء في أراضي العدو وحول مواضيع تقنية أخرى. "وقد ظهر الجنرال أوسيبوف مهتمًا وبشكل خاص بشحنات البلاستيك. وقد وعد الجنرال دونوفان بأن يرسل إلى الجنرال فيتين... جهازًا لاسلكيًا صغيرًا تستخدمه الـOSS في عملياتها".

مثيرًا شهية ضيوفه، اقترح الأميركي في الحال إقامة بعثة تابعة للـOSS في موسكو وأخرى تابعة للـNKVD في واشنطن، تتبادلان المعلومات وتنسقان عملياتهما، وذلك "لتفادي الازدواجية" والاستعلام باستمرار عن التحضير لعمليات التخريب. وقد قُبِل الاقتراح بسرعة نادرة، قل مثيلها في العلاقات الأميركية السوفياتية. كان فيتين ملهوفًا لمعرفة مشاريع الـOSS في أوروبا الشرقية وفي البلقان ويرغب في الحصول على أسلحة وعلى التكنولوجيا؛ أضف أن إمكانية رؤية الـNKVD تملك بيتًا في واشنطن لم تكن لتزعجه قط. وقد قال لدونوفان بأنه "يرحب بحرارة" بمبادرته، وإذا اقتضى الأمر مناقشة بعض جوانب المسألة على المستوى العالي فإن حضور ضابط اتصال من الـOSS إلى موسكو يمكن أن يُعتبر منذ الآن على أنه "أمر مقرر" وأنه "يتوجب البدء فورًا" بتبادل المعلومات. وكان السفير هاريمان متحمسًا كذلك مثل فيتين. فقد كتب بسذاجة إلى روزفلت: "لقد حاولنا دون طائل في السنتين الماضيتين،

التسلل إلى مصادر المعلومات السوفياتية وأن نتعامل معهم على قاعدة الثقة المتبادلة. وها نحن نخترق ولأول مرة دائرة مخابرات للحكومة السوفياتية وإذا تابعنا، فأنا على قناعة بأن ذلك سيفتح أمامنا أبواب الفروع الأخرى".

ظهرت واشنطن أنها سريعة التأثر بالبرد... ففي سنة الانتخابات هذه، رفض روزفلت فكرة عدم السماح بتمركز بعثة الـNKVD في العاصمة الفدرالية. وفي نيسان - إبريل عام ١٩٤٤، أعلم الجنرال دان، رئيس البعثة العسكرية الأميركية في موسكو فيتين وأوسيبوف "إرجاء" المشروع[١]... ومن وقت لآخر، كان فيتين ينقل عناصر على شيء من الأهمية عندما يكون له مصلحة مباشرة في ذلك؛ وكذا، قدّم لهم في أيلول - سبتمبر حيثياتٍ حول ثماني منشآت عدوة في بولونيا وألمانيا الشرقية، ولا ريب في أن ذلك كان على أمل أن يصار إلى قصفها بالطيران الأميركي... وتدخل كذلك عندما أمرت القيادة العليا السوفياتية بأن يترك كل ضباط OSS والـSOE بلغاريا قبل الخامس والعشرين من أيلول - سبتمبر. بعد ذلك بيومين اثنين، أعلن أنه تم الاتفاق على إمكانية عودتهم، إنما شرط الحصول على لائحة بكل ملاك الـOSS ليس فقط في بلغاريا بل كذلك في رومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وكل المناطق التي يحتلها الجيش الأحمر. وقد قَبِلَ دونوفان بذلك. ومن الآن فصاعدًا، فإن كل أنصار أوروبا الشرقية والبلقان الذين يتصلون بالـOSS وضعت الـNKVD أسماءهم على اللائحة السوداء. ها هم ضباط الـOSS عاجزين يشاهدون تصفية المعارضين للهيمنة الشيوعية في كل هذه المناطق[٢].

---

١ - Smith, *Shadow Warriors*, PP. 339-346.

٢ - Smith, *Shadow Warriors*, PP. 350-352.

حاول الجنرال هيل دون طائل تجديد اتصال الـSOE بالسوفيات. وفي نيسان – إبريل عام ١٩٤٤، زوّدت هذه الدائرة آمر الـNKVD، "ن. ن. كراسووسكي" بجهاز إرسال وبأسلحة صغيرة وأسقطته في يوغوسلافيا ليلتحق بمقر تيتو العام. وقد أبرق هوائي الـSOE إلى بارّي في لندن يقول: "إن كراسووسكي غير متأثر تمامًا بالجهود المقدمة له". وفي حزيران – يونيو، أعلم تشيتشاييف الـSOE أن موسكو استدعت كراسووسكي "وذلك لفشله في إقامة علاقة مثمرة مع الـSOE". وقد أعلن الجنرال "فيتزروي ماك لين"، ضابط اتصال تشرشل لدى تيتو، على العكس أن علاقات بعثته مع كراسووسكي كانت غالبًا صحيحة. بينما قال أوسيبوف لهيل: "ربما لم يكن كراسووسكي الرجل الذي كان لا بدّ من إرساله". وافق هيل ودعا السوفيات للتوجه إلى لندن لمناقشة مسألة التعاون المقبل. وقد تجنب أوسيبوف الرد....

جامعة كمية هائلة من المعلومات عن الحلفاء، ها هي الـ NKVD تطلق سلسلة من "الإجراءات الفعّالة" هدفها التأثير على الرأي العام الغربي. وفي حين كان يشتغل بالتأريخ السري للمديرية الأولى، توصل غورديفسكي إلى الاستنتاج بأن الأمر الأكثر أهمية من سواه كان النجاح الذي حصل عليه عميل من الـNKVD، هو بيتر سمولكا، الذي أصبح رئيس شعبة الاتصال الأنكلو ـ سوفياتية في وزارة الإعلام والمولود في سمولكا في فيينا عام ١٩١٢، فإن سمولكا منحدر من عائلة يهودية نمساوية كانت قد اغتنت من عملها مثل غيرها في نشاطات التزلج. قَدِم إلى لندن عام ١٩٣٣، وعلىالأرجح بناءً على نصيحة مالي. كان شابًا مثاليًا، "غير شرعي"؛ أما غطاؤه فجعل منه مراسل جريدة في فيينا. عام ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥ قابل على وجه السرعة فيلبي عندما أراد إنشاء، دون نجاح، وكالة مخابرات خاصة بهما. وقد بنى سمولكا شهرته عندما كتب للتايم سلسلة مقالات عن المناطق القطبية السوفياتية خلال صيف عام ١٩٣٦.

وفي العام التالي، تم جمع المقالات في كتاب بعنوان: "أربعون ألف في مواجهة الشمال: الأمبراطورية القطبية الروسية" وقد أعيد طبعه ثلاث مرات في أقل من سنة. وقد مثّل الكتاب بالنسبة لتلك الحقبة ذروة إجراءات الـNKVD؛ وكان في الظاهر قد حَرَّرَ من منظور غير شيوعي بقلم كاتب همه الوحيد "هو تصديق من يستحق" واستبعاد التهديدات القديمة وأعمال التجريح". "فروسيا، يقول لقرائه، هي الآن كبيت قيد البناء. فلا يمكنهم إخفاء الوحول، والفوضى وأجواء الارتجال التي تذهلنا بغض النظر عن مواقعنا". غير أن سمولكا يشير إلى الإنجازات المؤثرة للخطط الخمسية، والتي يشكل غزو الصحاري القطبية المثل الواضح عليها. فخور بإنجازات البناء الاشتراكي، شغوف "بمعاركه ضد الطبيعة" وبتنمية مصادره، تخلى الشعب السوفياتي عن "فكرة نقل شعلة الثورة خارج حدوده". وأمهر تزوير في حجته يكمن في رسم الفولاغ خلال الإرهاب الكبير، وهي واقعة وحشية همجية تحولت تحت قلم سمولكا إلى تجربة مثالية في الإصلاح الاجتماعي. وعن العلاقة بين الحرّاس والمساجين كتب يقول: "والجديد عند هؤلاء الشباب "الحكام" (الـNKVD)، هو اعتقادهم القوي والصادق بأنهم فعلاً مصلحي النفس الغارقة في جماله هذه البهائم (المساجين)." تبين بهائم الغولاغ هذه مستعمرات المساجين التي قد يقودها يومًا ما مثاليو الـNKVD، وتصبح هذه البهائم كذلك حرة مزدهرة مثل أستراليا التي كان لديها مثل هذه الجذور الإصلاحية[1].

ويا للغرابة، فأكاذيب كهذه لم تضر بالثقة التي أولتها "التايمز" و"وزارة الخارجية" لسمولكا. إنّ وزارة الخارجية تدّعي متأثرة حتى "بشهرتها الواسعة في الشؤون

---

١ - Smolka H. P., *Forty Thousand Against the Arctic: Russia's Polar Empire*, Hutchinson (London, 1938), PP. 162, 274-275, 278.

الدولية". وبعد إلحاق النمسا بالرايخ الثالث في عملية Anschlus في أذار - مارس عام ١٩٣٨، حصل على الجنسية البريطانية ودعى نفسه "هـ. بيتر سمولِّت[١]" وبعد عدة أشهر التحق بالوكالة المسماة "شركة تبادل البرقيات" كرئيس جديد لفرع الخارج. وفي تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩٣٨، قدمت وزارة الخارجية توصية حارة به لدى السفارات البريطانية في براغ وفرصوفيا وبودابست وبوخارست وبلغراد وبرن وذلك بهدف مباحثة الصحافة المحلية حول الموقف الراهن وبشكل خاص دراسة كيفية إيصال المعلومات النزيهة لهذا البلد لمواجهة الدعاية الرديئة التي تبثها وكالات أخرى رسمية أو شبه رسمية". إن مواهب سمولِّت الشخصية إزاء دعاية الـNKVD الرديئة منحت لأحاديثه مسحة من سخرية فريدة. فقد كان مع زوجته في براغ عندما فاجأهم الغزو الألماني في أذار - مارس عام ١٩٣٩. وقد توجب عليه اللجوء إلى السفارة البريطانية قبل تمكنه من العودة إلى لندن[٢].

بعد بدء الأعمال العدوانية، جرّب سمولِّت دون طائل الدخول بإحدى الدوائر السرية. وقد رأى حينها أن يعمل في وزارة الإعلام وذلك بفضل علاقاته مع الشاب الديناميكي "براندن براكن" الذي أصبح وزير الإعلام في حكومة تشرشل في حزيران - يونيو عام ١٩٤١. وفي أيلول ـ سبتمبر، طلب الوزير الأول من براكن "أن يدرس وسائل مواجهة الاتجاه الحالي لدى الشعب الإنكليزي لنسيان أخطار الشيوعية، متحمسًا جراء المقاومة الروسية". وبعد قليل، عُيِّن سمولّت رئيسًا للدائرة الروسية المستحدثة منذ عهد قريب. وأعاد بدقة تحديد أمر الوزير الأول مستندًا على حديثه المذاع في ٢٢ حزيران - يونيو، وفيه وعد "بتقديم كل عون ممكن لروسيا وللشعب الروسي".

---

١ ـ تطوّر الإسم من سمولكا إلى سمولّي، ثمّ إلى سمولّت.

٢ ـ West W.J., *The Truth About Hollis*, Duckworth (London,1989), P. 47.

وكما يعرض سمولِّت ترتكز الأولويتان على:

"(أ) محاربة المشاعر المعادية للسوفيات في بريطانيا العظمى المحدقة بتنفيذ السياسة التي حدّدها رئيس الوزراء في الثاني والعشرين من حزيران - يونيو. استبعاد محاولات العدو الهادفة لتمرير الوحدة الوطنية قبل التحالف الأنكلو - سوفياتي".

"(ب) إن محاولة احتواء دعاية اليسار الغزيرة المشايعة للسوفيات التي قد تُربك جديًا حكومة جلالتها. استباق الانتقادات ذات النفس الشيوعي وعلى هذا النحو تفادي الوقوع في أحضان الحزب الشيوعي".

إرتكزت وسيلة "احتواء الدعاية النشيطة المشايعة للسوفيات" كما يفسر سمولِّت، "على قطع الأعشاب من تحت أقدام" اليسار الراديكالي وذلك بالتفوق عليه في أرضه "مع احتفاظنا بهذه الدعاية حول الطرق الأكثر نفعًا من وجهة نظرنا"... قطع الأعشاب من تحت أقدام اليسار الراديكالي يعني ببساطة تعظيم إنجازات الجيش الأحمر بطريقة تجعل الشعب الروسي والنظام السوفياتي متماهيَين.

ويحدد سمولِّت عمله الخاص بالطريقة التالية: "قيادة الدائرة عمومًا" وأمين الاتصال مع وزارة الخارجية والسفارة السوفياتية والسلطة التنفيذية".. وقد كتب إيفان فايّسكي، السفير السوفياتي إلى براندان براكن في تشرين الثاني — نوفمبر عام ١٩٤١ ليؤكد له على أنه "سيكون كل شيء على ما يرام لكي يتمكن السيد سمولّت من المحافظة على اتصال محدود بسفارتنا". أما صلة سمولّت فكانت أناتولي غورسكي، الذي رأى أن ترتيب موعد معه أسهل من الموعد مع "الخمسة الكبار".

مستهجنة هذه الزيارات المتواترة أكثر فأكثر للسفارة، حاولت وزارة الخارجية "جعل سمولِّت يستوعب أهمية أقصى درجات السرية في استخدام الإعلام".

نجح سمولّت بإقناع "ر. هـ. باركر"، مدير القسم الداخلي، أن على الوزير تفادي استخدام "الروس البيض وفي الوقت ذاته الإنكليز الحمر" لمناقشة القضايا السوفياتية. وقد خدم هذا الاقتراح، المنصف ظاهريًا، الـNKVD خدمةً متقنة. ومن الطبيعي أن تحل اللعنة على الروس البيض. غير أن الـNKVD فضلت كذلك رؤية الوضع السوفياتي وقد شرحه إنكليز حياديون مبدئيًا وليس شيوعيون مخلصون. وقد صوّر سمولّت إرادة السفارة السوفياتية في الابتعاد عن المجموعات المشايعة للسوفيات علنًا على أنها تنازل كبير: "وقد سألني رئيس الفرع الصحافي في السفارة أن أقول له بصراحة إذا كنت أعتبر أن بعض التنظيمات المشايعة للسوفيات في هذا البلد تشكل إزعاجًا للحكومة. وقد أجبت بصراحة أن الحكومة تفضل التعامل مع هيئات روسية رسمية. وقد أكد محدثي مباشرة على أن السفارة كانت قد قررت عدم الاهتمام تمامًا بمصير تجمعات مثل المجتمع الروسي الآن وأصدقاء الاتحاد السوفياتي وجريدة روسيا الآن". وقد دعم باركر اقتراح سمولّت في أن يطلب مساعدة السفارة "لاستدعاء معلقين من روسيا قد يلتزمون بدقة بيانًا مقبولاً من حكومة جلالتها ومن السفارة السوفياتية".

وقد اتخذت هذه الرعاية التي نظمها سمولّت بحجة ماكرة هي "قطع العشب من تحت أقدام اليسار الجذري" حجمًا غير عادي. فجرى تنظيم اجتماع هائل في شباط ـ فبراير عام ١٩٤٣ في ألبرت هال احتفاءًا بالعيد الخامس والعشرين للجيش الأحمر؛ وأدّت جوقة ألحانًا غنائية في مدحه وقرأ كل من جون جيلغيد ولورانس أليفي نصوصًا، وحضره قادة الأحزاب السياسية الرئيسية. وحيّت إعلانات رسمية بشدة المدنيين الروس مثلما حيّت الجنود. وجالت على عدة معارض في البلاد، وعرض فيلم "الاتحاد السوفياتي في الحرب" أمام ١,٢٥٠,٠٠٠ عامل. وخلال أيلول ـ سبتمبر وحده من عام ١٩٤٣، أقام وزير الإعلام اجتماعات حول الاتحاد السوفياتي في ٣٤ مكانًا

عامًا وفي ٣٥ مخزنًا ومع مئة رابطة من المتطوعين و٢٨ مجموعة من الدفاع المدني و٩ مدارس وفي سجن واحد؛ وفي الحقبة ذاتها، بثت الإذاعة البريطانية BBC ثلاثين برنامجًا تتكلم باختصار عن الاتحاد السوفياتي[1].

إحتج أحد زعماء حزب المحافظين في مجلس العموم قائلاً" "إن الأفلام التي عرضها وزير الإعلام وفيها أن روسيا تنعم بحياة سعيدة عدّلت أفكار الكثير من الناس حول الشيوعية"... وقد نجح سمولّت كذلك بإلغاء العديد من التعليقات النقدية حول أعمال الاضطهاد الستالينية. وحتى أن الوزير توصل لإقناع الناشر "جوناثان كاب" بعدم توزيع رائعة أورويل النقدية "مزرعة الحيوانات"...

وقد تعاون سمولّت تعاونًا وثيقًا مع الـBBC "وذلك بتنقيح المخطوطات عن روسيا التي تستخدمها الدائرة الداخلية". وبوجود "غي بورجيس"، مخرج مباحثات المؤتمر بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٤، امتلكت الـNKVD صوتا قويًا داخل هذا البيت. وفي تموز ـ يوليو عام ١٩٤١، أي بعد شهر من الغزو الألماني، أذاع بورجيس لائحة "بمشاريع اقتراحات حول المحاضرات عن روسيا" تغطي الأدب والعلم والثقافة والتخطيط الاقتصادي. ("فقد كان الاتحاد السوفياتي ذا تجارب مفيدة"...) والسياسة الخارجية ("المنظور إليها بجدية، ويجب أن تتيح مجالاً لجدال موضوعي")، وقد تضمنت الاقتراحات حول الثقافة سخرية لاذعة بأن إدارة الـBBC لا تنتهز الفرصة المناسبة: "إن الدكتور كلوجاندر والدكتور بلونت يمكنهما القيام بتعليقات مقبولة حول الفن ـ فكلاهما غير شيوعيين. أما كريستوفر هيل (رفيق من معهد الأل سولز) فهو شيوعي، غير أنه صاحب أعلى سلطة على الدراسات التاريخية الروسية"...

---

١ - Mc Laine Ian, *Ministry of Morale,* Allen and Unwin (London,1979), PP. 202-203.

إن الضربة الأقوى التي وجهها بورجيس لإذاعة الـBBC لصالح الـNKVD هي ترتيبه حديثًا مع العميل السري السوفياتي "إرنست هنري" وموضوعه "الجبهة الشرقية عام ١٩٤٢". إن هنري هو الذي دفعه للتعاطف مع "حلقة الخمسة" عام ١٩٣٣...

عاملاً في لندن حتى الآن تحت غطاء صحفي، أعلن هنري للمستمعين أن الجيش الأحمر سينتصر لأن "الجنود يدافعون عن الشعب وعن الوطن الأم وعن حكومة الشعب". مستفيدًا من هذه الفرصة بعث رسالة خاصة موجهة للجواسيس. وقد أعلمهم عبر الأثير بأن الاتحاد "كان لديه أفضل دوائر المخابرات في العالم"؛ فقد كان الغستابو، والـ MI-5 ضمنًا، عاجزًا أمامه... أما العملاء السوفيات الذين أتيحت لهم الفرصة للإصغاء لهذا البرنامج غير العادي عن انتصار الـNKVD وعلى هوائيات الـBBC فقد ملأ الاعتزاز قلوبهم.

إن مدير برنامج المناقشات على موجات الدائرة الداخلية، جورج بارن، الذي حاز على وسام الشرف في ما بعد، صديق بورجيس منذ إقامة هذا في منزله في كمبردج، دافع بقوة عن موظفيه ضد الإدعاءات التي تؤكد على "أن برامجنا الإذاعية هي لصالح اليسار"؛ ومع ذلك فهو يعلم أن مخرجيه هم في أكثريتهم "من الشباب، ومن المسلَّم به أن ينضم الشباب إلى الأوساط التقدمية". ومع ذلك فقد كانت الـNKVD مضطرة لملاحظة أن قسم، الأخبار في الـBBC لا يتبع الخط الذي رسمه قسم المناقشات. وفي ربيع عام ١٩٤٣، أرسلت السفارة السوفياتية إلى برندان إحتجاجًا غاضبًا بخصوص تغطية القضايا السوفياتية التي تقوم بها نشرة الأخبار في الـBBC. وقد رفعه براكن إلى المدير العام وأعلم السوفيات أنه وإذ يردّ اتهاماتهم، فإن الـBBC كانت قد اتخذت إجراءات التهدئة المناسبة.

وما بين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٥، وجّه غورديفسكي "الإجراءات الفعّالة" السوفياتية في لندن، وأعلم بها المخابرات البريطانية؛ وفي الوقت ذاته، فكّر بهذه السابقة أي بعمليات الإخراج التي قام بها سمولِت وبورجيس خلال الحرب العالمية الثانية. مهما تكن درجة مهارتها، فلم يكن لهذه الإجراءات الفعّالة التأثير الذي توهمت الـNKVD أنه موجود. أما بالنسبة لأكثرية الإنكليز، فإن إنجازات الجيش الأحمر تتكلم عن نفسها: إذ فقدت القوات السوفياتية عددًا من الجنود في ستالينغراد في خريف ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ أكثر مما فقد البريطانيون والأميركيون في كل معارك الحرب. وقد أشار قسم الإعلام الداخلي في وزارة الإعلام في بداية عام ١٩٤٣ إلى ما يلي: "مهما تكن الأخبار السارة، مؤثرة أحيانًا، وآتية من أقاليم أخرى، فإن أنظار وقلوب أكثرية الناس تبقى باتجاه "حلفائنا الكبار". ويبدو أن انتصار ستالينغراد أثار "إعجابًا أقوى من أي فتح روسي آخر"، وظهر أن حماس وامتنان الأكثرية لم يكن في السابق على هذا المستوى"[1].

مراعية نصر ستالينغراد، ستفضل حتى وزارة الخارجية البريطانية أن ترى بجلاء مذبحة الضباط البولونيين في غابة كاتين على يد الـNKVD. ساهمت حملة الإجراءات الفعّالة التي نسّقها سمولِت في وزارة الإعلام في إخفاء التمييز بين بطولة الشعب الروسي والنظام الستاليني، إنما وبمقارنة انتصارات وهزائم الجيش الأحمر، فإن تأثير هذه الحملة على الرأي العام البريطاني كان هامشيًا.

إن حلّ الكومنترن المفاجئ عام ١٩٤٣ شكّل عملية فريدة "للإجراءات الفعّالة". وكان الهدف لهذه المناورة غير المتوقعة هو التسريع في تغيير صورة الاتحاد

---

١ - Mc Laine, *Ministry of Morale*, P. 209.

السوفياتي في الغرب، والإيهام بأن السلطة القائمة في موسكو لم تعد ترغب في تصدير الثورة، وإنما على العكس فهي تسعى إلى توطيد التحالف المولود في الحرب بهدف بناء العالم الجديد الذي لا بدّ من ولادته. وفي حديث مع مندوب وكالة رويتر في موسكو، شرح ستالين إلغاء الكومنترن على النحو التالي:

"(أ) لقد فضح كذب الهتلريين الذين يدعون أن "موسكو" تنوي التدخل في حياة الأمم الأخرى "وبلشفتها". لقد وضع حدٌ لهذه الكذبة.

"(ب) لقد كشف وشاية أَعداء الشيوعية داخل حركة العمال، الذين يرون في الأحزاب الشيوعية في شتى البلدان عوامل مؤثرة ليس من أجل مصالح شعوبها وإنما على المستوى الخارجي. لقد تقرر مصير هذه الوشاية كذلك".

ويقول ستالين بأن السياسة السوفياتية شجعت اتحاد كل "القوى التقدميَّة... دون الاهتمام بالحزب أو الإيمان الديني". وتعمل "من أجل التنظيم المقبل لصداقة بين الأمم مرتكزة على المساواة"... وفي الوقت ذاته. كان سمولّت يروج عبر الـBBC وعبر الوسائط الأخرى أن "تحولاً حاسمًا... قد حصل في السياسة السوفياتية في ظل ستالين": "تريد السياسة التروتسكية تعزيز أمن اتحاد سوفياتي ضعيف بواسطة حركات التخريب المنتشرة في البلاد الأخرى والتي يشرف عليها الكرملين: أما السياسة الستالينية فاعتمدت وتعتمد الآن على بناء روسيا قوية والمحافظة على علاقات صداقة مع الحكومات الأخرى... وبالتوازي هناك تغير في كوادر قيادة الاتحاد السوفياتي السياسية. فقد جرى وبالتدريج استبدال الثوريين الأمميين العقائديين بإداريين وتقنيين، مدنيين وعسكريين معًا، الذين يرغبون الحصول على نتائج ملموسة"...

ومع أنه شجع في الحقيقة الشيوعيين الأجانب للتحول إلى وطنيين، فلم تكن لدى ستالين أدنى نية في تحريرهم من الالتزام بطاعة موسكو. ففي الوقت ذاته الذي كان

يعتبر فيه الاتهامات بالتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى على أنها "وشايات"، فإن تسلل الـNKVD في لندن وواشنطن وصل إلى مستويات قياسية. إنّ حل الكومنترن كان نجاحًا دعائيًا. فهذا السناتور توم كونالّي، رئيس لجنة الشؤون الخارجيّة في مجلس الشيوخ، يفسّره كإشارة على أنّ الشيوعيّة الروسيّة لن تتدخّل في المستقبل بشؤون الأمم الأخرى. ولاحظت "النيويورك هيرالد تريبيون" تحول الاتحاد السوفياتي إلى دولة وطنية محكومة حسب طرق شيوعية حقًا، غير أنها رفضت أن تكون مركزًا للشيوعية الدولية[1].

إن الصورة التي يقدمها الاتحاد السوفياتي للغرب كانت مخاض اهتمام ستالين المباشر، لأنه كان يعوّل كثيرًا على تقليص تخوف حلفائه من التأثير السوفياتي المتعاظم في أوروبا الشرقية والوسطى وذلك قبل المباشرة بمحادثات حول الشكل الذي سيرسو عليه العالم بعد الحرب. وهيأت له الـNKGB/NKVD إمكانية هائلة في المساومة. لقد قامت دوائر المخابرات الغربية بدورها ضد ألمانيا بشكل أفضل بكثير مما قامت به زميلاتها السوفيات. فلم يسجل الاتحاد السوفياتي أي نجاح مشابه للمعلومات "الفائقة الحساسية Ultra". غير أن السوفيات خصصوا إمكانيات أهم بكثير لاختراق حلفائهم؛ إمكانيات لم يتمكن حلفاؤهم من امتلاكها لمواجهة الاتحاد السوفياتي. وهذا عكس الأسطورة المنتشرة بعد الحرب والتي تقول بأن الدوائر السرية الغربية كانت قد انطلقت في الحرب الباردة قبل هزيمة ألمانيا بوقت كبير. وفي أول لقاء للثلاثة الكبار في طهران عام ١٩٤٣، كان هناك تباين هائل بين المعلومات التي بحوزة ستالين وتلك التي استخدمها تشرشل وروزفلت. فقد قام عملاء الـNKVD بعملهم خير

---

١ - Thomas Hugh, *Armed Truce: The Beginnings of Cold War*, Hamish Hamilton (London,1986), P. 67.

قيام بينما لم يكن لدى الـOSS وSIS أي عميل في موسكو. وكونهم نجحوا بتركيز نظام تنصت داخل السفارة الأميركية في موسكو، فقد كانت معرفة ما يقوله روزفلت وحاشيته في طهران لعبة أطفال عند الـNKGB. وقد أطلق مولوتوف عشوائيًا بأنه يحتجز معلومات عن التحضير لهجوم ألماني، وأن المفوضية الأميركية، البعيدة أكثر من كلم واحد عن السفارتين البريطانية والسوفياتية، هي هدف هذا الهجوم. عندها عرض تشرشل استضافة روزفلت، وكون هذا الأخير غير راغب بإثارة ظنون ستالين حول تواطؤ أنكلو - أميركي محتمل، فقد رفض... ولم يتمكن إلا أن يقبل دعوة ستالين الملحة في البقاء معه في مفوضيته في إحدى شقق تجمع السفارة السوفياتية. وهذا هو الجنرال إسماعي Ismay، رئيس الشعبة العسكرية في أمانة سر حكومة الحرب، يكتب في مذكراته: "وأتساءل إذا لم يكن قد تم تركيز ميكروفونات توقعًا لهذه الإقامة[1]!" لا مجال للشك بحصول هذا الأمر. ضيوف في حمى الاتحاد السوفياتي، يقوم بخدمتهم موظفوا الـNKVD، أحاديثهم مرصودة باستمرار من مضيفيهم، ها هم الأميركيون يشاركون في أول مؤتمر قمة مع قائد سوفياتي وقد حُكِم عليهم ممارسة نوعٍ من الدبلوماسية المفتوحة.

لم تكن ميزة ستالين محصورة في هذا الإطار. فقد كان مستشار روزفلت في طهران هو هاري هوبكنز الذي كانت تعتبره الـNKVD على أنه عميلها. أما وجهة نظر هوبكنز عن دوره الشخصي فكانت مختلفة كثيرًا. فهو لم يرغب قط بتدخل النظام السوفياتي في الولايات المتحدة، غير أنه كان يرضى بأن يتلقى اتصالات سرية من "الرفيق ستالين" وأن يعبّر في السر وفي العلن عن اعتقاده التالي: "بما أن روسيا هي

---

١ - Dilks David N.(ed.) The Diaries of Cadogan OM 1938-1954, Cassell (London,1971), P. 579.

العامل الحاسم في الحرب، فيجب أن تتلقى كل عون ضروري ويجب القيام بكل الجهود لاستمالتها". وعلى عكس روزفلت وفرع الدولة Département d'Etat سبق له أن استنتج أن على الولايات المتحدة القبول في "سيطرة الاتحاد السوفياتي على أوروبا بعد هزيمة النازيين" وأن الصداقة السوفياتية ـ الأميركية قد تصبح مفتاح عالم ما بعد الحرب. وقد شجع روزفلت على الاعتقاد بإمكانية النجاح حيث فشل تشرشل وعَقْدَ صلات شخصية مع ستالين. وحسب أمين سر الدولة كوردل هيل غير المدعو إلى طهران مثل هوبكنز، "كان الرئيس يأمل في أنه قد يتمكن بلقاء شخصي مع ستالين من تسوية كل المسائل العالقة بين روسيا ومجوعة "الأمم المتحدة" تقريبًا"[١]. إن وجود جيوش أميركية في أوروبا، بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة كانت قد أصبحت صاحبة أكبر الفرق العسكرية في العالم، جعل هوبكنز يعتقد أن ذلك أجبرها على القيام بدور رئيسي في التحالف الأنكلو ـ أميركي. وقد تناول ذلك بطريقة مضطربة مع لورد موران، طبيب تشرشل، قبل بدء المؤتمر: "من المؤكد أننا نتهيأ لمعركة في طهران. ستجدنا صفًا واحدًا بمواجهة المواقع الروسية"[٢]. وقد اضطر "شيب بوهلن"، المترجم الأميركي في حينه، لأن يصف التأثير الذي يمارسه هوبكنز على الرئيس بأنه "مطلق". وهكذا جرى استبعاد كل مستشاري السياسة الخارجية. وها هو الدبلوماسي "روبرت مورفي" يشكو إلى "كوردل هيل" من أن أمانة سر الدولة لم تطّلع على ما دار بين روزفلت وستالين. وقد أجاب هيل بأن السعادة غمرته كونه تلقى أخبارًا من طهران[٣].

---

١ - Hull Cordell, *The Memoirs of Cordell Hull,* Macmillan (N-Y,1948) vol. IIP. 1249.

٢ - Lord Moran, Winston Churchill: the Struggle for Survial 1940-1965, Constable (London, 1966)

٣ - Thomas, *Armed Truce,* PP. 170-171.

ففي طهران، وفي طهران فقط، كما أكد تشرشل في ما بعد، فهمت لأول مرة كم كانت الأمة البريطانية صغيرة: "اتخذت مكاني والدب الروسي الكبير من جهة، كل قوائمه في الخارج، ومن الجهة الأخرى الجاموس الأميركي الضخم، وبين الإثنين كان الحمار الإنكليزي الصغير"... وفي تشرين الثاني – نوفمبر، وبعد الدورة الثانية من المؤتمر، ذهب هوبكنز إلى تشرشل ليقول له بأن روزفلت وستالين قد ظهرا عنيدَيْن: فهما يريدان أن تحصل عملية أوفرلور، أي رسو الحلفاء في فرنسا، في أيار – مايو عام ١٩٤٤، وما على الإنكليز إلا أن يكفوا عن المعارضة. تنازل تشرشل. وعمليًا، بدأت عملية أوفرلور في السادس من حزيران – يونيو. إن أهم تنازل سياسي قدمه الشركاء لستالين هو اعترافهم للاتحاد السوفياتي بعد الحرب بحدود عام ١٩٤١، وهذا سمح له بتغطية المكاسب الإقليمية التي بقيت معلقة حسب الاتفاق الألماني - السوفياتي: بولونيا الشرقية. دول البطليك وبيساربيا؛ وعلى بولونيا أن تقبل تعويضًا إقليميًا على حساب ألمانيا. ولم يرَ أحدٌ أنه من المفيد استشارة الحكومة البولونية في لندن التي يقودها منذ تموز "ستانيسلاس ميكولاجسكي"... وعندما شنّع ستالين به، لم يبدِ الرئيس ولا رئيس الوزاراء أقل اعتراض... ولم يتجرأوا كذلك على إحداث خلاف بإثارة مسألة مذابح كاتين. وكان من المفروض التخلي عن البولونيين ليس فقط من جراء الأوهام حول موقف ستالين المقبل (أوهام أكبر بما لا يقاس عند هوبكنز وروزفلت مما عند تشرشل) بل كذلك من جراء الدَّيْن الأخلاقي الذي شعر به الغرب نحو الجيش الأحمر، في مرحلة كان لم يزل يتحمل فيها هذا الجيش العبء الأكبر من الحرب مع ألمانيا.

ترك ستالين طهران وفي جعبته مكاسب جمة. وبعد فترة قصيرة، أشارت السفارة الأميركية في موسكو إلى "انقلابٍ شبه ثوري" في لهجة الصحافة السوفياتية تجاه

إنكلترا والولايات المتحدة. فقد تم تحريك مجموع الآلة الدعائية للتنويه بوحدة الحلفاء و"قرارات طهران التاريخية"... فمن وجهة النظر السوفياتية، بدا وكأن الحلفاء اعترفوا "بحق روسيا في إقامة حكومات صديقة في البلاد المجاورة"، كما قال على حدة دبلوماسي روسي. أما الحكومة التشيكية الموجودة في منفاها في لندن ففهمت الإشارة بسرعة: وفي ١٢ كانون الأول عام ١٩٤٣، وقع الرئيس "بناس Bénèse" معاهدة صداقة وتحالف في موسكو، معتقدًا بسذاجة أن باستطاعته المتابعة إذا بقي على وئام مع ستالين، وقال بناس لقادة الحزب الشيوعي التشيكي في موسكو إنه يتوقع رؤيتهم على رأس التشكيلة السياسية الأقوى بعد الحرب[1].

وكان مؤتمر الثلاثة الكبار في يالطا، على شاطئ البحر الأسود في نيسان عام ١٩٤٥ نصرًا جديدًا سوفياتيًا، وهو كان المؤتمر الأخير الذي يحضره روزفلت، فقد توفي في نيسان - إبريل. وها هو الجيش الأحمر على أهبة إحكام سيطرته على بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلطيق وكذلك على قطعة كبيرة من ألمانيا، بينما كان على الغربيين، أن يجتازوا كذلك الرين رغم نجاح عملية أوفرلور. وقد امتلك ستالين كذلك ميزة حاسمة في مجال المخابرات: كان لدى الـNKGB جاسوسين في دوائر وزارة الخارجية البريطانية: دونالد ماك لين في السفارة البريطانية في واشنطن وفي بورجيس الذي كان قد ترك الـBBC عام ١٩٤٤ للالتحاق بقسم الإعلام في وزارة الخارجية البريطانية. أما داخل وزارة الدولة الأميركية فكان هناك ألجر هيس الذي أصبح عضوًا في الوفد إلى يالطا. وبصفته مديرًا مساعدًا في مكتب الشؤون السياسية الخاصة منذ

---

١ -Mastny Vojtech, *Russia's Road to the Cold War*, Columbia University press (New York,1979), PP. 132-139.

أواخر عام ١٩٤٤، فقد قام بدور فعّال في التحضير لهذا (٣٥٩) المؤتمر. وبترحيب كبير من NKGB، ها هو هاري هوبكنز الذي كان قد فقد شيئًا من حظوته في البيت الأبيض عام ١٩٤٤، يصبح من جديد ورغم مرضه، المستشار الرئيسي لروزفلت المريض بشكل واضح.

نزل الأميركيون في قصر القياصرة الصيفي القديم في ليفاديا، والبريطانيون على مسافة عشرين دقيقة من هناك في "نوع من البالمورال القوطي"، هو قصر فورنتسوف. وكان هذان البناءان محشوين بأجهزة التنصت. وبدا أن الأميركيين بشكل خاص لم يراعوا الحيطة قط. وقد توصلت الـNKGB بشيء من النجاح لتحويل الانتباه العام، وذلك بأن قدمت لنزلائها الأجانب ضيافة باذخة وكريمة أشرف عليها شخصيًا النائب الأول المفوض، الجنرال "سيرجي نيكيفوروفيتش كروغلوف" الذي أثرت صورته بالآنسة جوان برايت، من أمانة سر وزارة الحرب؛ فقد ترك لها الانطباع أنه "الرجل الأقوى الذي رأيته في حياتي، فكل ما فيه ضخم هائل من كتفيه إلى يديه ووجهه ورجليه". وعشية أعمال المؤتمر، أعلن كروغلوف أمام الآنسة برايت أن الإنكليز كانوا غير مقبولين من الروس ومد يديه الواسعتين: "لقد تلقينا الكثير من الطلبات من الأميركيين وعملنا ما بوسعنا لتلبيتها، لكن من البريطانيين، أبدًا، أبدًا..." وقد طيبت الشابة خاطره قدر المستطاع وسلمته لائحة طويلة من الشكاوى[١].

وقد كتبت سارة تشرشل، التي كانت ترافق والدها، إلى أمها: "إننا مدلّلون كثيرًا هنا. وهذا شيء رائع!" فقد كان أكثر من ألف جندي روسي قد رمّموا الطرقات وأعادوا بناء البيوت وتزيينها وشجروا الحدائق. كانت الجدران مزدانة بالروائع الفنية

١ - Astely Joan Bright, *The Inner Circle*, Hutchinson (London,1971), P. 189.

المستعارة من متاحف موسكو، أما الحطبات الغلاظ فتطقطق في المدخنة الملوية، وفرشت الأرض بالسجاد الإيراني، وكانت الشراشف الناصعة البياض المنشّاة تزين كل الطاولات، وكان مدراء الخدم يرتدون الثياب البيضاء والخادمات فساتين سوداء ومراويل بيضاء. وعلى حد قول الآنسة برايت، كان على الطعام الخروج من حكاية الجنيّات". ومرةً قالت عرضًا أنها لم تذق قط فروج كييف؛ وفي أقل من ساعة، حمل إليها مدير الخدم الصحن المطلوب "مع بسمة من الاعتزاز". وعندما أكدت سارة تشرشل على أن عصير الليمون مستساغ مع الكافيار، وكما السحر ظهرت شجرة ليمون ضخمة في حديقة الليمون في قصر فورونتسوف. وكان للأميركيين الحق بالمعادلة ذاتها. وقد وُعِد كروغلوف بأن يكون فارس الامبراطورية البريطانية في المؤتمر المقبل في بوتسدام، وأصبح الضابط الوحيد من الـKGB الذي حصل على شرف النبالة[1].

وفي ما يتعلق بالناحية الاقتصادية لمحادثات يالطا، فإن هاري ديكستروايت، أهم عميل للـNKVD متسللٍ إلى وزارة المال الأميركية، ساعد بقوة المفاوضين السوفيات، وبصفته مستشارًا لمورجنتو، أمين سر وزارة المالية، أخذ بُعيْد الحرب. وقد أصبح مع لورد كينيس الشخصية المهمة في مؤتمر برتون وودس Bretton Woods، في تموز - يوليو عام ١٩٤٤، الذي وضع الأسس لصندوق النقد الدولي (FMI) والبنك الدولي للتعمير والتنمية (BIRD)؛ وأصبح في كانون الثاني - يناير عام ١٩٤٥، مساعد أمين سر الخزانة. وفي الخامس من شباط - فبراير بدأت المفاوضات حول التعويضات في يالطا. طلب مولوتوف من الأميركيين اعتمادات إلى أجل طويل. وطالب أن تموّل

---

١ - Collier Richard, *The War that Stalin Won*, Hamish Hamilton (London), PP. 237-239.

ألمانيا تعويضات كثيفة. أما مايبيسكي، نائب مفوض الشؤون الخارجية فطلب إزالة عملية التصنيع الألمانية، وتفكيك صناعاتها التسليحية و ٨٠٪ ممّا تبقى من صناعتها الثقيلة، ومصادرة مصانع قيمتها الإجمالية عشرون مليار دولار، يُنقل نصفها إلى الاتحاد السوفياتي. ومع أنه لم يكن حاضرًا في يالطا، فقد سبق لوايت أن قام بما هو ضروري لمساعدة الاتحاد السوفياتي. ففي كانون الثاني - يناير عام ١٩٤٥، وضع تقريرين أرسلهما مورجونتو إلى الرئيس. يقترح الأول قرضًا للاتحاد السوفياتي بعشرة مليارات دولار وبفائدة ٢٪ ولمدة ثلاثين عامًا ويمكن استيفاؤه موادًّ استراتيجية. ويعلن الآخر أنه "من الضروري" تفكيك الصناعات الكيميائية والمعدنية والكهربائية الألمانية وذلك للحيولولة دون عدوان جديد: "إن الحجة الحقيقية لهؤلاء الذين ناهضوا إضعاف ألمانيا هي ... من روسيا ومن الشيوعية. إنها الفكرة، التي تعود لعشرين سنة مضت، فكرة "ستار حديدي بمواجهة البلشفية"... والتي كانت أحد العوامل التي أدت إلى انفجار الحرب فوق رؤوسنا... وبرأيي ليس هناك من شيء في هذا الوقت يمكن أن يؤدي إلى خلق الثقة أو الريبة بين الولايات المتحدة وروسيا سوى الموقف الذي ستتبناه هذه الحكومة بالنسبة للمسألة الألمانية".

إن مرافعة وايت لم تتمكن على كل حال من التغلب على معارضة أمانة سر الدولة الأميركية لإقراض عشرة مليارات دولار إلى روسيا ولتفكيك الصناعة الألمانية. غير أن روزفلت، وبخلاف تشرشل، قبل التقدير السوفياتي البالغ عشرين مليار دولار كتعويضات، يعود نصفها إلى الاتحاد السوفياتي "كأساس للمباحثات" في لجنة التعويضات التي أقرّها الكبار الثلاثة والتي عليها أن تجتمع في موسكو. وكان قد سبق لوايت أن سهّل الهبة السرية من الإعانات المالية الأميركية للاتحاد السوفياتي. وعام ١٩٤٤، نقل إلى NKVD بواسطة سيلفر مايستر، نماذج من العِملة التي صكّتها وزارة

الخزانة الأميركية وستستخدم في ألمانيا. كان رد فعل الروس سريعًا. طلبوا من وايت تزويدهم بالمَسْكبات "وبمساطر" الحبر والورق لكي يتمكنوا من طبع الأوراق المالية من ناحيتهم. وقد اعترض مدير مكتب الدمغة والنقش عن حق بأن "السماح للحكومة الروسية في بأن تطبع عملة مشابهة بتلك التي تم صنعها في هذا البلد يجعل كل تدقيق أو تحقيق مستحيلاً". وقد احتج وايت معلقًا بالقول بأن الروس قد يؤولون ذلك على أنه عدم ثقة بنزاهتهم. "علينا الوثوق بهم بمقدار ثقتنا بحلفائنا الآخرين". وبعد أسبوع، تلقى الروس المسكبات... وعام ١٩٥٣، وفي جلسة لمجلس الشيوخ، أعلن أحد الموظفين: "ليس هناك من وسيلة لتعيين إلى أي حد استخدم الروس مسكبات أوراق العملة هذه". وتقدر خسائر المكلَّف الأميركي بملايين الدولارات...

هذا، وقد كانت المواضيع الرئيسية المطروحة في يالطا سياسية. وقد خُصِّص القسم الأكبر من الوقت للمسألة البولونية. وهذا كادوغان، نائب أمين السر الدائم في وزارة الخارجية البريطانية يشرح لزوجته: "سيكون هذا الموضوع هو الأهم... لأنه وفي نهاية المطاف، إذا لم نتمكن من الحصول على نظام بولوني لائق، فإن كل خططنا الطموحة في أنظمة عالمية لن يكون لها معنى"... ففي طهران، منح تشرشل وروزفلت للاتحاد السوفياتي الحق بالسيطرة على بولونيا وبرسم الحدود. وهما يحاولان الآن، متأخرين، التوفيق بين هذا التخلّي وبين الميثاق الأطلسي طالبين ضمانات حول الطابع الديمقراطي لبولونيا المستقبل، ضمانات لا تتوافق مع الطرق الستالينية. فبولونيا، كما قال تشرشل "يجب أن تكون سيدة في بيتها ووصية على نفسها". وهذا يفرض إزاحة الحكومة الموقتة الدمية، حكومة لوبلان Lublin، التي أقامها الروس وإجراء انتخابات حرة. وقد فاوض ستالين بأريحية، مستغلاً أولاً الوقت، ثم متجنبًا الأسئلة الثانوية بعد أن أصرّ على أهميتها الفائقة، وهذا بهدف أن لا يعود الغربيون عن تنازلاتهم في

موضوع بولونيا، التي تشكل المفتاح لإقامة نظام ستاليني في أوروبا الشرقية. وكقاضٍ صعب المراس عادةً، روى كادوغان لزوجته: "لم أرَ الروس أبدًا متساهلين على هذا النحو. كان "جو" خاصة طيبًا للغاية. إنه رجل عظيم، ويتميز بطريقة مؤثرة بالنسبة للقائدَين الهرمين الآخرين، وخصوصًا الرئيس المتعب جدًا والمرتجف".

قام ستالين بطمأنتهما على هذا النحو، انكب تشرشل وروزفلت على مهمة صعبة في إيجاد صيغة تسمح بإنقاذ ماء الوجه في بولونيا. فبدلاً من حل حكومة لوبلان المؤقتة، جرى توسيعها ببساطة لتضم "بعض الزعماء الديمقراطيين". أما الانتخابات المنظمة في بولونيا بعد الحرب فلن يشرف عليها الحلفاء، بل ستقوم بذلك الحكومة المؤقتة بالذات، والتي لن تجد مشقة في تزوير النتائج بفضل مساعدة الـNKVD البصيرة.

في يالطا، لم يكن مضمونًا دائمًا أن مشروع منهاتن سينتهي في الوقت المناسب وذلك عند نزع سدادة قنبلة ذرية لإرغام اليابان على الاستسلام. فقد داخل الشك الأميركيين في أن يكونوا مضطرين لغزو الأرخبيل. ورغب ستالين كثيرًا في أن يقنع نفسه بإعلان الحرب على هذا البلد لقاء التخلي للاتحاد السوفياتي عن جنوب جزيرة سخالين وأرخبيل الكوريل، والإشراف على منشوريا ومنغوليا الخارجية المنتزعة من الصين. وقد قبل أيضًا، بعد معارضة، أن تستحوذ فرنسا على منطقة احتلال في ألمانيا، مقاطعة من المنطقتين الإنكليزية والأميركية، ومقعدًا في مجلس الحلفاء للمراقبة. وبعد أن تصنّع الرفض مرة أخرى، رضي مرغمًا، إقرار المشروع الأميركي الخاص بمجلس الأمن الذي فتح الباب لولادة الأمم المتحدة. وخلال الدورة الأخيرة للمؤتمر، مرّر هوبكنز ملاحظة إلى روزفلت تبدأ بهذه الكلمات: "لقد أعطى الروس كثيرًا لهذا المؤتمر حتى أني لا اعتقد أن علينا تركهم يسقطون". ترتبط هذه

الملاحظة خصوصًا بالتعويضات غير أنها تختصر جيدًا وجهة نظر هوبكنز حول المؤتمر بكامله. لقد ترك يالطا فرحًا يملؤه الإعجاب بعبقرية ستالين: "لقد آمنّا فعلاً ببزوغ فجر هذا اليوم الجديد الذي صلّينا جميعًا من أجله وتكلمنا كثيرًا عنه خلال سنوات... لقد برهن الروس عن أن بإمكانهم أن يكونوا عقلانيين ومتبصرين، ولم يكن عند الرئيس ولا عندنا أدنى شك بأننا نستطيع العيش بهناء معهم أطول مدة ممكنة. إنما عليَّ أن أقوم بهذا التصويب: لقد كنا جميعًا مقتنعين بأنه إذا حصل شيء ما لستالين فلن نكون مؤهلين للتنبؤ بالنتائج. كنا على يقين أن بإمكاننا الاعتماد عليه كونه منصفًا، عاقلاً ومفكرًا، وتلك ليست حالة من هم وراءه في الكرملين".

كان ألْجر هيس يشارك هوبكنز فرحه. فقد كتب بعد المؤتمر رسالة تهنئة إلى سكرتير الدولة ستتينيوس Stetinius على العمل الرائع الذي تم إنجازه. لقد كان ستتنيوس في الواقع أكثر من "رجل شرف" في عملية إعداد السياسة الأميركية في يالطا. وقدم عمل هيس للـNKVD فرصة ثمينة للتسلل إلى التنظيم الجديد للأمم المتحدة. وفعلاً فقد أصبح في نيسان ـ إبريل عام ١٩٤٥، أمين السر العام الموقت ومنظم مؤتمر سان فرنسيسكو. ولم يكن أمرًا مفاجئًا أن يعبِّر غروميكو عن "احترامه الكبير لألْجر هيس وخصوصًا على إنصافه وتجرده". وقال لستتينيوس بأنه سيكون سعيدًا أن يراه أمين السر العام للمجلس التأسيسي للأمم المتحدة، وهو مركز قد يخوّله لتبوء منصب السكرتير العام الدائم...

أنهى ستالين مؤتمر يالطا بابتهاج كبير. وعند أخذ الصور التذكارية، أراد جمع شريكيه، وإبداء فرحه مرددًا الكلمات الوحيدة التي اتقن لفظها بالإنكليزية: "أقلت ذلك!"؛ "إذن؟"؛ "هل يمر الشيطان من هنا؟"؛ "المغسلة من هنا"... كانت المعلومات الممتازة التي استخدمها أحد مفاتيح نجاحاته كمفاوض. فقد كان لديه اطّلاع أفضل من تشرشل

وستتينيوس على المناطق التي كان روزفلت مستعدًا لأن يتخلى له عنها لقاء دخوله الحرب ضد اليابان. أما الرئيس الأميركي فهو، على العكس، لم يفهم أن ستالين، البعيد عن أن ينجرّ مرغمًا إلى الحرب ضد اليابان، لم ينتظر سوى هذه الفرصة لرفع شأن الاتحاد السوفياتي. إنما وكالعادة، فإن ريبة ستالين المفرطة المتماهية أحيانًا مع الذهان الهذياني، حدّت من استعداده للانتفاع إلى أقصى درجة من المعلومات التي كان يتلقاها. ففي يالطا، راح يجتر طويلاً الأسباب التي دفعت تشرشل وروزفلت للمعارضة في المسألة البولونية بينما كان قد أقرّ المبدأ في طهران، قبل ذلك بسنة. غير قادر على فهم سبب اعتراضاتهما، التي رغم فتورها كانت تنطلق من التزام صادق بحقوق الإنسان، فتش حتمًا عن تفسير أكثر تشاؤمًا. فقد عاد خوفه القديم من مؤامرة ما تطفو على السطح. فها هو يؤكد في تموز - يوليو عام ١٩٥٢ للإشتراكي الإيطالي بيترو نني Nenni على أن الكاردينال سبلّمان كان قد حضر مؤتمر يالطا متنكرًا: إنه هو بالذات، يقول الدكتاتور، الذي حرّض "صديقه" روزفلت ضده". وبما أن بيترو نني لم يشك ولو للحظة بصدق ستالين، وفسّر هذا الخروج على أنه إشارة إلى يقظة للوسواس المتواتر لدى الزعيم السوفياتي في أن يكون هدفًا لمؤامرة فاتيكانية. وقد ارتكزت نظرية مؤامرة فاتيكانية على وجود إد فلين Ed Flynn غير اللائق ضمن البعثة الأميركية، وفلين هذا هو المدافع الديمقراطي عن برونكس والذي بعد تركه الكريمي، شبه جزيرة في البحر الأسود، اتصل بروما قبل عودته إلى بلده.

معلقًا على "مؤامرة سبلّمان" المزيفة هذه، وصف الدبلوماسي البريطاني ر. أ. سيكس Sykes عن حق رؤية ستالين للعالم بأنها "خليط من الفطنة والغباوة"، وهذا الخليط ذاته سيميز استخدامه للمعلومات التي ستنقل له خلال الحرب الباردة[1].

---

١ - أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتية، ص٢٤٦ - ٢٦٣.

ليبَا دُومب: الأوركسترَا الحَمرَاء

"ليبَا دُومب"، كان يردّد دائمًا: "أنا شيوعيّ لأنّني يهوديّ". وكان ذلك بمثابة تفسير معياريّ من جانب هؤلاء اليهود الأوروبيّين الشرقيّين الذين اعتبروا الماركسيّة خلاصهم الوحيد في أوروبّا المراوغة والمعادية للساميّة في الحقبة السابقة للحرب العالميّة الثانية، حينما كان اليهود يجلسون عند شفا الكارثة. وأوجد الإحساس بمحرقة وشيكة في نفس دومب نزعة ثوريّة عميقة، وكما اكتشفت الغالبيّة العظمى من وكالات الاستخبارات في بلدان مختلفة، فهو كان واحدًا من أشدّ الجواسيس عنادًا وتصميمًا في كلّ العصور.

حينما كان في التاسعة عشرة من عمره سنة ١٩٢٥، كان دومب ناشطًا ثوريًا مطرودًا من الخدمة في مصنع للجلود في بلده بولندا بسبب أفعاله التحريضيّة بين العمّال. وفي ذلك العام، انضمّ دومب إلى الحزب الشيوعيّ البولنديّ، حيث جعلته حماسته الثوريّة وقدراته الاستخباراتيّة العالية ومواهبه الرياديّة الطبيعيّة رجلاً يطمح إلى تحقيق الشيء الكثير. والسلطات البولنديّة أيضًا لاحظت ذلك، وفي سنة ١٩٢٨، ألقت القبض عليه بسبب "أنشطته الثوريّة"، وطلبت منه مغادرة البلاد بدلاً من عقوبة السجن. وذهب دومب أوّلاً إلى مرسيليا في فرنسا، ثمّ هاجر إلى فلسطين.

حينما وصل إلى فلسطين، شرع دومب أوّلاً في تأسيس خلايا شيوعيّة، وهو نشاط سرعان ما لفت انتباه سلطات الانتداب البريطانيّ. وقرّرت هذه السلطات إعادته مرّة أخرى إلى فرنسا، حيث أصبح شخصيّة بارزة في قسم العمّال المهاجرين اليهود في

الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ. وأدّت ديناميكيّته ومهارته التنظيميّة إلى جعله محلاً لاهتمام مجموعة أخرى من السلطات الحكوميّة، ولكن قبل أن يتمكّن الفرنسيّون من التصرّف، قرّر الحزب إبعاده عن طريق الأذى، وذلك بإرساله إلى موسكو، حيث تلقّى "تدريبًا حزبيًّا عاليًا"، في "جامعة الأقليّات الوطنيّة" التابعة للكومنتيرن[1].

وحين ترجمة هذا كلّه إلى أفعال، فهذا يعني أنّ دومب، الذي كان يُعتبر واحدًا من ألمع نجوم الحزب، تلقّى تدريبات من أجل القيام مستقبلاً بدور رياديّ. ولكنّ مستقبله كزعيم حزبيّ لم يتحقّق، وذلك لأنّ قدرات دومب كانت متأثّرة بمنظّمة كان لها التأثير الأعمق على حياته: وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU.

كانت الصفات ذاتها التي جعلت زعامة الحزب الشيوعيّ تنظر بعين الرضا إلى دومب، الجرأة والديناميكيّة والالتزام التامّ والذكاء الحادّ، هي التي لفتت أيضًا انتباه "جان بيرزين"، رئيس وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU. ومن خلال ما يُعرف عنه من قدرة على اكتشاف وتجنيد أبرع العملاء، فإنّ بيرزين رأى في دومب تلك المجموعة المؤتلفة من الصفات المميّزة التي اعتبرها رئيس وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU ضروريّة جدًّا للعملاء الممتازين: رأس بارد، وقلب دافئ، وأعصاب فولاذيّة...

بدأ دومب كأنّه يتميّز بهذه الصفات. ومن واقع كونه قصير القامة وممتلئ الجسم، فهو كان يشعّ طاقة شخصيّة هائلة ويملك روح مغامرة عالية، الأمر الذي أوجد إنطباعًا ذهنيًّا عنه بأنّه رجل يمكن أن يجعل رأسه يخترق حائطًا، حين الاقتضاء، من أجل تحقيق ما يريد. وهو أظهر أيضًا مسحة من اللاخوف المطلق، وحتّى في عالم الحزب

---

١ ـ الكومنتيرن: منظّمة ستالين للأحزاب الشيوعيّة الدوليّة التي تشرف على الأنشطة الحزبيّة في كلّ أنحاء العالم.

الشيوعيّ الجامد والنظريّ، فهو كان معروفًا باستعداده لتحدّي الأفراد والمبادئ الخاطئة.

من واقع سنوات خبراته الطويلة في العمل الحزبيّ السرّي، فإنّ دومب برهن على ميل حقيقيّ نحو التجسّس. وبعد مدّة قصيرة من العمل مع شبكة صغيرة في فرنسا في أوائل ثلاثينات القرن العشرين، من أجل صقل مواهبه التجسّسيّة، أصبح دومب جاهزًا للقيام بالدور الحقيقيّ الذي كان يدور في عقل بيرزين: موظّف مقيم. وفي حسابات بيرزين، فإنّ وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU كانت في حاجة ملحّة للاستعداد للحرب التي كان واثقًا من أنّها سوف تندلع لا محالة في غضون سنوات قليلة. وكانت ألمانيا هدفًا مقصودًا، غير أنّه في ظلّ قيام هتلر بتمزيق الحزب الشيوعيّ الألمانيّ وكلّ شبكات الاستخبارات السوفياتيّة تقريبًا، كان من الضروريّ إعادة بناء هيكل استخبارات جديد بحيث يقوم بمراقبة العدوّ الأشدّ خطورة للاتّحاد السوفياتيّ.

كانت خطّة بيرزين تقوم على تجنّب أخطار محاولة بناء شبكات في الدولة البوليسيّة النازيّة، وبدلاً من ذلك، بناء سلسلة من الشبكات خارج حدود ألمانيا مباشرة، وأهمّها يجب أن يقع في بلجيكا وفرنسا، وكان ينبغي أن يتولّى دومب مسؤوليّة عمليّة البناء هذه...

في أيّار - مايو ١٩٣٩، وصل دومب إلى بروكسيل ثمّ ذهب إلى العمل. وكان ينبغي عليه أن يبني سلسلة من الأغطية التمويهيّة التجاريّة في كلّ أنحاء أوروبّا بحيث يصل تأثيرها إلى ألمانيا النازيّة ذاتها. وتحت هويّته الجديدة كرجل أعمال مولود في كندا، يدعى "جان جيلبيرت"، بدأ دومب في بناء شركة غطاء تجاريّ تدعى "سيميكسكو"، وبعد عام، بنى شركة "سيمكس" في باريس. وبدأ على نحو ناشط في تجنيد الجواسيس النافعين، ومع اندلاع الحرب العالميّة الثانية بنى سلسلة من حلقات

ذات أقسام مستقلّة تضمّ عملاء محترفين وجواسيس نافعين مدنيّين وشيوعيّين محليّين. وامتدّت حلقاته من بحر الشمال إلى سويسرا، واشتملت حتّى على حلقات صغيرة داخل ألمانيا النازيّة ذاتها تضمّ مجموعة من الشيوعيّين الألمان المتعصّبين الذين حرصوا على إخفاء تعاطفهم السياسيّ وحصلوا على وظائف في ألمانيا النازيّة.

كانت الغالبيّة العظمى من المائتي جاسوس نافع الذين كانوا يعملون مع دومب موجودين في أو بالقرب ممّا أطلق عليها "نقاط التحويل"، وهي عبارة عن مفارق طرق لهيئات بيروقراطيّة حكوميّة حديثة حيث كان يمكن تبادل المعلومات الضروريّة. واعتقد دومب أنّ المعلومات الاستخباراتيّة الحيويّة يمكن إيجادها حتّى في المكاتب الحكوميّة المغمورة، شريطة أن يكون الجواسيس النافعون عارفين ما يبحثون عنه...

برهن دومب عن كيفيّة نجاح تلك النظريّة في فرنسا، حيث كان معظم أفضل جواسيسه النافعين. وبعد الغزو النازيّ، اكتشف أنّ أفضل طريقة للحصول على المعلومات الاستخباراتيّة حول ترتيب القوّات الألمانيّة في فرنسا، وهو سرّ حرص الألمان على كتمانه، تأتي عن طريق وكالة مغمورة معروفة باسم "مكتب الإيواء الفرنسيّ"، وهي عبارة عن وكالة فرنسيّة تقوم بأعمال الإيواء لقوّات الاحتلال الألمانيّ الموجودة في قواعد الجيش الفرنسيّ، وبأعمال التسهيلات المدنيّة الأخرى. ومع مرور الوقت، بالطبع، أصبحت الوكالة عارفة بهويّات وتحرّكات كلّ الوحدات القتاليّة الألمانيّة في البلد. وبالمثل، كانت هناك شبكة من العاملين في خطوط السكك الحديديّة الفرنسيّة، الذين عملوا كحلقة ارتباط مع الألمان لتنظيم حركة القطارات العسكريّة الألمانيّة وفق النظام الفرنسيّ، عارفة بالضبط بالمستويات اللوجستيّة الألمانيّة والوحدات العسكريّة التي تدخل إلى فرنسا وتخرج منها. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك هيئة بيروقراطيّة حكوميّة مغمورة أخرى برهنت عن كونها منجمًا من الذهب

على صعيد المعلومات الاستخباراتيّة. تلك الهيئة تولّت مهمّة المدفوعات الماليّة وفق اتّفاق فرنسيّ - ألمانيّ قضى بقيام فرنسا بدفع تكاليف احتلالها. وكان الألمان الميّالون إلى التدقيق في التفاصيل شديدي التشكّك في أيّ مدفوعات ماليّة، الأمر الذي أدّى إلى الكشف عن الأعداد الحقيقيّة لقوّاتهم الموجودة في فرنسا.

كان الأفضل من هذا كلّه، هو ذلك الإلهام العظيم الذي نزل على دومب: دمج شركته التمويهيّة مع الشركة الألمانيّة "تودت"، وهي هيئة بيروقراطيّة ألمانيّة كبيرة تولّت مهمّة كلّ أعمال البناء العسكريّ والتفاصيل اللوجستيّة الأخرى المتّصلة بماكينة الحرب الألمانيّة. وحصل المندوبون في شركة سيميكس، في محاولة لتسهيل قيامهم بعملهم مع الشركة الألمانيّة، على جوازات مرور نفيسة من السلطات العسكريّة الألمانيّة التي سمحت بالدخول إلى المناطق العسكريّة المحظورة. وكان هذا بمثابة حلم لأيّ جاسوس. وفي خلال الثمانية عشر شهرًا الأولى من الحرب، لم يكن الألمان عارفين بشبكات دومب المنتشرة في كلّ أنحاء أوروبّا المحتلّة. وكان دومب متيقّظًا، وإدراكًا منه أنّ الراديوهات التي يستخدمها في إرسال المعلومات إلى موسكو تشكّل الحلقة الأضعف في عمله، ذلك أنّ الفريق الألمانيّ "الباحث عن الراديوهات"، كان خبيرًا في اكتشاف الراديوهات السريّة، حرص على جعل الإرساليّات تستغرق برهة زمنيّة قصيرة، ثمّ يتمّ نقل الراديوهات إلى مواقع جديدة... وأدّى الحرص على الإيجاز في الإرساليّات، الذي لم يسمح للباحثين عن الراديوهات بوقت كاف لاكتشاف الإشارات اللاسلكيّة، إلى جعل عمليّاته المتزايدة آمنة، ولكنّه تسبّب في حدوث مشاكل حينما كشف أحد أعظم أسرار الحرب...

حقّقت مراقبة دومب الدقيقة لتحرّكات القوّات الألمانيّة في فرنسا وبلجيكا أهدافها في أواخر سنة ١٩٤٠، وذلك حينما اكتشف جواسيسه النافعون التغيير المفاجئ في

تحرك القوّات العسكريّة الألمانيّة إلى ناحية الشرق. ولأنّ بولندا لم تكن محلاً لأخطار حدوث هجوم وشيك، انتهى دومب إلى استنتاج، على نحو صائب، مؤدّاه أنّ هتلر، بسبب عجزه عن تحقيق تقدّم في المعركة ضدّ بريطانيا، يمكن أن يتّجه نحو الاتّحاد السوفياتيّ...

واعتمادًا على معلومات إستخباراتيّة أخرى، فإنّ دومب كان قادرًا في كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٤٠ على إرسال كميّات هائلة من المعلومات الاستخباراتيّة عن طريق راديوهاته ذات المواقع المتغيّرة. وقام دومب بتزويد معلومات دقيقة عن "عمليّة بارباروسّا"، وهي خطّة هتلر لغزو الاتّحاد السوفياتيّ في وقت ما في ربيع ١٩٤١، بما فيها أيضًا ماهيّة تلك الوحدات الألمانيّة التي جرى تخصيصها للعمليّة، الأمر الذي أعطى موسكو صورة واضحة عن ترتيب الوحدات القتاليّة الألمانيّة. وكان ينبغي بذل جهود هائلة لإرسال كلّ هذه المعلومات الاستخباراتيّة من خلال إرساليّات قصيرة المدّة، ولكن دومب كان يشعر بأنّ هذا العمل يستحقّ مثل هذه الجهود، وذلك لأنّ الاتّحاد السوفياتيّ تلقّى في تلك الأثناء تحذيرات بأخطار الهجوم. ولكن ما أثار شعورًا بخيبة الأمل عنده هو أنّ ستالين رفض أن يصدّق ذلك. واقتناعًا منه بأنّ الألمان لن يقوموا بغزو الاتّحاد السوفياتيّ، كتب ستالين بعجلة على أحد تقارير وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU حول أنشطة دومب الاستخباراتيّة: "يجب معرفة مؤلّف هذه المعلومات الاستفزازيّة ومعاقبته عليها"...

لحسن حظّ دومب، فإنّ مقرّ وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU تحمّل المخاطرة الكبرى في تجاهل هذا الأمر... لم يتراجع دومب، وواصل عمله، واستمرّ في تزويد موسكو بتيّار متدفّق من المعلومات الاستخباراتيّة حول البناء العسكري الألماني للغزو الوشيك، ولكنّ ستالين تجاهل ذلك...

تغيّر كلّ هذا فجأة في صباح ٢٢ حزيران ـ يونيو ١٩٤١ حينما قامت ألمانيا بغزو الاتّحاد السوفياتيّ... ولمّا تبيّن أنّ دومب على صواب، تلقّى وابلاً من الطلبات من مركز موسكو لإرسال كلّ قصاصة من المعلومات الاستخباراتيّة التي يمكنه الحصول عليها حول ماكينة الحرب الألمانيّة. واستجابة لذلك، أخذت راديوهات دومب تعمل على مدار الساعة وتضخّ معلومات إستخباراتيّة إلى ناحية الشرق. وقام بإرسال تيّار من المعلومات الاستخباراتيّة دقيقة بدقيقة حول ترتيب الوحدات العسكريّة الألمانيّة، وكان قادرًا على التحذير من خطط ألمانيّة للهجوم على موسكو. هذا الهجوم، أمكن صدّه من جانب فرق عسكريّة روسيّة قامت بإلحاق الهزيمة الأولى في صفوف القوّات الألمانيّة المتّجهة نحو الشرق... وفي تشرين الثاني ـ نوفمبر، تمكّن دومب من معرفة تفاصيل الخطّة الألمانيّة للقيام بهجوم في القوقاز، وهو الهجوم الذي انتهى في ستالينغراد...

في غضون ذلك، انتهى دومب إلى استنتاج مؤدّاه أنّ الوقت بدأ ينفد في ما يتّصل بعمليّاته... وكما كان يعرف قبل غيره، ففي ثنايا نجاحه كانت تكمن عوامل فنائه... ذلك أنّه كلّما استمرّت راديوهاته مدّة أطول في إرسال معلومات إستخباراتيّة حيويّة على الهواء مباشرة إلى موسكو، كان هناك احتمال أكبر في نجاح الألمان الباحثين عن الراديوهات في اكتشافها. وكانت المشكلة غير قابلة للحلّ: في تلك الساعات الحاسمة، حينما كان الاتّحاد السوفياتيّ في حاجة ماسّة إلى المعلومات الاستخباراتيّة التي كان دومب يقوم بإرسالها، لم يكن أمامه خيار آخر غيرَ إبقاء راديوهاته على الهواء لمدّة ساعات في وقت واحد. وهذا يعني، وعلى الأخصّ في وقت بدأ جواسيسه النافعون في إرسال المزيد من المعلومات الاستخباراتيّة، أنّ الألمان الباحثين عن الراديوهات بهوائيّاتهم المميّزة كانوا يقتربون أكثر فأكثر من الراديوهات...

كان الألمان يقتربون بالفعل أكثر فأكثر، ومنذ أوائل ١٩٤١، اكتشفت محطّاتهم لاعتراض الراديوهات وجود راديوهات تعمل بالشيفرة وترسل إشارات لاسلكيّة إلى ناحية الشرق من عدد من الراديوهات في أوروبّا الغربيّة. وتبيّن أنّ الرسائل غير قابلة للحلّ، ولذلك انتهى الألمان إلى استنتاج مؤدّاه أنّ هناك راديوهات تقوم بالتنصّت على الشيفرة الألمانيّة، وربّما كانت هذه الراديوهات تخصّ الاستخبارات السوفياتيّة... ومع أنّه لم يكن من الممكن حلّ رموز الشيفرة، فإنّ الألمان كان يمكنهم إكتشاف أماكن وجود هذه الراديوهات.

وبدأت عمليّة مشتركة لمكافحة التجسّس من جانب الغستابو وجهاز الاستخبارات الألمانيّ.

حقّق الألمان تقدّمًا في حزيران - يونيو ١٩٤١، حينما بدأت الراديوهات فجأة في إرسال المعلومات الاستخباراتيّة لعدّة ساعات في المرّة الواحدة، الأمر الذي أتاح الفرصة أمام الألمان الباحثين عن الراديوهات مزيدًا من الوقت لمتابعة الإشارات اللاسلكيّة. ومن خلال طريقتهم المميّزة في استخدام المصطلحات الموسيقيّة في وصف الراديوهات السريّة، قرّروا أن يطلقوا على الشبكة الجديدة من الراديوهات المكتشفة حديثًا إسم "الأوركسترا الحمراء"، وهو الإسم الذي أصبح يطلق على شبكة دومب في عالم التجسّس في نهاية الأمر.

حينما أخذ الألمان في الاقتراب أكثر فأكثر، بدأ دومب في اتّخاذ إجراءات لحلّ شبكته والهروب. وقام بشطب أفعاله المقرونة بأسمائه المستعارة المختلفة، بما فيها الإسم المستعار الذي ظلّ يستخدمه في معظم الأحيان، وهو "جان جيلبرت". وكان "المونسينيور جيلبرت" مات فجأة موتًا طبيعيًّا، ثمّ قام دامب بعمل شاهد قبر مزيّف بهذا الإسم ووضعه على قبر فارغ في مقبرة في باريس.

كان دومب يعقد الأمل على إمكانيّة استكمال حلّ شبكته مع حلول كانون الثاني ـ يناير ١٩٤٢، ولكن في ١٣ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٤١، تمكّن الألمان من اكتشاف أحد راديوهات دومب الأكثر أهميّة في أحد البيوت في بروكسيل. وتمكّنت إحدى الغارات الألمانيّة من إلقاء القبض على عدد من أعضاء الشبكة ومشغّل الراديو أثناء قيامهما بعمليّات الإرسال. ومن المثير للانتباه هو أنّ دومب نفسه كان موجودًا في ذلك البيت أثناء تلك الغارة، غير أنّه، بعد التفكير بسرعة، تمكّن من الإفلات من عملاء الغستابو الذين كانوا يراقبون الطريق كبائع أرانب متجوّل.

كشفت أعمال التعذيب العاجلة التي تعرّض لها العملاء الذين جرى إلقاء القبض عليهم هن الهويّة الحقيقيّة لبائع الأرانب المتجوّل، ثمّ بدأت عمليّة مطاردة على مستوى القارّة الأوروبيّة في الحال. وفي غضون ذلك، بدأ الألمان في إلقاء القبض على أعضاء الأوركسترا الحمراء في كلّ أنحاء أوروبّا، ومع حلول منتصف ١٩٤٢، تعرّضت شبكة دومب للانهيار التام. ولكنّ دومب كان حرًّا طليقًا في ذلك الوقت، ولأنّه كان حريصًا على الانتقال الدائم من مكان إلى آخر، تمكّن من الإفلات من القبض عليه حتّى تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٤٢، حينما عرف الألمان واحدًا من أسمائه المستعارة العديدة، وتمكّنوا من إلقاء القبض عليه في مكتب طبيب أسنان في باريس.

قال دومب بكلمات المحترف التي تدلّ على الاحترام والتقدير لعملاء الاستخبارات الألمانيّة المحترفين الذين ألقوا القبض عليه:

"تمنّياتي لكم بالتوفيق، أنتم قمتم بواجبكم على خير وجه".

وما حدث بعد ذلك يبقى مسألة موضوع جدل. وعلى حدّ قول الألمان، فإنّ جهاز الاستخبارات الألمانيّ كانت لديه خطّة طموحة في العقل... وفي تقديرهم، فمع أنّ موسكو كانت تعرف أن الأوركسترا الحمراء كانت تحت الاعتداء، فلم يكن الروس

عارفين يقينًا أيّ فروع كانت تتعرّض للخطر أكثر من غيرها، ومن المؤكّد كذلك أنّهم لم يكونوا عارفين حتّى ذلك الوقت بإلقاء القبض على دومب نفسه.

كانت خطّة جهاز الاستخبارات الألمانيّ تقوم على استخدام دومب كأداة لتمرير معلومات إستخباراتيّة مخادعة إلى موسكو. وزعم الألمان أنّ دومب لم يوافق طواعية على ذلك فحسب، بل وافق أيضًا على خيانة البقيّة الباقية من أعضاء الأوركسترا الحمراء، بالإضافة إلى خيانة أعضاء المقاومة الفرنسيّة الذين خدموا كجواسيس نافعين لحساب شبكته. وفي حديث دومب اللاحق حول هذه الأحداث، مع ذلك، زعم أنّه وافق على المضيّ قدمًا مع الألمان في لعبة الراديو الصغيرة بهدف تحذير موسكو في أوّل فرصة سانحة، وكا أنّه نفى أيضًا أيّ خيانة للجواسيس النافعين في الأوركسترا الحمراء.

مهما يكن من أمر، فمن خلال استخدام أحد المشغّلين للراديو المستولى عليه الخاصّ بالأوركسترا الحمراء، الذي وافق أيضًا على التعاون مع الألمان، بدأ الأخيرون في نقل الرسائل إلى موسكو، موقّعين الرسائل باسم دومب. وبدت استجابة موسكو تشير إلى أنّها أخذت الطعم، ولكنّ الحقيقة هي أنّ وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU، منذ اللحظة الأولى، عرفت أنّ دومب بات يعمل تحت رقابة جهاز الاستخبارات الألمانيّ... وربّما تلقّت تحذيرًا بذلك من خلال إشارة سريّة أرسلها مشغّل الراديو عند إلقاء القبض عليه...

قام الروس بدورهم بتحقيق غايتهم من اللعبة، مطالبين بالمزيد من المعلومات الدقيقة من دومب حول الخطط العسكريّة الألمانيّة... ومع حلول حزيران ـ يونيو ١٩٤٣، عرف جهاز الاستخبارات الألمانيّ أنّ الروس يقومون بدورهم في اللعبة بطريقة ما، وانتهت لعبة تمرير معلومات مخادعة إلى موسكو تبعًا لذلك.

أيًا كانت درجة الانتقام التي ربّما خطّط لها الألمان ضدّ دومب، فمن الواضح أنّه أمكنه تجنّبها بهروبه المفاجئ من الحبس المرن الذي فرضه جهاز الاستخبارات الألمانيّ عليه، وذلك عن طريق الحجّة البسيطة القائمة على المطالبة بالذهاب إلى صيدليّة لشراء دواء للقلب، ثمّ الخروج من الباب الخلفيّ أثناء قيام عملاء جهاز الاستخبارات الألمانيّ بمراقبة الباب الأماميّ. واختفى دومب في باريس، ولم يظهر إلى العلن إلاّ بعد التحرير. وبعد بضعة شهور، جرى استدعاؤه إلى موسكو لإجراء "مناقشات"... غير محدّدة.

عند وصوله إلى موسكو، ارتكب دومب غلطة الشكوى من كيفيّة تجاهل معلوماته الاستخباراتيّة حول عمليّة "بارباروسا"، وكيف أدّى إصرار موسكو على جعل الراديوهات تواصل العمل لمدّة طويلة إلى تمكين الألمان من اكتشافها... واتُّهم دومب على الفور بإفشاء أسرار الأوركسترا الحمراء، إلى الألمان، وحُكم عليه بالسجن لمدّة عشر سنوات. وأُطلق سراحه في أعقاب موت ستالين سنة ١٩٥٣، وسُمح له بالهجرة إلى موطنه الأصليّ بولندا.

في ظلّ تخلّصه في ذلك الوقت من أوهام الشيوعيّة، تحوّل دومب إلى مناصرة قضيّة أخرى: الصهيونيّة. وأصبح زعيمًا للبقيّة الباقية من الجالية اليهوديّة البولنديّة، وسرعان ما أدّى تحريضه لليهود، في مواجهة رفض الحكومة البولنديّة السماح لهم بالهجرة الحرّة إلى إسرائيل، إلى جعله يخوض نزاعًا ضدّ السلطات الحكوميّة... وحين مواجهته التهديد بحكم آخر بالسجن، تمكّن دومب من الإفلات من العقوبة نتيجة تدخّل من جانب الاستخبارات السوفياتيّة. وبشروعهما في حملة إعلاميّة لتحسين صورتيهما، بدأ جهاز الاستخبارات السوفياتيّة KGB ووكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU في نشر "الأعمال البطوليّة"

التي قام بها "أشهر الجواسيس"... ومن بين هؤلاء الجواسيس كان دومب، الذي كرّمته المؤسّسة ذاتها التي سبق لها أن عاقبته...

أدّت هذه الحملة الإعلاميّة إلى إنقاذ دومب من السجن في بولندا، ولكنّ السلطات البولنديّة استمرّت في عدم السماح له بالهجرة إلى إسرائيل لقضاء سنواته الأخيرة. وأخيرًا، تحت الضغوط من موسكو، سُمح له بالمغادرة سنة ١٩٧٤، ومات في القدس سنة ١٩٨٣[١].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ترجمة مصطفى الرز، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٩) ص١٢٩ ـ ١٣٨.

جَاسُوس البلُّوطَة المَلَكيَّة البَرِيطَانيَّة

أدار الأميرال "كارل دونيتز" قائد أسطول الغوّاصات الألمانيّة في بداية الحرب العالميّة الثانية، ظهره إلى الخارطة المعلّقة على الجدار والتي كان يقوم بدراستها، ليركّز نظراته الباردة الحادّة على الكابتن الشابّ قائد إحدى الغوّاصات الذي كان يقف إلى جواره وقفة عسكريّة تنمّ عن الاستعداد التامّ. كان ذلك في صباح يوم من أيّام الأحاد في شهر تشرين الأوّل ـ أكتوبر من عام ١٩٣٩، ولم يكن قد مضى على بدء الحرب سوى شهر واحد، وهتف دونيتز أنّ العامل الأوّل للنجاح في تنفيذ المهمّة هو الاستفادة من الذهول الناجم عن الهجوم المفاجئ الذي يمكن القيام به من أحد المداخل السبعة لميناء "أسكاباڤلو". وقد قرّر قائد إحدى الغوّاصات المرور من أحدها على الرغم من التيّار السريع والمتبدّل باستمرار... بينما كانت شفتاه تفتران عن ابتسامة خفيفة.

تعتقد البحريّة البريطانيّة أنّ هذه الناقلات الثلاث التي تطفو هنا في مدخل ميناء "كيرك" الضيّق تؤمّن حماية كاملة للبوارج الكبيرة الراسية في الميناء، هذا ما قاله الأميرال وهو يشير إلى نقطة على الخارطة، بينما الكابتن قائد الغوّاصة، الذي كان يسمّى "غانتر برين"، كان يوافق على أقواله بإيماءة من رأسه، وكان هذا الكابتن قد نضج وأصبحت له نفس عقليّة قائده ونفس أسلوبه، وردّد لنفسه وهو في نشوة: "سيكون نصرًا جريئًا لو حالفه النجاح... وسيحصل إذا ما تمكّن من إحراز هذا النصر على أرفع وسام مع تهاني الفوهرر الخاصّة"...

إستمرّ دوميتز في حديثه: "إنّ الإمكانات متوفّرة للنجاح في تنفيذ هذا الواجب، وأعتقد بأنّك الرجل الملائم للقيام به"...

ثمّ اقترب من مكتبه وأخذ من فوقه مجموعة من المخطّطات والرسوم البحريّة والخرائط المتضمّنة للمعلومات الدقيقة والكاملة عن وسائل الدفاع المتبقّية لتأمين حماية القاعدة البحريّة الإنكليزيّة أسكابافلو حيث كانت ترسو البارجة "البلّوطة الملكيّة". كما كان يبدو على هذه الخرائط بوضوح المواضع الاستراتيجيّة للناقلات الثلاث التي كانت عائمة عند المداخل، والتي كانت ترتبط مع بعضها البعض بحبال معدنيّة قويّة، وتابع حديثه:

"إحمل معك كافّة المعلومات وهذه الوثائق، وقم بدراستها بانتباه... فالمعلومات التي تحملها مؤكّدة تمامًا، وقد قام بتزويدنا بها أحد عملائنا وأمهرهم، ثمّ عليك بتحليل كلّ ذلك وإعلامي عن رأيك يا كابتن براين... كما يجب أن تعرف أنّ لك الحريّة التامّة في اتّخاذ قرارك، فإذا كان من رأيك عدم القيام بهذه العمليّة لتعذّر تنفيذها فنحن لا نريدها، ولكن إذا وافقت فمعك مهلة زمنيّة حتّى يوم الثلاثاء لتعطي إجابتك"...

وبهذا أنهى الأميرال حديثه بعد برهة من الصمت.

عكف الكابتن براين على دراسة الرسوم والخرائط خلال اليومين التاليين، وكان انهماكه في هذه الدراسة يشبه استغراق العالم في تجربة دقيقة. وكان كلّما ازداد تفكيرًا بالمشروع كلّما ازداد حماسة لتنفيذه. وعندما أقبل موعد تقديم التقرير إلى الأميرال دوميتز، في يوم الثلاثاء، أظهر له رغبة قويّة في القيام بتنفيذ هذه المهمّة.

تحتلّ عمليّة تدمير "البلّوطة الملكيّة" بواسطة الطوربيدات، التي ذهب ضحيّتها ٨٣٣ رجلاً في الساعات الأولى من يوم ١٤ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٣٩، مكانتها

بين أجرأ عمليّات الحرب، ولم تكن الجرأة تقتصر على التنفيذ بقدر ما تتعدّاه لتشمل الوسائل والإمكانات التي بذلها الأميرال دونيتز والقيادة البحريّة الألمانيّة للحصول على أسرار أسكابافلو من مخطّطات وخرائط تمّ إعدادها بعناية، ممّا ساعد الغوّاصة Y-47 على التسلّل إلى ميناء "كيرك"، لتقذف بطوربيداتها إلى مجنبة البارجة ذات الـ ٢٩,٠٠٠ طن...

هناك بعض وجهات النظر التي تسلّط الضوء على العمل التحضيريّ للعمليّة، فتحجب النور عن أهميّة العمليّة ذاتها... فترى بأنّ العبقريّة وحدها، للجاسوس الصبور، الذي قضى سنوات طويلة بالتقاط المشاهد والملاحظات وتسجيلها... وبذلك هيأ فرص النجاح الملائمة لتنفيذ العمليّة.

***

بالعودة إلى الوراء... ففي يوم من أيّام عام ١٩٢٧، وقبل أن يبدأ هتلر محاولته للسيطرة على العالم باثني عشر عامًا، تقدّم بهدوء رجل قصير القامة إلى رجال الجمارك البريطانيّة وهو يضع على عينيه نظّارات غليظة، وكان ذلك الرجل قادمًا من سويسرا ويحمل إسم "ألبرت أورتيل"، وقد صرّح لضبّاط الهجرة بأنّ عمله هو صناعة الساعات، وأنّه قدم إلى المملكة المتّحدة ليزاول مهنته فيها، وقد أدلى بتصريحه وهو يبتسم ابتسامة بريئة...

"هناك عدد كبير من صانعي الساعات في سويسرا، وقد قيل لي بأنّني أكفأ محترف، وسأجد مكانًا ملائمًا لي هنا في إنكلترا. وإنّني أرغب في أن أجد عملاً إذا

كان ذلك ممكنًا فـي جزيرتكم الساحرة التـي تشبه فـي جبالها وبحيراتها ما يذكّرني بوطني الأصلي سويسرا"...

في الواقع، لم تكن سويسرا موطن هذا الساعاتي، على الرغم من أنّ اسمه كان مكتوبًا على جواز سفر سويسريّ... غير أنّ إسمه الحقيقيّ لم يكن "ألبرت أورتيل"، بل كان اسمه في الواقع "ألفريد ويهرينغ"، وهو ضابط قديم من ضبّاط البحريّة الألمانيّة، في زمن القياصرة وأثناء الحرب العالميّة الأولى...

عندما تمّ توقيع معاهدة الصلح في عام ١٩١٨، لم يكن لدى ألمانيا ما تتمكّن من تقديمه إلى ضبّاطها القدامى، فقضى "ويهرينغ" الأربع سنوات التي تلت ذلك دون أيّ عمل. وبعد ذلك، وفي عام ١٩٢٣، عندما أنيط إلى الأميرال "كاناري" أمر إعادة تنظيم أجهزة الجاسوسيّة الألمانيّة، تذكّر الضابط الشابّ في البحريّة الذي كان يحمل له تقديرًا كبيرًا، وقدّم له مركزًا في منظّمته. وقد كان هذا النوع من العمل جديدًا على ويهرينغ، ولكنّه كان سعيدًا بأن يعاود نشاطه وعمله.

أصبح ويهرينغ بموجب أوامر كاناري الوكيل المعتمد لإحدى شركات الساعات الألمانيّة، وقد قادته هذه المهنة الجديدة إلى أسفار متعدّدة في أكثر بلدان أوروبّا حيث كان يقوم بجمع كافّة المعلومات الممكنة عن المنشآت البحريّة الحديثة أو التي هي قيد الإنشاء، وبعد ثلاثة أعوام من الخبرة، أُرسل إلى سويسرا لإتقان مهنته كساعاتي، وهذا ما سوف يؤهّله للحصول على واجهة رائعة يختفي خلفها ويخفي معه نشاطه، كما سوف يسمح له ذلك أيضًا أن يطيل مدّة إقامته في أحد البلدان إذا ما لزم الأمر، لمزاولة مهنته الفنيّة.

حملت المعلومات السويسريّة ثمارها بسرعة، وعندما أصبح ويهرينغ مستعدًا لحمل أعباء مهمّة جديدة على جانب من الأهميّة بعد أن تمّ تزويده بجواز

سفر سويسريّ، كان قد أعدّه له الأميرال كاناري تحت إسم "ألبرت أورتيل"، وصل ويهرينغ إلى بريطانيا العظمى، حيث استأجر في "كيركويل"، وهي إحدى المدن الجميلة والصغيرة، مسكنًا له، وكانت هذه المدينة لا تبعد كثيرًا عن أسكاباقلو.

عمل أورتيل في البداية كصانع مجوهرات في أحد المحال، ثمّ تمكّن من اكتساب الزبائن لإصلاح ساعات اليد وساعات الحائط بعد أن كان أهالي المدينة يرسلونها إلى "ليث"، وكانت حجّته أنّ أهالي كيركويل بحاجة إلى مصلّح للساعات... ولمّا كان عمله متقنًا، تمكّن من اكتساب شهرة واسعة في مدّة قصيرة، ولم تمض عليه مدّة طويلة حتّى تمكّن من افتتاح مخزن لحسابه الخاصّ في أحد الشوارع الفرعيّة ذات الطابع الشماليّ في كيركويل.

لم يكن هذا المخزن في الواقع أكثر من دكّان صغير يشبه إلى حدّ كبير دكاكين بيع التحف والآثار القديمة، وكان ويهرينغ / ألبرت أورتيل يبيع من هذه الجواهر الجميلة مع بعض التحف الجميلة التي تصلح كتذكار بالإضافة لمزاولته لمهنته في عمل الساعات.

لقي أورتيل في الوسط الجديد الذي بدأ يعيش فيه كلّ التشجيع، وذلك لما كان يتمتّع به من تهذيب ورقّة ونبل ظاهر في معاملته لزبائنه. ولم يمضِ زمنٌ قصير حتّى وجد في عدد من زبائنه أصدقاء شخصيّين له يقومون بدعوته إلى منازلهم، كما أنّ الحياة في مدينة ساحليّة تُعتبر جميلة... وبقي أمره كذلك حتّى عام ١٩٣٢، عندما أكمل دورة في اكتساب الجنسيّة البريطانيّة.

لعلّ سكّان كيركويل لو عرفوا بأنّ هذا الساعاتيّ لم يكن في السابق إلاّ ضابطًا من قدامى ضبّاط الاستخبارات الألمانيّة في زمن قصير، لكانوا أكثر تحفّظًا في إظهار

عواطفهم تجاهه، ولكنّهم كانوا يجهلون الكثير عنه، وكان من بين ما يجهلونه عنه أنّ أيّ معلومات يتفوّهون بها أثناء حديثهم تأخذ مكانها في دفتر مذكّرته الصغير. وكان من بين زبائنه ضبّاط في البحريّة البريطانيّة وعدد من العاملين في القيادة البحريّة، يأتون إلى دكّانه لشراء الهدايا أو لإصلاح ساعاتهم... ثمّ يُصار إلى تسجيل هذه المعلومات وتثبيتها ثمّ إخفائها بعد ذلك في أحد الدواليب الموجودة في غرفته الواقعة فوق دكّانه.

كما كانوا يجهلون أيضًا أنّ هذا الدولاب يحتوي على جهاز لاسلكيّ للإرسال...

كان ذلك الجهاز يعمل على موجات قصيرة، وقد أتقن أورتيل إخفاءه وتمويهه بمظهر بريء على شكل جهاز قديم من أجهزة الراديو...

هذا بالإضافة للجولات الليليّة القصيرة التي كان يقوم بها الساعاتي في بعض الأمسيات... وكان أورتيل بعد أن يقوم بإقفال دكّانه، يجلس ليكشف الستار عن جهازه ويعمل على إحكامه على تردّد معيّن، حيث تتمّ اتّصالات التعارف والتأكّد... وبعد ذلك يتمّ إرسال المعلومات الهامّة التي أمكنه الحصول عليها بشكل رمزيّ ليستقبلها الملحق البحريّ الألمانيّ في هولندا الكابتن "فون بيلو". أمّا الرسائل التي كانت تصله من سويسرا والتي كانت بريئة في مظهرها، فقد كانت تحمل تعليمات الأميرال كاناري وتوجيهاته ببعض الإجراءات التي يعدّها له رجال المخابرات السريّة النازيّة.

حرص أورتيل دائمًا على ألاّ يثير أيّ شبهات من حوله سواء كان ذلك في أحاديثه أو في تصرّفاته، حتّى أنّ تفقّده للبحر والمراكب الكبيرة التي كانت تدخل ميناء أسكابافلو وتخرج منه، لم يكن غريبًا على أحد من المواطنين، بل كان يبدو وكأنّه شيء عاديّ، وكان من يعرفه يبتسم له ويتبادل معه كلمات المجاملة الوديّة عندما يصادفه

وهو يتنزّه على طول رصيف الميناء، أو وهو ينظر إلى الأفق البعيد من خلال منظاره الكبير...

لقد كانت الحياة في كيركويل بسيطة جدًّا كما هي حياة الريف دائمًا، ولذا فليس من المستغرب ألاّ يتساءل المواطنون إطلاقًا عن نشاط ذلك الرجل الذي كان يبدو وكأنّه واحد منهم...

وفجأة، في صباح يوم من أيّام الأحد التي لا تُنسى، وعندما كانت نواقيس بريطانيا العظمى تقرع معلنة قيام الحرب، كان ساعي البريد يحمل إلى أورتيل رسالة واردة من سويسرا، وقد أعلم الساعاتي أولئك المواطنين الذين كانوا قد وجّهوا إليه الدعوة في ذلك اليوم لتناول طعام الغداء معهم بأنّ والده أرسل له رسالة وصلته اليوم ليعلمه فيها بمرض والدته التي تبلغ من العمر ثمانين عامًا، وأنّها في حالة خطر، كما وأنّها راغبة في رؤية ولدها الوحيد...

بعد ذلك بيومين فقط، كان أورتيل يستلّ باخرة تقلع من "ليث" في اتّجاه "روتردام"، حاملاً معه تحت بطانة معطفه الخفيف وسترته كافّة الرسوم من مخطّطات وخرائط بعد أن قام برسمها بدقّة كبيرة في الأمسية السابقة في غرفته، وعمل على تمويهها وإخفائها بشكل جيّد.

كانت الرسالة التي تلقّاها أورتيل في الواقع رسالة رمزيّة من الأميرال كاناري يطلب فيها منه إيداع كافّة الوثائق "فون بيلو" رئيس الجاسوسيّة النازيّ الذي كان يعرف أنّه قد انتهى من وضع مخطّطاته في الجزيرة البريطانيّة...

إنّ وصول هذه الرسالة في اليوم ذاته الذي أعلنت فيه إنكلترا الحرب على ألمانيا ليس إلاّ مصادفة غريبة، إذ كان من الممكن أن تصل الرسالة قبل أو بعد ذلك اليوم...

عندما وصل أورتيل إلى روتردام، اتّجه رأسًا إلى "فندق التجارة"، حيث طلب مقابلة "الهر فريتز بيرلر"، وقد كان الاصطلاح الرمزيّ لهذا الأخير هو "هـ٤٣٢"، وكان يزاول عمله كرئيس لمنظّمة الجاسوسيّة السريّة للنازيّين في هولندا.

إستقبل بيرلر زائره باحترام كبير، واصطحبه بسيّارة إلى لاهاي، حيث كان المقرّ الخاصّ للبارون "تون بيلو"، وتصفّح الملحق البحريّ الألمانيّ بسرعة الوثائق التي أخرجها أورتيل من مخبئها، وهتف بنبرة كلّها إعجاب: "كابتن ألفريد ويهرينغ... إنّني أهنئك، إنّ هذه المخطّطات ذات قيمة لا تُقدّر بثمن... لقد قمت بعمل رائع... وسأعمل لإيصال هذه الوثائق ونقلها إلى الأميرال كاناري بأسرع ما يمكن... عاش هتلر.

أجاب أورتيل بدوره على التحيّة النازيّة... فإنّه لم يكن إذذاك ذلك الساعاتي القصير المتحفّظ الذي كان يعرفه سكّان كيركويل... ذلك أنّ ابتسامته الوديعة كانت قد اختفت مع اختفاء احديداب ظهره قليلاً، فأصبح منتصب القامة، ذا قسمات وجه قاسية، وقامة مشدودة كالوتد، ولم يبقَ من هيئته القديمة سوى نظّاراته ذات الحامل الذهبيّ وعيناه تلمع خلفها ببريق حاد...

وصلت الوثائق ذات الأهميّة الكبرى إلى المكان الذي ينتظرها، ويمكن للخيال أن يتصوّر بأنّ مهمّة أورتيل قد انتهت عند هذا الحدّ، وأنّ هذا الأخير سيذهب ليتوارى عن المسرح، ولكنّ السلطات النازيّة أذكى وأخبث من أن تترك الخوف يحجب تألّقه... فقد كان من الخطر تغيّبه في هذه الحقبة، لأنّ ذلك قد يكون سببًا لإثارة الشبهات التي قد تؤدّي إلى قلب كافّة المخطّطات، كما كان أمام أورتيل الكثير من العمل للقيام به، وذلك لاستكمال المعلومات حتّى الدقيقة الأخيرة التي تسبق البدء في وضع الخطّة موضع التنفيذ.

بعد ذلك بأقلّ من أسبوع، عادت الملابس السوداء، والهيئة الحزينة، لتأخذ طابعها على الساعاتي المزيّف، الذي عاد إلى مقرّ فتوحاته...

وقد بدا التأثّر على أصدقائه عندما أعلن لهم أنّه وصل بعد ساعتين فقط من وفاة والدته...

لاحظ المارّة في اليوم التالي العلم الإنكليزي يرفرف خفّاقًا فوق الدكّان الصغير للساعاتي الذي قال لزبائنه باعتزاز:

"إنّني بريطانيّ... وعليّ أن أُظهر ولائي تجاه أصدقائنا الحلفاء"...

عكف أورتيل مباشرة على اكتشاف آخر الأسرار المتعلّقة بالدفاع عن أسكابافلو، وكذلك البواخر التي تستخدمها هذه القاعدة البحريّة الهامّة، فقد كان يعرف بأنّ البريطانيّين أعادوا تقدير موقفهم منذ البداية لإعلان الحرب، فأدركوا أنّ الأفخاخ المعقّدة والشبكات المعدنيّة المضادّة للغوّاصات، التي كانت تقوم على حراسة مداخل الميناء، قد ضعفت بتأثير الصدأ والرطوبة، وأنّها لم تعد تؤمّن الحيطة الكافية، وقد وافقت السلطات العليا على إعادة إصلاح وسائل الدفاع هذه، وكان على أورتيل إذًا أن يكشف هذه الإصلاحات... وإذا كان قد تمّ إحكام إغلاق مداخل الميناء السبعة... ولم يكن يلزمه وقت طويل لكي يستخلص المعلومات التي كان يرغب في الحصول عليها... وقد تأكّد من أنّ مدخل أحد محاور الميناء الشرقيّة لا يزال مفتوحًا... ولم يتمّ إغلاقه بواسطة الحبال المضادّة للغوّاصات، كما أنّ الحاملات الثلاث قد وُضعت جانبًا... إذًا لا شيء يعيق غوّاصة من اجتياز القناة الضيّقة والعميقة إلى حدّ ما...

بعد ظهر أحد أيّام تشرين الأوّل ـ أكتوبر، وبعد أن تمكّن أورتيل من جمع بعض المعلومات الهامّة، أغلق دكّانه قبل الموعد المعتاد بقليل، وصعد السلّم أربعًا أربعًا، ثمّ

قفز إلى غرفته حيث فتح دولابه الذي كان يخبّئ فيه جهاز الإرسال... فقد أقبلت اللحظة الكبرى، وقاربت سنواته الطويلة في التعلّم وجمع المعلومات بصبر من نهايتها... وآذنت عقارب ساعة المصير بأن ترسل ضرباتها...

أذاع أورتيل نداء التعارف، وانتظر بفارغ الصبر الإجابة... ثمّ أرسل برقيّته الرمزيّة التي يُعلم فيها سلطات النازي بأنّ الدفاع عن الميناء أسكابافلو لا يزال كما هو دون تعديل...

نُقلت البرقيّة بسرعة إلى الأميرال دونيتز في القيادة العامّة للقوى البحريّة، فأدرك هذا أنّ أيّ تأخير في تنفيذ المهمّة سيكون له نتائج خطيرة، ليس فقط لأنّ ميناء "كيرك" سيغلق مداخله ويستعدّ للدفاع فحسب، بل لأنّ البارجة "البلّوطة الملكيّة"، وكذلك القانصات الإثنتين، وهما من البواخر الكبيرة التي ترسو الآن في الميناء للقيام ببعض الإصلاحات، سوف تغادر الحوض لتصبح في عرض البحر بين لحظة وأخرى، حسبما جاء في برقيّة أورتيل، لكي تنضمّ إلى بقيّة القوّات البحريّة التي تقوم بتمشيط المحيط...

إذًا، يجب تنفيذ الضربة في الأيّام القريبة المقبلة... وتحرّك دونيتز للعمل بعد استخلاص هذه النتائج.

***

في مساء الثالث عشر من شهر تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٣٩، كانت مداخن وصواري الغوّاصة السوداء الألمانيّة Y-47 تشقّ طريقها بين قطع الأسطول في ميناء

"كيبل"، وكان الوقت ملائمًا، والسماء صافية تمامًا، وكان الكابتن "براين" قائد العمليّة، هو الشخص الوحيد الذي يعرف الهدف المقصود، ولم يكن باستطاعته كشف النقاب عن المهمّة إلى رجاله قبل أن يبدأ بتنفيذها عند دخوله إلى ميناء أسكابافلو في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي. وحسب المعلومات التي قدّمها ألبرت أورتيل، فقد كان الكابتن الشاب قائد الغوّاصة يعرف بالضبط مكان الناقلات التي كانت تطفو أمام مداخل ميناء كيرك، وكيف كانت الحبال المعدنيّة تمتدّ لإغلاق هذه المداخل بصورة آليّة.

عندما كانت الغوّاصة تقترب من المحور الشرقيّ لميناء أسكابافلو، صدر أمر قصير بلهجة صارمة:

"وضعيّة الغوص".

وردّدت الصفّارات في غرف الأجهزة هذا الإنذار... فاندفع شكل الغوّاصة الأسود المستطيل ليغوص بين مرتفعات الزبد في أعماق المحيط...

دقّت ساعة العمل ليضع براين كافّة خبراته ومعلوماته بالملاحة موضع التنفيذ.

كان المدّ يثير في القناة الضيّقة دوّامات مائيّة، وكادت الحبال المعدنيّة التي تربط الناقلات بعضها ببعض أن توقع الغوّاصة Y-47 بالفخّ عندما لامس فجأة أسفلها ما بين ناقلتين... بينما وقع مؤخّر الغوّاصة تحت قبضة خطرة لأحد الحبال... ولكنّ براين لم يفقد صوابه... كانت أعصابه متوتّرة ولكنّ عقله كان ككتلة من الجليد... فنقل أوامره إلى غرفة أجهزة المحرّكات: "أوقف محرّكات اليسار... المحرّكات اليمنى ببطئ وإلى الأمام... الدفّة الخلفيّة إلى أقصى اليسار"...

وتغيّر صوت هدير المحرّكات القويّة شيئًا فشيئًا، وبدأت الغوّاصة Y-47 تتّخذ وضع العوم، وتخلّى الحبل عن قبضته...

وهكذا أمكن تجاوز هذه اللحظة الحرجة، وأصبح بإمكان القبطان إعطاء الأمر التالي:

"إلى السطح".

عندما كانت الغوّاصة تهتزّ وهي تصعد إلى السطح، ارتفع المنظار المكبّر "بيرسكوب" وألقى براين نظرة سريعة دائريّة إلى القاعدة الكبيرة أسكابافلو، وتمتم:

"لقد مررنا... والآن، إلى الهجوم"...

وركّز مراقبته بانتباه إلى الأمام، حيث شاهد البارجة الضخمة التي كانت ترسو قرب الرصيف، إنّها دون شكّ "البلّوطة الملكيّة". واقتربت الغوّاصة بهدوء حتّى أصبح الهدف تامّ الوضوح، وهتف:

"نار"...

وأحسّ براين بالهزّة التي اعتاد عليها والتي تنجم عن إطلاق الطوربيد، وانتظر خمس ثوان، عشر، خمس عشرة... ثمّ حدث انفجار مروّع اختفى على أثره مقدّم البارجة تحت حزمة كبيرة من الماء والزبد... "نار"...

وانسحق الطوربيد الثاني وهو يدمّر منتصف البارجة، ولحق به طوربيد ثالث بسرعة... ولم تكد قمّة الصدمة تنفجر لدى ملامستها للبارجة حتّى اختفت هذه الأخيرة تحت ستار من الماء... وكأنّ البحر قد انشقّ فجأة، فانطلقت الشهب الزرقاء... البرتقاليّة... والحمراء القاتمة... المندفعة من الحطام المحترق تخترق سواد الليل في كلّ اتّجاه... وكانت القطع الضخمة المتطايرة مع المداخن والكتلة الكبيرة من الجسر العلويّ ترتفع في الهواء وسط دخان الأبخرة والمياه... بينما كان صوت انفجار مستودع الذخيرة يرتفع ليصمّ الآذان...

لقد كان مشهدًا فريدًا ومرعبًا... وكأنّ جهنّم قد انفتحت على مصراعيها في ذلك اليوم في أسكاباقلو...

وأضيئت السماء فجأة بالأنوار الكاشفة، وكانت أشعّتها المرتجفة تكشف الظلمة التي مزّقتها أنوار اللهب وتنير سطح المحيط... وبدأت قاذفات الطوربيد السريعة وقانصات الغوّاصات بإجراء دوريّات في كلّ اتّجاه، وكانت مقدّماتها تثير أمامها حرم المياه، بينما كان قادتها يبحثون عبثًا عن العدوّ الذي قام بهذا الهجوم المفاجئ. وفي نفس الوقت، كان براين من جهته يحاول اقتناص اللحظات ليستفيد منها... فأعطى محرّكات غوّاصته أقصى سرعة ممكنة وانزلق من بين ناقلتين، وبذلك أمكنه الاختفاء تحت ستار البحر العريض مخلّفًا وراءه "البلّوطة الملكيّة" تموت بغيظها...

كان ذلك في تمام الساعة الواحدة والدقيقة السابعة عشرة عندما انطلق الطوربيد الأول...

وبذلك أكمل براين نصرًا فريدًا خارقًا... وقد كان هذا النصر في الواقع ثمرة لجهود "ألفريد ويهرينغ"، ذلك أنّ هذه العمليّة لم تكن لتنفّذ لولا الجهود الطويلة والعمل الدؤوب الذي قام به هذا الجاسوس.

ولكن... ما الذي حصل بعد ذلك لكلّ من هذين الرجلين اللذين لعبا الدور الرئيسيّ في تدمير "البلّوطة الملكيّة"؟

لقد قضى براين نحبه عندما كان يقوم بإحدى الدوريّات في ربيع عام ١٩٤١.

أمّا استكمال تاريخ ذلك الرجل، الذي عُرف باسم "ألبرت أوتيل"، فقد أصبح غير ممكن لأنّ الغموض قد لفّه في طيّاته...

لقد أصبح من المعروف بأنّ ألبرت أوتيل ترك فجأة كيركويل، بعد وقوع كارثة تدمير "البلّوطة الملكيّة" وإغراقها بقليل، دون أن يعطي تفسيرًا لذلك، بعد أن كان قبل يوم واحد يقوم بخدماته لزبائنه... وفي اليوم التالي لم يعد له من أثر.

يقول البعض إنّ إحدى الغوّاصات الألمانيّة قد التقطته في إحدى الليالي وحملته إلى كييل... ولكن لم يُعثر على أيّ تقرير يؤكّد على ذلك من بين كافّة التقارير التي وضع الحلفاء أيديهم عليها...

كما لا يوجد أيّ أثر من شأنه أن يشير إلى أنّه قد أُرسل لأداء مهمّة أخرى في مكان آخر...

لقد اختفى ألفريد ويهرينغ... لقد اختفى ألبرت أورتيل[١]...

---

١ ـ سنجر كيرت، أعلام الجاسوسيّة العالميّة، ترجمة بسّام العسلي، دار اليقظة العربيّة (بيروت،١٩٦٥) ص٩١ ـ ١٠٢؛ زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص١٦٠ ـ ١٧٦.

إيان فليمنغ، والدّعاية البَريطَانيَّة المُغرضَة

حتّى في نظر هؤلاء الرجال العقلاء القائمين على إدارة الاستخبارات البريطانيّة في زمن الحرب العالميّة الثانية، فهذا شيء تجاوز حدود المألوف في التصرّف. وهناك في ستوديو الإذاعة البريطانيّة، قام المذيع بوصف ونستون تشرشل بأنّه "يهوديّ ممتلئ الجسم، ومصاب بالسفلس"، وذلك بلغة ألمانيّة عاميّة جعلت هذا الوصف يبدو بذيئًا. من كان هذا الرجل المسؤول عن هذا كلّه؟

ربّما كان يمكن أن يعرف هؤلاء العقلاء أن المتحدّث هو "إيان فليمنغ"، ذلك أنّ هذا المسؤول في دائرة الاستخبارات البحريّة البريطانيّة بدا كأنّه وراء كلّ الأشياء المثيرة، وحين يحدث شيء مثير للمتاعب من هذا القبيل، في أيّ مرحلة من مراحل الاستخبارات البريطانيّة، فلا بدّ أن يكون إيان فليمنغ هو الشخص الذي فكّر في إثارتها.

وحينما طُلب منه أن يقدّم تفسيرًا لذلك، أعرب فليمنغ عن تحمّله مسؤوليّة كاملة، وشرح ذلك من خلال القول إنّه في الحملات الدعائيّة المغرضة، فمن الضروريّ أن يكون المصدر الحقيقيّ خفيًّا على نحو محكم. وهكذا، عكف فليمنغ على تنفيذ بناء محطّة إذاعة ذات أهداف دعائيّة مغرضة ضدّ العسكريّين الألمان. ومن الناحية الظاهريّة، فهذه المحطّة الإذاعيّة السريّة كانت تبثّ برامجها من مكان ما في أوروبا، غير أنّها في واقع الأمر، كانت موجودة في لندن. واستخدمت المحطّة مذيعين يتكلّمون

بلغة ألمانيّة عاميّة، على أساس أنّهم رجال عسكريّون ألمان سابقون بنوا محطّة إذاعة خاصّة بهم، وبدأوا في بثّ إشاعات مغرضة عن القيادة العليا العسكريّة الألمانيّة وأخبارًا أخرى تحظى باهتمام القوّات العسكريّة الألمانيّة، مقرونة بتعليقات ساخرة عن زعماء الحلفاء وسياساتهم.

ومع أنّ الحكومة البريطانيّة اعتبرت هذه الفكرة بغيضة في بادئ الأمر، فإنّها اعترفت بأنّ الحملة الدعائيّة المغرضة التي يقوم بها فليمنغ ناجحة جدًّا. وكان الأسرى الألمان ذكروا كيف كانت البرامج الإذاعيّة تحظى بشعبيّة عالية، وبالمصداقيّة أيضًا، وعلى الأخصّ حين سمعوا عن حكاية جنرال إسمه كذا وكذا اشترى معطفًا لإحدى الحسناوات أثناء وجود قوّاته في روسيا متجمّدة من البرد حتّى الموت، وصدّقوا الحكاية. وكان تأثير محطّة الإذاعة على معنويّات العسكريّين الألمان مدمّرًا.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ عمليّات فليمنغ الدعائيّة دخلت إلى عالم الكتب باعتبارها عمليّات ناجحة. وكانت هناك مجموعة كبيرة منها قبيل نهاية الحرب، ذلك أنّ عقل فليمنغ المبدع، حتّى وإن كان غريبًا، كان يغزل دائمًا شبكات من الأفعال القذرة.

أمّا كيف توصّل فليمنغ إلى مثل هذه الفكرة، فربّما كان أمرًا حتميًّا لا مناص منه.

إكتسب فليمنغ في سنوات حياته الأولى صفة "تلميذ المدرسة المواظب"، وشخصيّة الشابّ المثير للأقاويل والإشاعات الذي أحبّ الإثارة والحركة الدائمة.

في صيف سنة ١٩٣٩، حينما بلغ من العمر ٣١ عامًا، انهمك فليمنغ في عمليّات السمسرة في الأسهم الماليّة التي تشتغل بها عائلته، ثمّ ملّ منها، غير أنّ شيئًا واحدًا أدّى إلى تغيير مجرى حياته، وهو أنّه اجتمع ذات يوم إلى الأدميرال "جون غودفري"،

الذي كـان فـي ذلـك الوقـت رئيـس دائـرة الاسـتخبارات البحريّـة البريطانيّـة. وكـان غودفري، الواثق من حتميّة الحرب في أيّ لحظة، يحرص كثيرًا على إعادة بناء دائرة الاستخبارات البحريّـة البريطانيّـة انتظـارًا للصـراع القـادم. وكـان يتطلّـع إلـى شـباب يملكون عقولاً ذكيّة ونشاطًا دائمًا. وفي شخصيّة فليمنغ وجد غودفري الشخصيّة التـي يبحث عنها. وأعطى غودفري هذا السمسار رتبة ضابط في البحريّة، وجعلـه "مسـاعدًا خاصًـا"، وهـذا يعنـي أنّـه سـوف يكـون صـاحب الأفكـار الجديـدة المبدعـة. وأوضـح غودفري أنّ التشدّد في المواقف أمر مطلوب.

حينما اندلعت الحرب، بدأ فليمنغ في طرح أفكاره. ومـن بيـن أفكـاره الأشـدّ إثـارة تلك الخطّة التي اقترحها، وتقوم على تكوين وحدات كوماندوس خاصّة قادرة على تنفيذ "عمليّات مستحيلة" خلف خطوط العـدوّ. وحملـت هـذه الوحـدة إسـم "وحـدة هجـوم رقـم ٣٠"، وذهبت إلى فرنسا، البلد الذي اجتاحته القوّات العسـكريّة الألمانيّـة، وتمكّنـت مـن تنفيذ عمليّات رائعة، من بينها الاستيلاء سـنة ١٩٤٤ علـى قـاعدة رادار ألمانيّـة وأسـر حاميتها التي تتألّف من ٣٠٠ رجل.

لكنّ فكرة "وحدة هجوم رقم ٣٠" لم تكن غير واحدة من أفكار فليمنغ. وهناك فكرة أخرى أشدّ إثارة من سابقتها، تقوم على إعداد خطّة لإثارة الشقاق بين أعضـاء الزعامة النازيّة، وذلك عـن طريـق حمـل أحـد الأعضـاء البـارزين علـى الارتـداد إلـى الجـانب الآخر. وكان الهدف المقصود هو "رودولـف هيـس"، نـائب هتلـر وأقـدم رفيـق لـه فـي السلاح.

كان البريطانيّون يعرفون أنّ هيـس شـخصيّة مبهورة فـي علـم الفلـك، ولذلـك قـام فليمنغ باختيار اثنين من علماء الفلك السويسريّين كانا يقدّمان بصورة دائمة نصائح إلى الزعيم النازيّ. وبتأثير من جداول فلكيّة، من إعداد فليمنغ نفسـه، تعـاظم الاعتقـاد عنـد

هيس بأنّ "اللحظة الحاسمة" اقتربت، واستقلّ طائرة بنفسه إلى إنكلترا من أجل التفاوض لتحقيق السلام بين بريطانيا وألمانيا، ذلك السلام الذي ربّما يجعله، وفق الجداول الفلكيّة، أعظم الرجال في هذا القرن. وفي حقيقة الأمر، فربّما كان هيس أغبى الرجال على الإطلاق، ذلك أنّ ذهابه إلى إنكلترا لن يعمل إلاّ على تعزيز معنويّات البريطانيّين[1].

سنة ١٩٤١، انتقل فليمنغ إلى محطّة جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 في نيو يورك، وانهمك هناك في العمل محاولاً إقناع الولايات المتّحدة بالاشتراك في الحرب. وكجزء من العمليّة، نشأت علاقة اتّصال وثيقة بين رئيس محطّة الاستخبارات البريطانيّة "وليام ستيفنسون"، وبين "وليام دونوفان"، مستشار الرئيس الأميركيّ روزفلت لشؤون المعلومات.

دونوفان، الذي أصبح في وقت لاحق رئيس مكتب الخدمات الاستراتيجيّة، اقتنع بوجهة نظر البريطانيّين المفضية إلى ضرورة الحاجة إلى وكالة استخبارات مركزيّة مدنيّة. وطلب من فليمنغ تقديم مساعدة إلى دونوفان في وضع خطّة لهذه الوكالة، وفق النموذج البريطانيّ. وقرّر روزفلت عدم تبنّي الخطّة، ولكنّها أصبحت في ما بعد نواة وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA.

من واقع حقيقة أنّه ليس بذلك الرجل الذي يمكن أن يجلس وراء مكتبه لمدّة طويلة في وقت واحد، استخدم فليمنغ جزءًا من وقته في نيويورك للقيام على نحو شخصيّ بأفعال قذرة في مكتب القنصل اليابانيّ. وقامت مجموعة من فاتحي الخزائن الحديديّة، الذين جرى تجنيدهم من بين الصفوة المختارة من المجرمين، بفتح خزانة حديديّة من

---

١ ـ رودولف هيس: زعيم نازيّ أسر في نهاية الحرب، واتّهم بأنّه مجرم حرب، ومات في السجن عام ١٩٨٩.

أجل قيام فليمنغ بتصوير أوراق رموز الشيفرة. ولأسباب معيّنة، خطرت على باله، قام بإعداد نسخة عن كلّ المفاتيح التي عثر عليها في ذلك المكان.

م انتهاء الحرب، انهمك فليمنغ في عمليّات شملت هيكل الاستخبارات البريطانيّة برمّته، غير أنّ أحدًا لا يعرف على وجه اليقين ماهيّة الأفكار التي خرجت من عقله.

كان فليمنغ كأنّه موجود في كلّ مكان: في شمال أفريقيا، حيث كان يعدّ لسرقة سجلّات بحريّة إيطاليّة وأجهزة تنصّت متطوّرة. وفي فرنسا، حيث وقف على عمليّة سرقة محرّكات طائرة عسكريّة متطوّرة. وفي ألمانيا، بعد انتهاء الحرب، حيث أعدّ لعمليّة سرقة قسم الأرشيف البحري الألماني كلّه وسجلّاته التي يعود تاريخها إلى العام ١٨٧٠. وفي لشبونة، حيث شهد على عمليّة إفلاس رئيس محطّة الاستخبارات الألمانيّة على طاولة القمار في أحد الكازينوهات.

بدت هذه الأفعال في مجموعها كأنّها تصلح كمادّة جديدة للروايات الخياليّة، وهذا ما حدث بالضبط مع فليمنغ بعد انتهاء الحرب. وبالنظر إلى أنّه رجل نشيط، فإنّ عودته إلى الاشتغال في أعمال السمسرة سرعان ما تضاءلت أهميّتها في مواجهة تلك الحياة التي عاشها لمدّة سبع سنوات... وليست هناك حرب عالميّة جديدة وشيكة يمكن من خلالها أن يعود مجدّدًا لممارسة هوايته. وأصبح فليمنغ كاتبًا روائيًّا، وعن طريق هذا المجال من العمل أصبح شخصيّة معروفة جيّدًا في تاريخ التجسّس...

كان القصد من روايته في المغامرة، كما اعترف فليمنغ نفسه، أن تكون موضوعًا في التسلية. وكانت الشخصيّة الرئيسيّة في رواياته، العميل "جيمس بوند" واسمه الرمزي 007، بمثابة مجموعة مؤلفة من عملاء كان فليمنغ يعرفهم ويعمل معهم، علاوة على فليمنغ نفسه... بينما كانت شخصيّة رئيس جيس بوند، في العمل،

"المستر M"، معتمدة على حياة "ماكسويل نايت" الحقيقيّة، وهو صائد جواسيس معروف جيّدًا وواحد من كبار رجال جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5. ولم يكن فليمنغ يفكّر في أنّ كلماته يمكن أن تنطوي على ميّزة أدبيّة، ولكن لدهشته، فإنّ مسلسلات جيمس بوند القائمة على المغامرة أصبحت محبوبة على نطاق واسع، وعلى الأخصّ وفق ما جاءت عليه في الأفلام السينمائيّة. وحتّى وفاته سنة ١٩٦٤، أصرّ فليمنغ على القول إنّه لم يكن جيمس بوند، غير أنّ هؤلاء الذين عرفوا أعماله البطوليّة في زمن الحرب لديهم مبرّر للاعتقاد بغير ذلك[١]...

١ ـ فولكمان، الجواسيس عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ص١٤٤ ـ ١٤٨.

البَرِيطَانِي فِي صفُوف المقَاوَمَة الفَرنسيَّة

كانت طائرة وحيدة من طراز "لانكستر" تخترق العاصفة التي كانت تمتدّ كالسلسلة المحيطة بشواطئ فرنسا في ليلة شؤم من ليالي شهر أيّار ـ مايو ١٩٤٣، وقد قال الملاّح، وهو يحكم أجهزة الطائرة التي كانت تحلّق على ارتفاع كبير فوق غيوم كبيرة كانت تبدو وكأنّها تهرب بعيدًا خلال خليج "غاسكينا":

ـ إنّه من الصعب الوثوق بطقس شهر أيّار ـ مايو.

وقد وافق ربّان الطائرة المقنبلة، التي لم يكن جوفها يحتوي على أيّ قنيفة، على قوله عندما ردّد قائلاً:

ـ إنّها ليلة رديئة حقًّا... ولكنّ الألمان لا يتوقّعون بالتأكيد مشاهدتنا في هذا الطقس الرديء... كما أنّ ذلك الرجل الضخم بطل خبير..

كان ذلك الرجل الضخم الذي جاء الكلام عنه في حديث الطيّار ذا أهميّة بالنسبة لإنكلترا وحلفائها تزيد على إنزال وقذف أيّ قنبلة متفجّرة فوق أحد الأهداف المعادية... فقد كان ذلك الرجل، واسمه "كريستوف لورد"، يقبع في جوف الطائرة، وهو ضابط في المنظّمات السريّة البريطانيّة، تلقّى أمرًا بالقفز مستخدمًا مظلّته للنزول فوق فرنسا التي كانت تحتلّها القوّات الألمانيّة النازيّة، ثمّ الوصول إلى "تانوس"، وهي قرية من قرى "تارن" تقع إلى الشمال الشرقيّ من "تولوز"، على بعد ثمانين كيلومترًا تقريبًا منها.

كانت مهمّة النقيب "لورد" دقيقة للغاية، ذلك أنّ المنظّمات السريّة النازيّة كانت منذ وقت مضى على اطّلاع مسبق على كافّة المخطّطات التي يتمّ وضعها في لندن والتي تهدف إلى مساعدة عناصر المقاومة الفرنسيّة. ونتج عن ذلك وقوع كميّات من الأسلحة والمتفجّرات في أيدي السلطات النازيّة، بالإضافة إلى عدد لا بأس به من رجال الاستخبارات الذين كان يتمّ إسقاطهم بواسطة المظلاّت في عدد من المواضع داخل الحدود الفرنسيّة بمهمّة تأمين الاتّصال مع عناصر المقاومة. ونتيجة لذلك، فقد كان هناك، وبالتأكيد، وجود بعض الخلل في بعض منظّمات المقاومة، ولكن الفرصة لن تسنح للنقيب الإنكليزيّ بأن يستكمل مهمّته التي جاء من أجلها... وعوضًا عن ذلك، سيقع هو ذاته في الفخّ ويصبح ممثّلاً رئيسيًّا لقصّة غريبة سوف تنتهي بمأساة قاسية، لم تتّضح خيوطها تمامًا وترى النور إلاّ بعد مرور زمن طويل، وبعد أن تمّ تحرير فرنسا...

لقد كان الكشف عنها صدفة من أكبر الصدف الطارئة...

***

على الرغم من أنّ النقيب لورد كان من مواليد "بيرمنغهام"، فقد نشأ وترعرع في فرنسا حيث كان يقيم أبواه هناك منذ كان صغيرًا، وكان يعرف معرفة دقيقة بالإضافة لهذه البلاد، كلاً من بلجيكا وهولندا، وكان يتكلّم عددًا من اللغات بطلاقة تامّة، كما كان قد أتمّ دراسته في الاقتصاد والمال.

عندما قام الألمان باجتياح فرنسا في أيّار ـ مايو ١٩٤٠، كان متزوّجًا من امرأة فرنسيّة جميلة جدًّا، كما كان يشغل منصب المدير لإحدى المؤسّسات المصرفيّة في باريس.

كان لورد ذا تقاطيع مميّزة: شعر أشقر انقلب إلى شعر أبيض أثناء الفرار اليائس أمام القوّات النازيّة في عام ١٩٤٠. وكانت ترافقه زوجته وابنته... ثمّ وصل إلى إنكلترا عن طريق أفريقيا الشماليّة الفرنسيّة. وقد شاهد بأمّ عينه عددًا من البواخر التي كانت تدمّرها الطوربيدات وتغرقها الألغام.

بعد أن وصل لورد إلى إنكلترا، اتّصل بالمؤسّسة المصرفيّة التي كان يعمل فيها ووجد عملاً هناك، ثمّ اتّصل به بعض الأشخاص بعد ذلك، وبدأ عمله في خدمة المنظّمات السريّة البريطانيّة. ثمّ اتّبع دورة للتدريب على القفز بواسطة المظلاّت الواقية، وقفز عدّة مرّات فوق أرض فرنسا وأميركا. ولكنّ مهمّته الجديدة كانت تختلف تمامًا عن تلك الواجبات التي نجح في تنفيذها حتّى ذلك التاريخ.

***

كانت مهمّة كريستوف لورد الجديدة تتطلّب منه العمل لمدّة أشهر طويلة، وهو مضطرّ لذلك إلى العيش بشكل خفيّ، متظاهرًا وكأنّه لاجئ من شمال فرنسا.

كان لورد وهو يجلس في جوف الطائرة، وقدماه تستندان إلى جدار هيكلها، ولفافة التبغ تبعث دخانها من بين شفتيه، يسرح بفكره وهو يستعرض الأوامر الأخيرة التي كان قد تلقّاها وهي كالتالي:

عليه أن يذهب إلى فندق صغير معيّن في تانوس، وهو ملك لأحد عناصر المقاومة، واسمه "ليون غوليسك"، ويتقدّم إلى صاحب الفندق ليعرّفه بنفسه بعد ذكر كلمة السرّ وهي:

"لقد أصبحت الدجاجات جاهزة لإرسالها إلى السوق".

وعندما يسأله صاحب الفندق: "وكم عددها"؟ عليه أن يجيب: "إثنتي عشرة".

كما كان هناك اثنان من عناصر الاستخبارات البريطانيّة يحملان اسمين مستعارين: "شيدو"، و"لوفيفر"... سيتمّ إنزالهما تقريبًا في نفس الوقت الذي سيهبط فيه لورد وفي المنطقة نفسها، ولكن بواسطة طائرة أخرى. وسيعمل هذان العنصران بناء على أوامر النقيب لورد وتحت قيادته.

من المحتمل أن يكون لورد قد فكّر أيضًا، وهو جالس في جوف الطائرة، بأهميّة الواجب الملقى على عاتقه، وضرورة الإسراع في تنفيذه للكشف عن هويّة ذلك المخبر العميل الذي يعمل مع رجال المقاومة لكي يتمكّن من خيانتهم...

كان لورد قد حفظ عن ظهر قلب كلّ المعلومات التي أعطيت إليه، كما عمل على تثبيت نطاق جلديّ فوق ثيابه، وكان يحتوي على أوراق نقديّة فرنسيّة، وذلك قبل أن يصعد مباشرة ليركب على متن الطائرة التي يجب أن تقلع به من أحد مطارات إنكلترا.

كان لورد يرتدي بنطال اللباس العسكري الإنكليزي، كما كان يضع فوق كتفيه سترة مدنيّة ذات طراز فرنسيّ ظاهر، ووضع قميص سترته العسكريّة إلى جانبه، بعد أن عمل على طيّه تحت معطفه، وذلك قبل أن يغادر الطائرة ويقفز إلى الفضاء مباشرة. وكان هدفه من ذلك أن الحظّ إذا ما خانه، ووقع في أيدي إحدى الدوريّات الألمانيّة في لحظة وصوله إلى الأرض، فسيتمّ إعدامه رميًا بالرصاص فورًا كجاسوس فيما لو كان يرتدي الثياب المدنيّة، أمّا إذا تمّ اعتقاله وهو يرتدي الألبسة العسكريّة الإنكليزيّة، فسيتمّ اعتقاله كأسير حرب، وذلك حسب الاتّفاقات الدوليّة. وكان من البديهيّ أنّ السلطات النازيّة لو عثرت عليه لما التزمت بأيّ أمرٍ من هذا القبيل...

دخل الملاّح إلى جوف الطائرة وكوّر جسده ليجلس إلى جانب لورد، وصرخ بأعلى صوته لكي يكون مسموعًا على الرغم من هدير محرّكات الطائرة وقال له:

إنّنا سنصل فوق هدفنا بعد نحو ١٥ دقيقة. هل أساعدك على ارتداء مظلّتك؟

ووافق لورد بإيماءة من رأسه... وسحب آخر نفس من لفافة التبغ التي كان يضعها بين شفتيه، ثمّ صرخ بأعلى صوته وهو يبتسم وقال:

"إنّ مفارقات هذا العالم تستدعي السخرية... فقد كنت أكره دائمًا الخروج من المنزل عندما يكون الطقس ماطرًا... ولكنّني اليوم أشعر بالسعادة لأنّني آمل بأن يجبر المطر الألمان على الاختفاء وأن يحجب عنهم الرؤيا".

وابتسم الملاّح لهذا التعليق، ثمّ تناول المظلّة الواقية التي كان قد تمّ طيّها بعناية من على رفّ الطائرة... ونهض لورد بعد أن سحق عقب لفافة التبغ، وارتدى قميصه العسكريّ فوق سترته، ثمّ ثبّت أحزمة مظلّته، والتقط طردًا عتيقًا ترتسم عليه ملامح القدم كان قد أحضره معه، واقترب من فتحة الطائرة التي سيقفز منها إلى الفضاء حيث ستلفّه الظلمة والأمطار... وقال الملاّح في اللحظة التي كان فيها شراع المظلّة ينفتح بشكل طبيعيّ:

- حظًّا سعيدًا وهبوطًا موفقًا...

أمّا الكابتن لورد، ففي اللحظة التي غادر فيها الطائرة وشعر أنّه أصبح في الفراغ، عمل على لصق رأسه بصدره ثمّ أخذ الهواء يعبث به وكأنّه كيس من القشّ... فعمل على سحب قبضة المظلّة... وعندئذ أحسّ فجأة وكأنّه وقف عن السقوط كما لو أنّ يد عملاق أمسكت به بقسوة...

لم تكد المظلّة تنفتح حتّى شعر أنّه في وضع طبيعيّ تمامًا... رأسه إلى الأعلى وقدماه إلى الأسفل... كان لورد يشعر بالغثيان والدوار نتيجة انتقاله من جوّ الطائرة الحارّ إلى الجوّ البارد... ولذا فعندما وصل الأرض، لم يكن في حالة طبيعيّة... فسقط

على ظهره فوق الأعشاب النامية فوق أوحال إحدى المزارع بين حفرتين متجاورتين، وكان المطر قد انقطع عن الهطول، وكان الضباب يغطّي الحقول بشكل خفيف...

عمل النقيب بسرعة على طيّ أطراف مظلّته وأسرع بدفنها في إحدى الحفرتين، وآنئذ، وصله من مسافة ليست بعيدة عنه صوت طرقات أجراس ساعة كبيرة تعلن أنّ الوقت أصبح الثالثة صباحًا.

تمكّن لورد من التقدّم وسط هذا الضباب، حيث اجتاز بحذر أحد الحقول، ولم يتوقّف إلاّ عندما وصل إلى إحدى الطرقات الرئيسيّة، حيث مكث هادئًا لبرهة وجيزة بدون أن يأتي بأيّ حركة. ثمّ أمعن النظر في ما حوله... ولكنّه لم يشاهد أيّ شيء يثير الشبهة... فقد كان كلّ شيء هادئًا، والصمت مطبقًا تمامًا.

نظر باتّجاه الشرق، حيث مولد فجر اليوم الجديد من خلف الغيوم الكبيرة السوداء، ورفع لورد الأمان عن مسدّسه، وتابع سيره في ذلك الاتّجاه الذي سمع منه صوت الساعة، وهو اتّجاه تانوس حيث كان ينتظره الفندق الصغير الذي يشرف عليه ويديره ليون غوليسك.

لم يكن من الصعب الوصول إلى الساحة الرئيسيّة للقرية النائمة، وهناك توقّف أمام منزل شبه مهدّم، تغطّيه الأعشاب ذات اللون البنّي، ولم يكن هناك غير باب واحد. وقد قال لنفسه عندما شاهد هذا المنزل بأنّه مبالغة مفرطة أن يسمّى هذا المنزل فندقًا...

دفع لورد غطاء فتحة مستطيلة في الباب كان الصدأ يغطّيها، وكانت تلك الفتحة لصندوق بريد الفندق، ثمّ نظر من خلال تلك الفتحة فشاهد شعاعًا خفيفًا من الضياء يتسرّب من فوق فتحة باب ربّما كان يقع في نهاية الممرّ، ثمّ نظر النقيب بحذر إلى ما حوله مرّة أخرى فرأى أنّ الشارع لا يزال مقفرًا كالمعتاد، فطرق على الباب ثلاث

طرقات قويّة متتالية. ووصل إلى سمعه صوت صراخ ديك من الطرف الآخر، ثمّ انفتح الباب بعد ثوان قليلة وهمس ذلك الرجل الذي انتصب أمامه بصوت خشن:

ـ من أنت؟...

فأجابه لورد:

ـ لقد أصبحت الدجاجات جاهزة لإرسالها إلى السوق...

ـ وكم عددها؟..

ـ إثنتي عشرة.

ـ حسنًا... تفضّل بالدخول... يا صديقي.

وانفتح الباب أكثر من ذي قبل، ثمّ انزلق الرجل الإنكليزيّ إلى الداخل وتبع صامتًا خطوات الشيخ الضخم الذي كان يتقدّمه إلى أن وصل إلى غرفة تقع في آخر الممرّ المظلم. إنّها غرفة الجلوس، وهي ذات أثاث عتيق، يقع في زاوية منها موقد يعمل على الفحم الخشبيّ يؤمّن للغرفة حرارة مناسبة ودفئًا مريحًا. ثمّ فتح المضيف دولابًا وأخذ منه قدحين ملأهما خمرًا، قدّم أحدهما إلى لورد، قائلاً:

ـ في صحّتكم ومرحبًا بكم سيّدي.

ورفع ليون غوليسك قدحه وأفرغه في جوفه دفعة واحدة.

كان ليون غوليسك رجلاً ضخم الجثّة، جريئًا مقدامًا، عريض الكتفين، ذا عينين زرقاوين لامعتين وحاجبين كثيفين وأهداب سوداء كثيفة طويلة.

أفرغ لورد قدحه ثمّ قرّب يديه المتجلّدتين ووضعهما بجانب الموقد وقال:

ـ إنّها ليلة رديئة، وقد كانت الأمطار تهطل بغزارة عندما غادرت إنكلترا.

عندئذ أجابه الفرنسيّ وهو يبتسم بعد أن ملأ قدحه مرّة ثانية:

- ولكنّها ليلة ملائمة بالنسبة لكم. فإنّ الألمان يكرهون النزهة في الطقس الـرديء، حتّى ولو كان ذلك بأوامر هتلر.

وأخرج لورد لفافات التبغ من جيبه وقدّم واحدة منها إلى غوليسك الذي أخذها وقـد التمعت عيناه فجأة وهو يقول:

- إنّها سجائر إنكليزيّة أليس كذلك؟... شكرًا سيّدي.

ثمّ نهض ففتح باب الموقد وأدخل ورقة لثـوان قليلـة ثـمّ اسـتخدمها لإشـعال لفـافتي التبغ.

عندئذ جلس لورد في أحد المقاعد الوثيرة ووجّه سؤالاً إلى ليون:

- وهل وصل آخرون؟ ... من الدجاجات؟...

أجابه ليون غوليسك، وهو يزفر غيومًا من الدخان بقوله:

- نعم، وصل اثنان الليلة الماضية. وصل أولهما حوالى الساعة الحادية عشرة، أمّـا الثاني فقد وصل في مثل هذا الوقت... واسم هذين الإثنين شيدو ولوفيفر، وستقابلهما في هذا الصباح.

- حسنًا، وكيف تسير الأمور هنا؟... هل في المنطقة عدد كبير من النازيّين؟...

أجابه ليون، وهو يبصق علامة استيائه واحتقاره، وهزّ برأسه وهو يقول:

- لقد أقام الغستابو مركزًا أماميًا سريًا فيجب العمل بمنتهى الحذر.

وقضـى الرجـلان زهـاء نصـف سـاعة معًـا، وهمـا يتحدّثـان عـن الأوضـاع العامّة، بحيث أنّ لورد عندما ذهب إلى النوم لساعات قليلة لكي يأخذ قسطًا من الراحـة

التي كان يستحقّها، كان قد كوّن فكرة واضحة عمّا كان يجري في تلك القرية وضواحيها...

إستلم "إدمون تاياك" عمدة قرية تانوس في صباح اليوم التالي رسالة هذا نصّها:

"وصلتنا ثلاث دجاجات صغيرة".

وتمّ نقل هذه البرقيّة إلى لندن بواسطة جهاز لاسلكيّ للإرسال على الموجات القصيرة، كان العمدة قد نجح بإخفائه عن القوّات الألمانيّة.

لم يساور الشكّ أحدًا ممّن شاهد النقيب لورد، وهو يهبط لتناول طعام إفطاره الذي كان يتكوّن من قطع صغيرة من الخبز وما يستعيض به عن القهوة في أنّه فرنسيّ عريق، كما انضمّ إليه شركاؤه في مهمّته شيدو ولوفيفر... وجلسوا جميعًا في غرفة جلوس غوليسك حيث كان بإمكانهم تبادل الحديث بحريّة وطمأنينة لدراسة التدابير الواجب اتّخاذها لوضع حدّ للخطر الذي كان يتهدّد كلّ عناصر المقاومة في هذه المنطقة.

وقال لورد لزملائه:

"ستبقى شبكة تجسّسنا في خطر دائم إذا لم نكتشف الخائن. ومن المحتمل أن يكون هناك عدد من الخونة... ولا أحد يستطيع إعلامنا إذا كان هذا الخائن يقيم في تانوس أو في ضواحيها... وقد يكون ذلك الخائن مزارعًا أو موزّعًا للبريد أو تاجرًا أو عاملاً بسيطًا... وعلى أيّ حال فمن المؤكّد أنّ هذا الخائن على علاقة بنقل الأوامر إلى عناصر المقاومة من مكتب الجنرال ديغول في لندن"...

ثمّ ألقى لورد نظرة خاطفة على خارطة الإقليم التي كان وضعها تحت تصرّفه صاحب الفندق، واستمرّ في حديثه إلى شركائه:

"... وهكذا... وكما تشاهدون، فقد عملت على تقسيم القطاع إلى ثلاثة أقسام وسيكون أكثر أمنًا بالنسبة لنا إذا عملنا بشكل منعزل كلّيًا عن الآخرين، ويقوم كلّ منّا بعمله في قطاعه الخاصّ به"...

واقترب كلّ من شيدو ولوفيفر من الطاولة التي كانت الخارطة قد نُشرت فوقها، وبدأ لورد يشرح ويوزّع الأعمال:

"سأكون مسؤولاً عن الجنوب الغربيّ الذي يتضمّن القرية ذاتها، أمّا أنت يا لوفيفر فتستطيع الاهتمام بالقطاع الشمالي الشرقي... وأنت يا شيدو فستعمل في القطاع الشماليّ الغربيّ، وفي هذا القطاع الكثير من الأكواخ والمزارع... وإذا اضطررنا للاتّصال ببعضنا فسيتمّ ذلك عن طريق غولسيك، وسنستفيد منه كوسيط في ما بيننا... كما أنّكم من البديهيّ أنّكم بحاجة للنقود"...

عند ذلك عمل لورد على فكّ أزرار سترته، وأخرج قميصه خارج بنطاله، وفكّ نطاقه، وأخرج منه قطعًا من ذوات الألف فرنك فرنسيّ... وهتف شيدو وهو ينظر أمام عينيه بنظرات جشعة إلى قطع النقود المغرية قائلاً:

"إنّهم لم يتخلّوا عنّا كي لا نقع في عوز وحاجة للنقود"...

وعقّب لورد على كلامه بالقول:

"إنّه من المستحيل التنبّؤ عن حاجتنا للنقود في هذه المهمّة وما يتطلّبه العمل من أجلها... وأكثر من ذلك... فمن الممكن أن نبقى محتجزين هنا في هذا الإقليم لمدّة عدد من الأشهر"...

بعد ذلك بيومين، قام ليون غولسيك بتسليم رسالة مستعجلة تلقّاها من شيدو إلى لورد، وكان شيدو يعمل على مقربة من مزرعة تبعد مسافة ستّة كيلومترات من تانوس

إلى الشمال منها. وقد اشتبه بأحد المزارعين على أنّه الرجل الذي يجري البحث عنه، فأرسل رسالة يطلب فيها حضور لورد واللحاق به مباشرة محدّدًا موعدًا للمقابلة في هضبة تقع على مقربة من كنيسة تانوس...

لم يُعرف إطلاقًا بعد ذلك إذا كان النقيب قد ذهب إلى الموعد أم لا... فقد شوهد وهو يغادر الفندق في الوقت الملائم والمتّفق عليه، ثمّ اختفى كلّ أثر له من بعد تلك اللحظة... إلى أن عُثر عليه جثّة هامدة بعد ذلك بحوالى الشهر، وذلك بتاريخ ٢٣ حزيران - يونيو تحديدًا، وقد انتُشلت جثّته من قعر أحد الآبار، بعد أن اخترق ظهر الجسد أربع رصاصات...

ماذا حدث لكريستوف لورد؟... ومن قام باغتياله؟...

بقيت كلّ الأسئلة أحجية ولغزًا استعصى على الحلّ إلى أن تدخّلت الصدفة بعد ذلك التاريخ بنحو ثلاثة أعوام، وكان الاستقرار قد عاد إلى تانوس التي أصبحت تزاول نشاطها المعتاد وهي تنعم بزمن من السلم.

كان شقيق أرملة لورد يجتاز التارن في ربيع عام ١٩٤٦ عندما أُصيبت سيّارته بعطل طارئ في تانوس، ممّا اضطرّه إلى المبيت وقضاء ليلة في تلك القرية، وكان من البديهيّ أن يلتجئ إلى المبنى الوحيد الذي يستطيع أن يقضي ليلته فيه، وهو الفندق الذي يمتلكه ليون غوليسك.

في تلك الأمسية، عمل "ألتريل" رغمًا عن إرادته على الدخول في حديث مع صاحب الفندق وقال له وهو يحتسي كأس شراب من البيرنو:

- كم هي جميلة قريتكم وكم هي هادئة!... إنّني أفترض بأنّ الحياة هنا خالية من الأحداث الهامّة...

فما كان من صاحب الفندق إلاّ أن عقّب على ذلك بقوله:

ـ لقد تعرّضنا إلى ما يكفينا من الأحداث الهامّة أثناء الحرب... ولو كنت هنا في تلك الحقبة لما قلت ذلك... لقد كانت تانوس مركزًا من مراكز المقاومة الهامّة... كما كان يتمّ إسقاط العناصر السريّة من الإنكليز بواسطة المظلاّت في الضواحي، وقد عثرنا على جثّة لجاسوس إنكليزيّ... تمّ قتله لأنّ أمره افتُضح لكونه كان يعمل لمصلحة الحلفاء والألمان في وقت واحد... وقد أُلقي بالجثّة في بئر من آبار القرية... وكان من المحتمل ألاّ يُعثر عليه أبدًا لولا أنّ الفساد أصاب جثّته وأصبحت رائحتها كريهة... لذا هبط اثنان من الرجال إلى البئر للبحث عن سبب فساد الماء، وعندئذٍ أمكن العثور على الجثّة...

وسأل السائح وقد استيقظت فيه روح الفضول فجأة:

ـ ومتى تمّ ذلك"...

ـ في عام ١٩٤٣... وفي شهر حزيران ـ يونيو على ما أعتقد. وقد ترددت شائعات يومها تقول إنّ ذلك الشخص قد قُتل بيد عميل آخر جاء من لندن أيضًا... ولم يكن وجود عدد كبير من العملاء المزدوجين الذين يعملون لاتّجاهين في وقت واحد، أثناء تلك الحقبة المضطربة، شيئًا غريبًا. لقد كانت هناك مبارزة حقيقيّة حتّى الموت...

ـ وكيف كانت ملامح الجاسوس الذي عُثر عليه في قاع البئر؟...

ورفع صاحب الفندق رأسه ونظر إلى السقف وهو يفكّر للحظة قصيرة، ثمّ أجاب سائله بقوله:

ـ لقد كان رجلاً عاديًّا تمامًا... من ذلك الطراز من الرجال الذين يصعب الشكّ في أمرهم... ولكن بعض التفصيلات هي التي أذهلتني... لقد كان شعره أبيض كالثلج. إذا

كانت تلك الشائعات صحيحة، وإذا كان ذلك الشخص هو عميل مزدوج فعلاً... فإنّ اغتياله عمل جيّد... لأنّه كان سيتسبّب في محنة تنزل على الحلفاء... بالإضافة إلى أنّه كان سيعرّض حياة رفاقه الفرنسيّين والإنكليز للخطر.

في تلك الليلة كان من الصعب أن يجد النوم سبيله إلى عيني شقيق السيّدة زوجة لورد... وقد تقلّب في فراشه عشرات المرّات وهو يسترجع تلك القصّة التي رواها له صاحب الفندق... لقد كانت الشارة المميّزة... وهي الشعر الأبيض... تدلّ بوضوح على أنّ الجثّة هي جسد النقيب كريستوف لورد.

في صباح اليوم التالي اتّصل هاتفيًا بشقيقته التي كانت تقيم في لندن وشرح لها كلّ ما سمعه ثمّ حثّها على القدوم إلى فرنسا وطلب الإذن باستخراج الجثّة. وصرخت شقيقته:

- لا يمكن أن يكون كريستوف عميلاً مزدوجًا... فكيف يمكن ترداد مثل هذا القول بحقّه؟... لقد كان يكره النازيّين كرهًا دفينًا... فكيف كان يمكن أن يعمل على مساعدتهم؟... إنّني سأحضر فورًا ويجب أن يعاد الاعتبار لشرف زوجي لتبقى صفحته مشرّفة ناصعة...

لم تتأخّر زوجة لورد في إضاعة الوقت سدى، بل توجّهت إلى باريس مباشرة وحصلت على إذن باستخراج رفات زوجها، ورافقها شقيقها وهي تجتاز بتصميم وحزم مقبرة تانوس الصغيرة، ونظرت إلى بقايا الرفات المتناثر وقالت:

- إنّه بالتأكيد رفات كريستوف...

لقد كان شاحبًا كما كان شعره أبيض ومماثلاً تمامًا لما كان عليه عندما كان على قيد الحياة... كما كانت هناك علامات فارقة أخرى تؤكّد أنّ ذلك الرفات هو رفات

زوجها... فقد كان أحد أسنانه مصنوعًا من الذهب... كما كان رسغ أحد قدميه مكسورًا منذ بدأ تمرينه على الهبوط في المظلاّت الواقية.

عادت بعد ذلك السيّدة لورد إلى لندن ثمّ طلبت مقابلة إحدى الشخصيّات التي لها مكانتها في وزارة الشؤون الخارجيّة، وعندما تمّت المقابلة طلبت بإلحاح وتصميم فتح تحقيق جديد، وكان ممّا قالته: "إنّني أريد إعادة الإعتبار لشرف زوجي وغسل الاتّهامات الدنيئة التي علقت به. إنّه رجل نبيل، وشجاع، وقد استشهد وهو يؤدّي واجبه في خدمة بلده. وإنّه لمن المؤلم حقًّا أن يدنّس اسمه بالوحل".

أعطى ذلك الموظّف الكبير في وزارة الشؤون الخارجيّة أوامره بالبدء في التحقيق فورًا. وسافر ضبّاط من السكوتلانديارد إلى فرنسا لإجراء التحريّات حول هذه الأحجية القديمة التي مضى عليها ثلاثة أعوام. وقدّمت عناصر الأمن كلّ مساعدة في التحقيق، وقد تمّ التقاط الكلمات والأقوال المتعلّقة بهذا الموضوع من تانوس، كما أمكن استجواب عناصر المقاومة القديمة والمزارعين وسكّان القرية، ولم يتمّ إهمال أيّ كلمة حتّى تلك القصّة التي تذكر أنّ لورد قُتل بأيدي الألمان، فقد تمّ تسجيلها، وأخيرًا أصدر وزير الشؤون الخارجيّة البريطانيّة البيان التالي بعد أن كان قد مضى عام كامل على بدء التحريّات والأبحاث الدقيقة

"على أثر التحريّات التي تمّت في فرنسا من قبل السلطات الفرنسيّة وبمعونة رجال سكوتلانديارد، فقد تمّ إثبات هويّة الجثّة التي أمكن العثور عليها في أحد الآبار في قرية تانوس قريبًا من تولوز، وذلك في شهر حزيران ـ يونيو من عام ١٩٤٣، وكانت تلك الجثّة هي جثمان النقيب كريستوف جيمس لورد الذي كان قد اختفى منذ شهر آذار ـ مارس ١٩٤٣ وهو في سبيله لتنفيذ مهمّة عسكريّة سريّة تلقّى أوامرها من وزارة الحرب البريطانيّة".

وقـد نُشـر عـدد مـن المقـالات آنـذاك فـي الصحـف الفرنسـيّة، وهـي تذكـر أنّ الكـابتن لـورد قـد تـمّ إعدامـه رميًـا بالرصــاص علـى أثـر صـدور أمـر سـرّي عن وزارة الحرب، لأنّه كان قد عرّض مهمّته التي ذهب لتنفيذها للخطر، وكذلك حيـاة رفاقه...

نتيجة لصدور البيان البريطانيّ، فإنّه من الممكن التأكيد علـى أنّ الكـابتن لـورد لـم يُقتل على أثر إصدار أوامر سريّة قطعيّـة، أو لأيّ شكوك راودت وزارة الحـرب البريطانيّة، التي لم تعلم بوفاته إلاّ قبل زمن قصير من القيام بتحريّاتها التـي نتـج عنهـا إصدار هذا التصريح، كما أنّه لا يوجد أيّ دليل مطلقًا علـى أنّ الكـابتن لـورد كـان قـد خان مهمّته أو عمل على خيانة رفاقه.

لقد أعاد البيان البريطانيّ الاعتبار لشرف لورد ومكانته، ولكنّ هذا البيـان لـم يلـقِ شيئًا من الضوء ولم يضع حلاً لتلك الأحجية. فمن هو قاتل الكابتن لورد إذن؟...

إنّه من المحتمل أن يكون اغتيال لورد قد تمّ على أيدي رفاقه، أو على أيدي رجال الغستابو، أو بواسطة أحد من الذين أغراهم المبلغ المالي الضخـم مـن النقـود الفرنسـيّة الذي كان يحمله لورد معه.

إذا كانت هذه الفرضيّة الأخـيرة صحيحـة، والتـي لا يمكـن تكذيبهـا، كمـا لا يمكـن تأكيدها رسميًّا، فإنّ شيدو شريكه في مهمّته هو أفضل شخص يستطيع معرفـة الحقيقـة عمّا حدث له فعلاً، ذلك لأنّه هو الذي حدّد في الواقع مكان الاجتمـاع السرّي فـي تلـك الليلة التي اختفى فيها لورد، كما أنّه هو ذاته الوحيد الذي يعرف مكان النقود ويعـرف أنّ لورد كان يحملها معه.

ولكنّ شيدو لم يكشف شيئًا عمّا يعرفه... وبقيت شـفتاه مغلقتيـن أبـدًا، لأنّـه قـد تـرك تـانوس بعـد أن حـدث اغتيـال لـورد بزمـن قصـير... ولكـنّ رجـال

سكوتلانديارد انتهوا من أبحاثهم عنه عندما علموا أنّ رجال الغستابو قد علّقوا جسده في باريس...

من المحتمل كثيرًا أن تبقى هذه الأحجية لغزًا لا حلّ له... ولكن ما هو أكثر أهميّة، هو إعادة الاعتبار وغسل العار الذي علق بشرف لورد ودنّسه، وقد تمّ ذلك بشكل نهائيّ... وبذلك لم يبق أيّ شيء يمكن قوله عن تلك القصّة التي كان يتناقلها سكّان قرية تانوس التي كانوا يسمّونها "قصّة كريستوف لورد"[1].

---

١ ـ سنجر كيرت، أعلام الجاسوسيّة العالميّة، ص٤٠١ ـ ٤١٥؛ زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، ص١٧٧ ـ ١٩٦.

إريك إريكسون والنفط النازيّ

في أحد أيام الخريف البارد في عام ١٩٤٤، كان هناك سلاح جعل ألمانيا النازية مقتنعة بأنه سوف يغير مجرى الحرب العالمية الثانية تدريجيًا عند انطلاقه من موقعه في أحد المطارات العسكرية في جنوب ألمانيا. وهذا السلاح هو الطائرة المقاتلة من طراز ME-262 التي كانت جاهزة للقيام بأول تحليق لها في الجو.

وكانت ألمانيا مقتنعة بأن هذه الطائرة في حال نشرها، سوف تعمل على تغيير مجرى الحرب الجوية الآخذة إلى تحطيم ألمانيا إلى أجزاء. وهذه الطائرة المقاتلة الجديدة، وهي أسرع من الطائرات المقاتلة التي كانت ترافق الطائرات القاذفة البطيئة التابعة للحلفاء، من شأنها إسقاط القاذفات البطيئة. ولو أمكن تجنيب ألمانيا من هجمات طائرات الحلفاء القاذفة، فربما كان من الممكن أن تنجح الصناعة الألمانية في صنع هذا "السلاح العجيب" وجعل ألمانيا تنتصر في الحرب في نهاية الأمر.

ولكن الظروف التي أحاطت بعملية ظهور الطائرة ME-262 في المطارات العسكرية أكدت الأسباب التي جعلت ألمانيا لا تعقد الأمل على الانتصار في الحرب، ناهيك عن الانتصار في الحرب الجوية. وكان انتصار العقلية التكنولوجية الألمانية يتوقف على وجود مجموعة من الثيران لاستخدامهم في جر هذه الطائرة في المطارات العسكرية. وحتى لو تمكنت من الإقلاع، فيمكنها أن تحلق في الجو لبضع دقائق فقط، ذلك أن ألمانيا كانت تعاني من نقص حاد في مخزون وقود الطائرات. وعلى مسافة

بضعة أميال، كان المصنع الذي ينتج الطائرات ME-262 يجد صعوبة في الحصول على قطع الغيار والمواد الخام، وذلك بسبب أن الشاحنات التي تقوم بنقلها لا تجد وقودًا كافيًا. وحتى لو كان من الممكن تحقيق الحد الأقصى من الإنتاج، فلم تكن هناك كميات كافية من الوقود لجعل هذه الطائرة محمولة جوًا.

كل هذه المشاكل لحقت بألمانيا بينما كانت في وضع لا تحسد عليه في عام ١٩٤٤: الافتقار إلى النفط. وكان الافتقار إلى وجود كميات كافية من النفط عاملاً حاسمًا في تحطيم ماكينة الحرب الألمانية. وهناك رجل واحد مسؤول عن هذه الحقيقة، وهو رجل تمكن من تحويل إمدادات ألمانيا من النفط إلى مجرد قطرات، إنه الرجل الذي لم يشك الألمان به لحظة واحدة، ويدعى إريك إريكسون.

عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، كان إريكسون في الثامنة والأربعين من العمر، ويعمل في تجارة النفط، ويسافر باستمرار إلى معظم أنحاء العالم لعقد صفقات مختلفة، ومثله كمثل معظم رجال الأعمال، فإن إريكسون أحب عالم النفط الغامض والمتقلب. وكان إريكسون ولد في بروكلين، وهاجر إلى السويد في ١٩٢٤، حيث بدأ في تأسيس شركة خاصة به لإنتاج النفط. وكان يلقب "الرجل الأحمر" بسبب شعره الأحمر، وهو رجل قوي البنية، وهادئ الطبع، وربما كان أفضل ما يروق له هو تلقِّيه دعوة من أصدقائه من رجال صناعة النفط لتبادل الحديث معهم حول آخر عمليات التنقيب عن النفط في الخليج.

ولكن المظاهر الخارجية كانت تخفي وراءها رجلاً داهية يؤمن بقناعات أخلاقية ثابتة. وهذا هو السبب الذي جعل أصدقاءه حائرين في عام ١٩٣٩، بعد وقت قصير من إندلاع الحرب، تجاه تحوّل إريكسون المفاجئ نحو الدفاع عن القضايا النازية. وما زاد من حيرتهم أكثر من ذلك هو أن إريكسون، الذي لا يعرف عنه أي تحامل ضد

أحد، بدأ في اتخاذ مواقف صريحة معادية للسامية، وتوقف عـن التحـدث مـع أصدقائـه اليهود، حتى أنه حاول ذات يوم توجيه إهانة علنية إلى أحد رجال الأعمـال اليهود فـي أحد المطاعم. ولو أضيف إلى ذلك إعجابه الواضح بشخصية هتلر، فمن السـهل التـأكد من أنّ هذا التحوّل قد أدى إلى ابتعـاد جميـع أصدقائـه عنـه، واعتبـاره رجـلاً غريـب الأطوار. وبالنتيجة، حرص الجميع على تجنب الذهاب إلى بيته في ستوكهولم، خشـية سماعهم عبارات التقريع بكونهم يهودًا قذرين أو عبـارات المديـح لشـخصية وسياسـات أدولف هتلر.

كانت هناك مجموعة واحدة من الرجال في ستوكهولم الذين لـم يجـدوا غرابـة فـي مثل هذا السلوك. وفي واقع الأمر، فهذه المجموعة، كانت تراقب بسـعادة بالغـة إهتمـام إريكسون المتزايد بالأيديولوجية النازية. ولاحظ الرجال في محطة وكالة الاسـتخبارات النازية في السفارة الألمانية في ستوكهولم تحوّل إريكسون المفاجئ نحو اليميـن. وهـذه الملاحظة أثارت إحتمالات: ألمانيا في حاجة ماسة إلى النفط، وإريكسون، أحد الخـبراء البارزين في العالم في هذا المجال، يمكن أن يكون جاسوسًا نافعًا. وجرت معه مفاتحـة مترددة وحذرة: هل يبدي الهر إريكسون إهتمامًا في مساعدة النظام النـازي؟ وكـان رد إريكسون بالإيجاب.

وهكذا، أخذ الألمان الطعم المنتظر. وفي حقيقة الأمر، فـإن إريكسـون كـان يشـعر بالإشمئزاز تجاه النازيين، ولكنه تلقى تعليمات بوجوب تكويـن صـورة ظاهريـة مؤيـدة للنازية كسبيل إلى حمل وكالة الاستخبارات النازية على اختياره جاسوسًـا نافعًـا. وقبـل بضعة شهور، كان أحد الدبلوماسيين الأميركيين، وهو لورانس شتينهارت، تحـدث إلـى إريكسون وهو في طريقه إلى موسكو لتولي مهام أعماله كسفير للولايات المتحدة لـدى الاتحـاد السوفياتي. وانتهـى شتينهارت، الخبير فـي شؤون النفـط، فـي حديثـه مـع

إريكسون، إلى قناعة مؤداها أن الحرب بين الدول الصناعية الكبرى سوف تكون مرتبطة بقضية النفط إلى حد كبير، وأن الدولة التي تملك كميات كافية من النفط لتزويد طائراتها ودباباتها بالوقود وتحافظ على إستمرارية دوران عجلة صناعاتها، سوف تنتصر في الحرب. واقترح شتينهارت خطة جريئة: إذا ما اتخذ إريكسون مظهرًا مؤيدًا للنازية، فإنه بذلك يسمح للألمان باختياره خبيرًا معينًا لهم ومستعدًا لتقديم النصيحة إلى النظام الألماني حول إنتاج النفط. وربما يؤدي هذا، في مرحلة معينة، إلى قيام إريكسون بالاطلاع على التسهيلات الألمانية لانتاج النفط.

وهذا ما أرادت الاستخبارات الأميركية معرفته. ومنذ الحرب العالمية الأولى، حقق الألمان تقدمًا كبيرًا في مجال تكنولوجيا النفط الصناعي من بين دول العالم، وهي عملية صناعية تقوم على تحويل الفحم إلى نفط صناعي. وهذه العملية تؤدي إلى تقليص الإعتماد على النفط الخام المستورد الذي يحتمل توقف تدفقه بسهولة في أيام الحرب، وذلك على الرغم من أن تكاليف هذه العملية الصناعية باهظة. وأراد الأميركيون ان يعرفوا مدى تطور صناعة النفط الصناعي في ألمانيا، ثم، وهذا هو الأهم... وكان وجود المصانع... هذه المصانع التي كانت خاضعة لرقابة أمنية مشددة، حتى أن الاستخبارات البريطانية والأميركية لم تكن لديها معلومات كثيرة عنها.

مع نهاية عام ١٩٣٩، بدأ إريكسون القيام بجولات مكوكية منتظمة إلى ألمانيا النازية من أجل التشاور مع خبراء النفط. وفي ظل تميزّه بذاكرة قوية، استطاع إريكسون أن يتذكر كل تفاصيل رآها أو سمع عنها: في كل عودة إلى ستوكهولم، كان إريكسون يجلس مع مسؤولين في وزارة الخارجية الأميركية، وينقل إليهم هذه التفاصيل. وفي واقع الأمر، كما اكتشف إريكسون نفسه في وقت لاحق، لم يكن هناك الشيء الذي يمكن أن يقدمه إريكسون إلى الالمان في هذا المجال، ذلك أن صناعة

النفط الصناعي في ألمانيا كانت متطورة جدًا، وذلك إلى الحد الذي جعل هتلر يعتقد أنه يمكنه تغطية كل احتياجات ماكينة الحرب الألمانية من النفط عن طريق مصانع النفط الصناعي. ولكي يجعل اللعبة ماضية في طريقها، إقترح إريكسون فكرة جديدة، وشعر رئيس وكالة الاستخبارات النازية هينريش هيملر بالارتياح تجاهها: السويديون سوف يقومون ببناء مصنع ضخم لانتاج النفط الصناعي في السويد، مستخدمين في ذلك رأس المال الألماني. وبذلك، ففي حالة تعرض المصانع الألمانية للتدمير أو إصابتها بأضرار مادية بالغة، يكون لألمانيا مصدر آخر للنفط.

وكما توقع إريكسون ، فإن هذه الفكرة جعلت الألمان يوافقون على قيام إريكسون بسلسة متواصلة من جولات تفقدية إلى مصانعهم النفطية، والغرض من ذلك هو جعل إريكسون عارفًا بالتكنولوجيا الألمانية، تمهيدًا لبناء مصنع في السويد. ومع حلول ١٩٤٣، أصبح إريكسون يملك صورة كاملة عن مواقع المصانع الألمانية. وليس من قبيل المصادفة في شيء القول إن مواقع هذه المصانع بدأت بعدئذٍ تتعرض لهجمات القاذفات الأميركية المركزة. ولم تكن القاذفات الأميركية تعرف بالضبط مواقع هذه المصانع فحسب، وإنما كانت أيضًا دقيقة في إصابة أهدافها، وعلى الأخص بعد قيام الألمان بإعادة تشغيل هذه المصانع.

ولم يفكر الألمان في ذلك الارتباط القائم بين هجمات القاذفات الأميركية الدقيقة وبين حضور إريكسون إلى مواقع هذه المصانع. وفي هذه الأثناء، عكف إريكسون علي إتمام مهمّته بينما كان الألمان يدفعونه إلى استكمال الترتيبات الضرورية لبناء مصنع جديد في السويد. وكان شعورهم بالقلق أمرًا مفهومًا جيدًا، ذلك أنهم بدأوا يعرفون أن إنتاجهم من النفط الصناعي بدأ في التناقص التدريجي.

مع حلول منتصف ١٩٤٤، بدأ إنتاج ألمانيا من النفط الصناعي في النضوب، وبدأت ماكينة الحرب الألمانية تحصل على إحتياجاتها من مخزون النفط الاحتياطي الاستراتيجي مباشرة. ومع نهاية ذلك العام، انهارت صناعة النفط الصناعي في ألمانيا على آخرها. وهكذا، انتهت مهمة إريكسون. ولم تعد هناك أية جدوى من قيامه بالمزيد من الجولات التفقدية إلى ألمانيا، وذلك لعدم وجود شيء يمكن أن تهاجمه القاذفات الأميركية...

وبينما عكف الألمان على إعداد مجموعة من الثيران لجر أعجوبة التكنولوجيا، الطائرة ME-262، على مدرج الطائرات، كان إريكسون ضيف الشرف في حفل غداء في ستوكهولم أقامه تكريمًا له أصدقاؤه الأميركيون. وأثناء حفل الغداء، جرى الإعلان صراحة عن أن إريكسون لم يكن مؤيدًا للنازية، وإنما إتخذ مظهرًا مخادعًا للقيام بذلك "العمل العظيم" لحساب الحلفاء. وظل هذا العمل العظيم غير محدد بدقة، ولكن الحقيقة الهامة هي أن إريكسون أعاد علاقته الطيبة مع أصدقائه القدامى الذين تعامل معهم باحتقار مقصود من أجل توفير غطاء محكم لمهمته.

ومع انتهاء الحرب، عاد إريكسون إلى تجارة النفط، ووصفه أيزنهاور بأنه الرجل الذي عمل على "تقصير مدة الحرب بعامين على الأقل". وكتب إريكسون كتابًا عن دوره في الحرب، وكان واحدًا من أكثر الكتب رواجًا، غير أن إريكسون أخذ معه إلى القبر سرًا واحدًا حينما مات في ١٩٨٣: قائمة بأسماء السويديين الذين وافقوا في السر على التعاون مع الحكومة النازية في حالة قيام ألمانيا بغزو السويد. وبناء على رغبة أيزنهاور، حرق إريكسون تلك الوثيقة من أجل إحباط أية محاولة ضد المنشقين[1].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريون غيّروا مجرى التاريخ ص١٩٣ ـ ١٩٨.

الرئيس أيزنهاور والعمليّات الخفيَّة

في غضون الحرب العالميّة الثانية، كان العمل الخفيّ سلاحًا في الترسانات السريّة والبوليسيّة للجنرال "دونوفان" ومكتب الخدمات الاستراتيجيّة الأميركيّة التابع له. وحين أُنشئت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA سنة ١٩٤٧، لم يكن واضحًا أنّ الوكالة سوف تضطلّع بالعمل الخفيّ، إلاّ أنّ الميثاق الذي فوّض الوكالة ذلك الحقّ احتوى على إحدى التعليمات بأنّ الوكالة يجب أن "تؤدّي وظائف أخرى وواجبات تتعلّق بالمخابرات المؤثّرة على الأمن القوميّ". وقد تمّ اختبار مصداقيّة مرونة تلك العبارة حينما سأل مدير المخابرات المركزيّة الأدميرال "روسكر هيلينكويتر"، كبار المسؤولين في حكومة الرئيس الأميركيّ "هاري ترومان" عمّا إذا كانت "الوظائف والواجبات الأخرى" تقع ضمن نطاق العمل السريّ الخفيّ. فقام "هيلينكويتر" بسؤال كبير المستشارين القانونيّين بوكالة المخابرات المركزيّة "لورانس هيوستون" عمّا إذا كانت العبارة تخوّل الوكالة سلطات لذلك، فأجاب "هيوستون" بالنفي. وحينما طلب منه أن يراجع المسألة، قال "هيوستون" إنّ وكالة المخابرات المركزيّة تُجري بصورة شرعيّة العمل الخفيّ إذا أصدر الرئيس الأميركيّ، باعتباره القائد الأعلى، توجيهات خاصّة تفوّض الوكالة القيام بمثل ذلك النشاط، وإذا طلب الكونغرس بتخصيص الاعتمادات الماليّة المطلوبة. تلك كانت بداية الاستخدام النظاميّ للعمل الخفيّ من جانب الولايات المتّحدة إبّان صراعها في الحرب الباردة مع الاتّحاد السوفياتيّ السابق. وفي عهد الإدارتَين الأميركيّتَين اللتَين ترأسهما الرئيس "دوايت أيزنهاور" قام بتفويض الوكالة بالعمليّات السريّة وذلك تنفيذًا لتوصيات وزير الخارجيّة "جون فوستر دالاس" وتعهّد بإجرائها شقيق دالاس "آلن ويلش دالاس".

كان "جون فوستر دالاس" محاربًا غيورًا ومتحمّسًا إبّان الحرب الباردة، وكان مصممًا على دحر التوسّع السوفياتيّ. وأوشك على الوصول إلى حافّة المواجهة مع الروس أكثر من مرّة، حتّى أنّ سياسته الخارجيّة تُعرف باسم "الصمود على حافّة المواجهة". وحينما قرّر أن يزيد من برامجه العلنيّة في إطار العمل السريّ كان كلّ ما يتوجّب عليه عمله هو اللجوء إلى شقيقه...

قام "آلن ويلش دالاس" بإجراء مجموعة من العمليّات السريّة الباهرة في أوروبّا لمصلحة مكتب الخدمات الاستراتيجيّة إبّان الحرب العالميّة الثانية. وقبيل أن يصبح مديرًا لجهاز وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة، كان قد خدم فترة من الزمن رئيسًا لجهاز المخابرات السريّة، وكان دائمًا توّاقًا إلى الإشتباك مع العدوّ الروسيّ في الأزقّة المظلمة في أرجاء العالم.

كان الأخوان "دالاس" يفتقدان إلى التفويض للقيام بالعمل السريّ في الخارج لحسابهما، إلاّ أنّهما تشجّعا على فعل ذلك على أيدي الرئيس "أزنهاور"...

اكتشف المؤرّخون، في السنوات الأخيرة فقط، أنّ الرئيس "أيزنهاور" كان نصيرًا متحمّسًا للأنشطة السياسيّة وشبه العسكريّة السريّة. ولم ينسَ "أيزنهاور" كيف أنّ عمليّات المخابرات فعّالة دائمًا، وخاصّة حينما تقترن بالحرب النفسيّة وعمليّات التخريب التي يقوم بها رجال حرب العصابات. وكلّها أسدت له خير المعونة حينما كان القائد الأعلى للقوّات المسلّحة إبّان الحرب العالميّة الثانية. وشرع أحد المؤرّخين في كتابة السيرة الذاتيّة للرئيس "أيزنهاور" على مدى عشرة سنوات في أعقاب تنحّيه عن منصبه، وكان المؤرّخ يعتقد أنّ الجنرال السابق أضحى هادئًا وحالمًا ومسالمًا داخل جدران البيت الأبيض. إلاّ أنّ هذا المؤرّخ كتب بعد ذلك بعدّة سنوات يقول: "إنّ البحث في الأوراق المصنّفة للرئيس "أيزنهاور" أبرزت لي الدور المحوريّ الذي لعبته

العمليّات السريّة والخفاء والحيل القذرة والعصيان والتمرّد المضـادّ. إنّ مسـألة مـا، إذا كان يتعيّن على بلادنا ـ أميركا ـ أن تقوم بالعمل الخفيّ أم لا، لهي جديرة بالمناقشة.

الاستخبارات الصهيونيّة في الحرب العالميّة الثّانية

إستغلّت الحركة الصهيونيّة الحرب العالميّة الثانية استغلالاً كبيرًا، في الوقت الـذي كان العالم مشغولاً فيه بالعمليّات العسكريّة علـى مختلف جبهات القتـال. فقد جنّدت الاستخبارات الصهيونيّة عددًا هامًّا من عناصرها بالتعاون مع الاستخبارات البريطانيّة، وركّزت جهودها على الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين، وخصوصًا من مصر. وقـد كلّف في العام ١٩٤١ "موشي بن آشير" بمهمّة تشكيل جهاز سرّي للاستخبارات فـي مصر، بهدف تحريض اليهود فيها على الهجرة إلى فلسطين. وخلال مدّة وجيزة أنشأ بن آشير تنظيمًا واسعًا بين اليهود، وكانت نتيجة جهوده أن أبحرت من ميناء الإسكندريّة أوّل سفينة للمهاجرين اليهود المصريّين إلى فلسطين. كما استطاع تجنيد عدد من الضبّاط في مصر، واستخدامهم في هجرة الفتيّات اليهوديّات بواسطة عقود زواج وهميّة[1].

وفـي العـام ١٩٤٣، كلّفت الاستخبارات الإسرائيليّة أحد شباب الكيبوتزات فـي عسقلان، ويدعى "ديفيد هـاميري"، الإشراف علـى هجرة اليهود من الدول العربيّة، خاصّة يهود مصر، إلى فلسطين. وقد ساهم هـاميري فـي تكوين جهـاز سـرّي للاستخبارات مقرّه الرئيسيّ فـي الإسكندريّة، وضـع علـى رأسه سيّدة يهوديّة تدعى

---

١ ـ عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، ص٤٠.

"روث كليفر"، عُرفت بعلاقاتها المتينة مع الحركة العمّاليّة بمصر. وقد حُدّدت مهمّة كليفر بالعمل على إيجاد وسائل لتهريب اليهود المصريّين إلى فلسطين. وفي أقلّ من عام أنشأت كليفر شبكة واسعة، مستعينة بـ"ألبرت شويكة" لمساعدتها في إدارة الشبكة، وهو يهوديّ مصريّ كان يملك مكتبة للقرطاسيّة في الإسكندريّة. وقد تمكّنت كليفر من خلال شبكتها من الحصول على جوازات موقّتة وتأشيرات مرور "ترانزيت" وتسهيلات عديدة أخرى، ساهمت في تنمية الهجرة السريّة لأعداد كبيرة من اليهود المصريّين الذين انتقلوا إلى أوروبّا ومنها إلى فلسطين.

عزّزت الاستخبارات الإسرائيليّة في سنوات نهاية الحرب العالميّة الثانية من عملائها في مصر لتهريب اليهود إلى فلسطين. ففي ربيع ١٩٤٤، وصل إلى مصر أحد كبار عملاء تلك الاستخبارات: "ليفي أبراهام"، متنكّرًا بصفة ضابط إنكليزيّ، بالنظر إلى أهميّة مصر بالنسبة إلى البريطانيّين والعرب. وكانت القاهرة مقرّ الإنكليز العامّ في الشرق الأوسط، وخير مكان يستشفّ فيه ما يخبّئ الإنكليز من خطط للمنطقة، ومن الممكن أيضًا تحرّي مواقف الزعماء العرب فيها. وقد قام مع إحدى العميلات المتحدّرة من عائلة يهوديّة غنيّة من سكّان الإسكندريّة تدعى "يولاندا غاباي" باستئجار فيلاً خارج الإسكندريّة وادّعيا أنّها مقرّ استجمام صحّي لجنود الحلفاء، بينما لم تكن في واقع الأمر سوى قاعدة لتهريب اليهود إلى فلسطين، كما انضمّ إلى هذه الشبكة الجاسوس المشهور "إيلي كوهين"[1].

---

١ ـ أيزنبرغ دينيس، الموساد جهاز المخابرات الإسرائيليّة السرّي، منشورات المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت،١٩٨١) ص٥٢.

الجاسوسيَّة بعدَ الحَرب العالميَّة الثَّانية

في النصف الثاني مـن القرن العشرين تطـوّرت أجهـزة الاستخبارات فـي سباق محموم للتميّز والتفوّق، وظهرت طائرات التجسّس وسفن التجسّس ثمّ أقمـار التجسّـس التي أحدثت نقلة أسطوريّة في عالم الجاسوسيّة لدى الـدول الكبرى، استلزمت بالتـالي دقّة متناهية في التمويه. واتّبعتها الدول الأقـلّ تطـوّرًا التـي لجأت إلـى أسـاليب غريبـة وخداعيّة تصل إلى حدّ الاعجـاز. بيد أنّـه بـالرغم من كلّ تلـك الوسـائل التكنولوجيّـة المعقّدة، يقـول خـبراء الاستخبارات إنّـه لا يمكـن الاستغناء عـن الجاسوس. فـأجهزة الاستخبارات التي تحصل على ٩٠٪ من المعلومات بواسطة التنصّت وأقمار التجسّـس وسائر الأجهزة المزروعة، وعلى ٥٪ عن طريق وسائل الإعلام المرئيّـة والمسموعة والمقروءة، يبقى إذن ٥٪ من المعلومات السريّة التي لا يمكن الحصول عليها إلاّ عـن طريـق عمـل الجواسيس، ذلـك أنّ أدقّ المعلومـات وأخطرهـا تكمـن فـي تلـك النسـبة الأخيرة[1].

---

١ ـ الفالوجي، جواسيس الموساد العرب، ص١٦.

المراجع والفهرس

لائحة المراجع

أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ – ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١)

أيزنبرغ دينيس، الموساد جهاز المخابرات الإسرائيليّة السرّي، منشورات المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت،١٩٨١)

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،لا.ت.)

زهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

سنجر كيرت، أعلام الجاسوسيّة العالميّة، ترجمة بسّام العسلي، دار اليقظة العربيّة (بيروت،١٩٦٥)

عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت،١٩٧٦)

الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ترجمة مصطفى الرز، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٩)

قبيسي د. بشرى ومخّول موسى، الحروب والأزمات الإقليميّة في القرن العشرين، دار بيسان للنشر والتوزيع (بيروت،١٩٩٧)

كان دايفيد، حرب الاستخبارات، ترجمة عبد اللطيف أفيوني، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ط٢ (بيروت،١٩٨٢)

ملكي علي، الجاسوسيّة الصهيونيّة في البلاد العربيّة، منشورات صوت الشوف (لا.ت.)

الموسوعة العربيّة الميسّرة، دار الجيل والجمعيّة المصريّة لنشر المعرفة والثقافة العالميّة، ط٢ (بيروت،٢٠٠١)

Astely Joan Bright, *The Inner Circle,* Hutchinson (London,1971)

Budenz Louis, *This is My Story,* Whittlesey Housse (New york, 1947)

Calvocoressi Peter, *Top secret Ultra,* Cassell (London,1980)

Churchill Winston S., *The Second World War,* vol. III, Cassell (London,1950)

Collier Richard, *The War that Stalin Won,* Hamish Hamilton (London)

Conquest Robert, *Insice Stalin's secret Police: NKVD politics 1936-1939,* Macmillan, (London,1985)

Dallin D.J., Soviet Espionnage, yale University press (New Haven,1955)

Davies Norman, God's Playground: A History of Poland, vol. II, Clarendon press (Oxford,1981)

Dilks David N. (ed.), *The Diaries of Cadogan OM 1938-1954,* Cassell (London,1971)

Duroselle J. B., *La Décadence,* Imprimerie nationale 1932-1939, (Paris,1979)

Erickson John, *The Road to Stalingrad,* Panther Books (London,1985)

Erickson John, *The Road to Berlin,* Weidenfeld and Nicolson (London,1983)

Erickson John, *The Great Identifical and Strategic Appraisal by the Soviet Union 1930-1941,* in Ernest R. May ed. Knowing one's Enemies (Princeton University Press, 1984)

Gilbert Martin, *Winston S. Churchill,* Heinemann (London, 1976)

Gilbert Martin, *The Second World War,* Weidenfeld (London,1989)

Gordosky Gabriel, *Stafford Gipp's Mission to Moscow 1940-1942,* (Cambridge University Press,1984)

Hanner Milan, *Hitler: Achronalogy of His Life and Times,* Macmillan (London,1983)

Haslam Jonathan, *Soviet Union and the Struggle for Collective Security,* 1939 Macmillan (Lonon,1983)

Hull Cordell, *The Memoirs of Cordell Hull,* Macmillan (New-York, 1948)

Joukov G.K., *The Memoirs of Marshal Zhukov,* Jonathan cape (London,1971)

Khokhlov Nikolai y., *In the Name of Conscience,* Frederick Muller (London, 1960)

Krasnov N.N., *The Hidden Russia: My Ten Years as a Slave Labourer, Holt,* Rinechart (New york,1960)

Lord Moran, *Winston Churchill: the Struggle for Survial 1940-1965,* Constable (London, 1966)

Mastny Vojtech, *Russia's Road to the Cold War,* Columbia University press (New-York,1979)

Mc Laine Ian, *Ministry of Morale,* Allen and Unwin (London,1979)

Moravec Frantisek, *Master of Spies,* Bodley Head (London,1975)

Nyaradi Nicholas, *My Ringside Seat in Moscow,* Growell (New York,1953)

Porter Cathy et Jones Mark, *Moscow in Word War Two,* Chatto et windus, (London,1987)

Read Antony et Fisher David, *Operation Lucy,* Hodder and Stoughton (London,1980)

Roosevelt Elliot, *As He saw It,* Duelle, Sloan and Pearl (New-York,1946)

Seaton Albert, *Stalin as Warlord*, Batsford (London,1976)

Sherwood Robert E., *Roosevelt and Hopkins, An Intimate History*, Grosset and Dunlap (New-York,1950)

Smith Bradley F., *The Shadow Warriors*, André Deutsch (London,1983)

Smolka H. P., *Forty Thousand Against the Arctic: Russia's Polar Empire*, Hutchinson (London,1938)

Staight Michael, *After Long Silence*, Collins (London,1983)

Tanner Vainö, *The Winter War* (Stanford university press,1957)

Thomas Hugh, *Armed Truce: The Beginnings of Cold War*, Hamish Hamilton (London,1986)

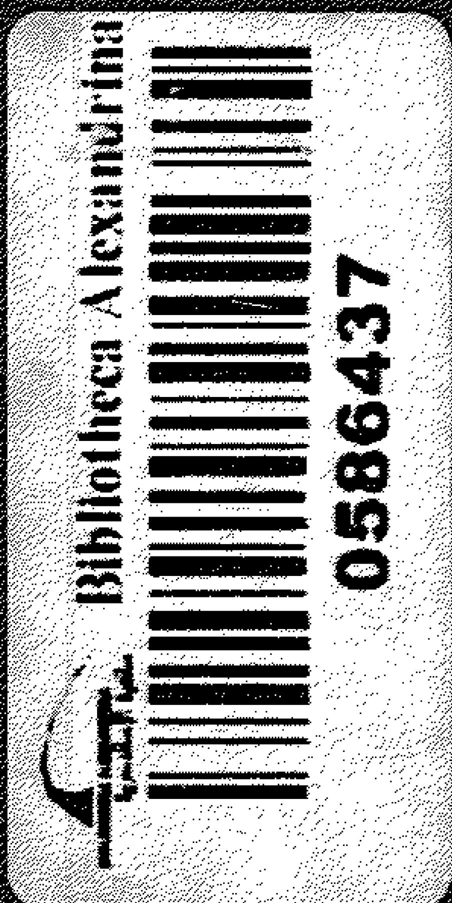
Tolstoï Niekolaï, *Stalin's secret war*, Jonathan cape (London,1981)

West W.J., *The Truth About Hollis*, Duckworth (London,1989)

Whaley Barton, *Codeword Barbarossa*, Mass. M.I.T Press (Cambridge,1974)

الفهرس

الموضوع	الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
0586437